سلسلة مراكز الحضارة

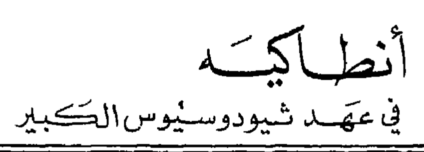


أنطاكية

في عهد ثيودوسيوس الكبير

جلانفيل داوني

ترجمة الدكتور ألبرت بطرس


أنطاكية
في عهد ثيودوسيوس الكبير

نشر بالاشتراك مع

مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر

بيروت – نيويورك

١٩٦٨

جلانفيل داوني

أنطاكية

في عهد ثيودوسيوس الكبير

ترجمة الدكتور ألبرت بطرس

مكتبة لبنان

هذه الترجمة مرخص بها وقد قامت
مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر
بشراء حق الترجمة من صاحب هذا الحق

المسهمون في هذا الكتاب

جلانفيل داوني

(المؤلف) استاذ الأدب البيزنطي في جامعة هارفرد . من مؤلفاته « انطاكيه القديمة » (١٩٦٢) ، و « انطاكيه في بلاد سوريه » (١٩٦٠) ، وكتاب « القسطنطينية في عهد جستنيان » وهو واحد من كتب هذه السلسلة .

الدكتور ألبرت بطرس

(المترجم) نال درجة الدكتوراه في اللغة الانجليزية من جامعة كولمبيا عام ١٩٦٣ . وهو الآن استاذ اللغة الانجليزية ورئيس قسم اللغة الانجليزية وآدابها في الجامعة الاردنية .

تمهيد

كان الانسان ، في عالم الفكر اليوناني ، نتاج المدينة التي عاش فيها الى حد كبير . فقد اعتبر ان الحضارة الانسانية وصلت اعلى مراحل تطورها ضمن حدود المدينة ، كما اعتقد أن الحضارة تصل الى مرحلة الازدهار التام في المدينة اولا ، اي ضمن نطاق المجتمع الصالح . ولهذا ، فليس من الصعب ان ندرك ان دراسة كل من افلاطون وارسطوطاليس للثقافة المعاصرة ادت بهما الى وقف جانب من افضل كتاباتهما على تحليل المدينة المثلى ومجتمعها .

وحين تدرس المدينة القديمة ، فان انطاكيه في سوريه تبدو دائما مثالا فريدا في اخباره عن المدينة اليونانية الرومانية ، اذ انها تعرض ، من زوايا عدة ، تفاعل العناصر المختلفة التي قامت عليها المدينة ، وتظهر تطور التراث الذي شكلته تلك العناصر . ويحاول الكتاب الذي بين ايدينا ان يعرض الحالة التي صار اليها هذا التراث في الجزء الاخير من القرن الرابع بعد المسيح ، وهي الفترة التي بلغت فيها المدينة اعلى درجات الرخاء تحت حكم الامبراطورية الرومانية . ولدينا عن هذه الفترة بالذات مصادر عظيمة الغنى عن تاريخ

انطاكيه ، سواء منها المصادر الاثرية أو الادبية . ففي هذا الوقت ، كانت انطاكيه ، المدينة اليونانية الكلاسيكية ، تمر في عملية تحول تدريجي الى مدينة جديدة نشأت فيها الثقافة اليونانية المسيحية الجديدة التي وضعت الاساس للعالم البيزنطي . وقد وصفت هذا التراث ، كما تسلمته القسطنطينية ، العاصمة البيزنطية ، من انطاكيه وغيرها من المدن في كتابي « القسطنطينية في عهد جستنيان » Constantinople in the Age of Justinian الذي كتبته لهذه السلسلة . وهكذا فان موروث انطاكيه ، الذي حفظته القسطنطينية ونقلته ، غدا جزءا من الثقافة الغربية .

ثمة كتابان آخران في سلسلة مراكز الحضارة يفيدان كخلفية لهذا الكتاب ، وهما « أثينه في عهد بركليس » Athens in the Age of Pericles بقلم تشارلز الكسندر روبنصن الابن ، و « رومه في عصر اغسطس » Rome in the Age of Augustus بقلم هنري طومبسون روويل .

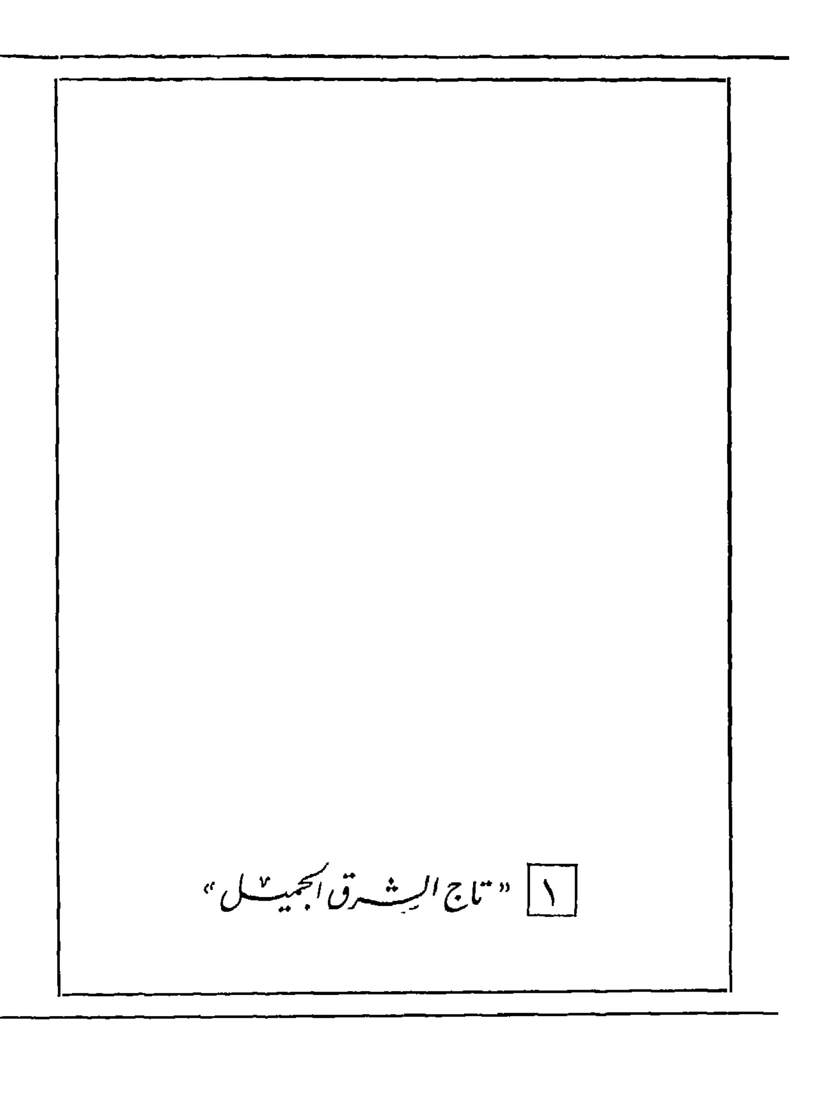
ان من بين النتائج الهامة لدراسة كهذه تأكيد الاحترام القديم لدور الماضي كعنصر يساهم في تكوين الحاضر وفي التهيئة للمستقبل . ففي كل من الفكر الوثني والمسيحي — رغم اختلاف التعبير طبعا — اعطى الماضي امكاناته من اجل الحاضر وقدم شيئا من الثقة في ثبات المستقبل . وكما تعلم الناس في العصور الكلاسيكية من تاريخ ماضيهم ، فقد نصل نحن الى فهم افضل لعالمنا بدراسة أصوله .

لقد كان من دواعي الفخر وحسن الحظ أن سمح لـي بالاشتراك في استكشاف انطاكيه خلال المرحلة الاولى مـن الحفريات التي اجريت من عام ١٩٣٢ حتى عام ١٩٣٩ . وقد وصلت دراسة تاريخ المدينة التي بدئت آنذاك الى قمتها بنشر هذا الكتاب وكتاب آخر عن انطاكيه .

دمبارتون اوكس ، **جلانفيل داوني**

واشنطن ،

آب ، ١٩٦٢



١ "تاج الشرق الجميل"

« تاج الشرق الجميل »

اميانوس مارسيلينوس

في شهري تموز (يوليه) وآب (اغسطس) من كل سنة كبيس ، حسب التقويم اليولياني ، كان يفد الى انطاكيه في سوريه زائرون من جميع انحاء العالم اليوناني الروماني ، لحضور الالعاب الاولمبية التي كانت تعقد في هذه المدينة مرة كل أربع سنوات . وكانت هذه الاحتفالات قد تأسست في العاصمة السورية منذ زمن بعيد يرجع الى عهد اغسطس (٢٣ قبل الميلاد ــ ١٤ بعد الميلاد) وكلوديوس (٤١ ــ ٥٤). أما في زمن الامبراطور ثيودوسيوس الكبير (٣٧٩ ــ ٣٩٥) فقد اكتسبت هذه الالعاب شهرة تفوق شهرة الالعاب الاولمبية الاصلية ، التي كانت تقام في اليونان ، والتي منها استمدت احتفالات انطاكيه اسمها . وكان كل زائر لانطاكيه يجد في هذه الاحتفالات اشياء تهمه : من مباريات رياضية من كل نوع ، وسباق خيل ، ومسابقات موسيقية، وخطب ومناظرات ادبية . ومما جعل هذه الاحتفالات حدثا دائما مرغوبا في

عالم تلك الحقبة ، انها كانت تقام خلال شهري الصيف ، حين يحتبس المطر ويكون الطقس في احسن احواله .

ولكن هذه الالعاب لم تكن العامل الوحيد في اجتذاب الزائرين الى انطاكيه . فقد كانت المدينة نفسها تعتبر اروع مدن الشرق اليوناني ، وقد سماها المؤرخ اميانوس مارسيلينوس الانطاكي « تاج الشرق الجميل » ، ومعنى ذلك انها كانت تعد من ابدع مدن العالم المتحضر آنذاك ، فلم تكن تضاهيها في الشرق ، من حيث اتساع الرقعة والجمال ، الا مدينتا الاسكندرية والقسطنطينية . اما اثينه فانها ، وان كانت رائعة في جميع العصور ، الا أن مراكز الحضارة الكبيرة في الشرق كانت قد فاقتها حجما واتساعا . ولقد كانت غزة ، تلك المدينة الجامعية على الساحل الفلسطيني ، بلدة تبعث على السرور ، ولكنها ، شأنها شأن اثينه ، لم تكن تقوى على منافسة عاصمة اقليمية بمثل اتساع انطاكيه وازدهارها . ولم تكن انطاكيه عاصمة اقليمية وحسب ، بل كانت ايضا مقر اسقفية الشرق ، وكانت هذه من أهم الوحدات السياسية في النصف الشرقي من الامبراطورية .

وبالفعل ، فقد كان الناس يقصدون انطاكيه ، ليس لمشاهدة الالعاب فقط ، ولكن لاستكشاف المدينة والاستمتاع برؤية أبنيتها الفخمة ومناظرها الطبيعية الخلابة التي كانت تحيطها من كل جانب . وكانوا يقصدونها ايضا لشراء ما كانت تشتهر

به من بضائع الترف ، كالأحذية الجلدية الممتازة ، والعطور ، والتوابل ، والأقمشة ، والحلي ، والكتب ، ومصنوعات صاغة الذهب والفضة الذين كان لهم قصب السبق بين صناع المدينة المهرة منذ تأسست سنة ٣٠٠ قبل الميلاد على يد سلوقس الفاتح ، أي قبل زمن ثيودوسيوس بستمائة وثمانين عاما . وكانت زيارة انطاكيه من المتع المفضلة في عالم كان يعتبر السفر ، منذ أيام هيرودوتس ، شيئا أساسيا لشحذ الذهن وارهاف الذوق . وكان لكل مدينة طابع فريد ، بتاريخها الخاص وتقاليدها المميزة ، بانجازاتها ، بمظاهر جمالها الطبيعي ، وبكل جذاب فيها . وكان باستطاعة المسافر أن يتعلم شيئا جديدا في كل مكان يزوره .

وكان موقع انطاكيه على احدى أهم طرق التجارة بين الشرق والعالم اليوناني الروماني قد وفر لها منذ عهد مبكر رخاء وحضارة رفيعة ؛ وكان مناخها الطيب ، بنسيمه الصيفي الملطف الذي كان يهب عليها يوميا عبر وادي نهر العاصي من البحر الأبيض المتوسط ، قد جعل منها منتجعا مألوفا يقصده الناس لقضاء العطل ، ومصيفا يلجأون اليه هربا من الحر القاسي والرطوبة الشديدة التي تسيطر على منطقة شرق البحر الأبيض المتوسط . وبالفعل لم يقتصر اجتذاب المدينة للزوار على فترة الألعاب الاولمبية ، بل كان الزوار يفدون اليها كل يوم ، يقابلون بالترحاب ويتمتعون بالطعام الممتاز والمأوى الفخم .

وسواء أوصل الزائر من ميناء سلوقيه بيريه بطريق البر الموازي لنهر العاصي ، أو على الطريق المستوية من كيليكيه وآسيه الصغرى ، الى الشمال ، او سلك الطريق من بيرويه (حلب اليوم) والشرق والجنوب ، فقد كان أول ما يواجهه من مناظر المدينة منظر جبل سيلبيوس الضخم الذي يطل أعلاه على المدينة من ارتفاع الف وخمسمائة قدم ، ويمتد بمحاذاة جانب المدينة الجنوبي والشرقي كالدرع الهائل، يحمي المدينة الراقدة تحته . وكان الزائر يرى ، حين يقترب من المدينة ، خطا من الأسوار ممتدا على قمة الجبل ، ينحدر معه الى مشارف المدينة الشمالية والجنوبية لينتهي ، عبر الارض المستوية ، الى النهر . وكان نهر العاصي يحد المدينة من الغرب ، ومن ثم يجري جنوبا نحو سلوقيه بيريه ، فالبحر . ويتضح من هذا الوصف ان المدينة كانت ذات شكل مستطيل ، طوله ميلان وعرضه ميل واحد ، يمتد بين النهر والجبل . وفي النهر ، شمالي المدينة ، كانت تقع جزيرة اضحت تدريجا جزءا مأهولا من المدينة ، حين زاد عدد السكان في عهد الملوك السلوقيين .

وقد يخطر للزائر النشط ان يتسلق جبل سيلبيوس . غير ان ذلك لم يكن بالامر السهل ؛ فقد كان تسلق الجبل حتى قمته ثم الرجوع ثانية يستغرق ، في الغالب ، يوما كاملا . الا ان المكافأة التي تكون بانتظار المتسلق كانت رائعة . فحتى لو لم تكن هناك مدينة في اسفل الجبل ، فان بهاء المنظر

وتنوعه للناظر من قمة هذا الجبل ، أمر تندر رؤيته من فوق غيره من الجبال ؛ فالى الجنوب من جبل سيلبيوس كانت تمتد سلسلة من الجبال باتجاه البحر ، تتشابك فيها السفوح والقمم صعودا حتى جبل كاسيوس الذي تعلوه الثلوج عند الشاطىء. وكان هناك نهر العاصي ، يمر عبر هذه السلسلة في الوادي الضيق ، على شكل خيط بعيد . وكان يمتد ، عبر العاصي ، من جهة جبل سيلبيوس ، السهل الكبير الفسيح المواجــه للمدينة ، ممتدا غربا وشمالا حتى الجبال التي كانت تحرس الممر المؤدي الى آسيه الصغرى . ولو أدار المتسلق عينيه الى جهة الجبل ، بعيدا عن المدينة ، لرأى الريف المتموج الذي تنتشر فيه البساتين . على مثل هذه الروعة كانت الخلفية الطبيعية لتاريخ انطاكيه .

وكان الناس في الأزمنة الكلاسيكية ينظرون الى «التاريخ» وكأنه تاريخ مدن ، وكان لمدن العالم اليوناني العظيمة جميعها : أثينه ، والاسكندرية ، وانطاكيه ، والقسطنطينية ، مؤرخوها. وقد احتفظت المكتبات المحلية والسجلات بالوثائق والتقاليد التي كان يفخر بها المواطنون بحق . وكانت المنافسات تقوم بين المدن مثلما قامت فيما بعد بين الدول والشعوب . وكان هناك عدد من الكتابات المعروفة عن انطاكيه ، وكان بوسع المسافر ان يهيىء نفسه بقراءتها استعدادا لزيارة المدينة ، من اشهرها كتاب «تأسيس انطاكيه» The Foundation of Antioch للكاتب الشهير بوزانياس الدمشقي . وكانت هنــاك سيَر

وضعها عن الملوك السلوقيين العالم يوفوريون الخلقيدوني، أمين مكتبة الملك انطيوخوس الكبير (٢٢٤ ــ ١٨٧ قبل الميلاد) ، ونيقولاوس الدمشقي . وكان من اكثر الكتب تشويقا المقالة المطولة بعنوان «في احتفالات دفنه» On the Festivals of Daphne التي كتبها بروتاجوريدس السيزيقي في عهد الملك انطيوخوس الرابع (١٧٦ ــ ١٤٦ قبل الميلاد) تمجيدا لدفنه ، وهي ضاحية مشهورة تقع على مسافة بضعة اميال الى الجنوب من المدينة ، وكانت من اجمل المناطق في العالم القديم ، ومصدر فخر خاص وانشراح لاهل انطاكيه . اما العالم الجغرافي سترابو ، فقد عول ، في كتابه الذي لا نزال نستطيع قراءته اليوم ، على رسالة العالم بوسيدونيوس الافامي الجغرافية التي احتوت على معلومات جمة عن مدينة انطاكيه .

وبالاضافة الى ذلك ، فقد كان بامكان المسافر في عهد ثيودوسيوس الكبير أن يقرأ المديح المعاصر اللامع للكاتب الشهير ليبانيوس الانطاكي، الذي كتبه تمجيدا للمدينة ، والذي لاقى قدرا كبيرا من النجاح عندما تلي في الالعاب الاولمبية المحلية قبل ذلك ببضع سنين . ولقد اعتبره الكثيرون من النقاد أرفع وصف للمدينة ، وكان قد شرع في استعماله نموذجا للمديح الممتاز في مدارس انطاكيه وغيرها من المدن . وكان الناس معجبين بشكل خاص بوصف مواقع الجمال الطبيعي في انطاكيه وضواحيها .

وكانت انطاكيه ، بوصفها مدينة هيلينستية ، تتمتع بجميع الميزات المتأتية من علم تخطيط المدن ، على العكس من بعض المدن اليونانية الأقدم منها . فمن حيث الموقع ، كانت انطاكيه اكثر حظا من جميع المدن الهيلينستية . وفي تخطيط المدن والاقتصاد السياسي في الزمن الكلاسيكي ، كان اختيار موقع مدينة جديدة يعتمد ، في الدرجة الأولى ، على صلاحه من الناحية الصحية ، ذلك لأن المدينة كانت تعتبر مركزا للحضارة لا يستعاض عنه ، ولأن نجاح المدينة وازدهارها كانا يعتمدان الى حد كبير على ميزات الموقع الطبيعية . وقبل تأسيس أية مدينة ، كانت تقوم دراسات حول سهولة تأمين المياه والمجاري لها، علاوة على جودة مناخها ؛ وقد عكس اهتمام ارسطوطاليس بالماء والهواء وتخطيط الشوارع ، في رسالته « كتاب السياسة » Politics خبرة اليونان الواسعة في انشاء المدن الجديدة التي اصبحت ضرورية لهم بفضل توسعهم التجاري والعسكري .

في جميع هذه المجالات ، كان لانطاكيه ان تدعي لنفسها التفوق على غيرها من المدن . فهي تقع في الزاوية الشمالية الغربية المزدهرة من سوريه ، على مسافة مناسبة من البحر قدرها ثمانية عشر ميلا ، على قرب كاف بحيث تصبح المواصلات اليها سهلة . وفي الوقت نفسه ، على بعد كاف يؤمن سلامتها في حالة تعرضها لهجوم من الأعداء . وقد كانت الأرض حول انطاكيه خصبة ، وذات شبكات جيدة

للري وتصريف المياه ، وكانت المواصلات اليها مؤمنة ومعروفة منذ زمن بعيد ، عن طريق البر والنهر .

وكان التجار اليونانيون قد استقروا على الساحل السوري قبل تأسيس انطاكيه بمدة طويلة ، في زمن يرجع الى العصور الميسينية . وكانت انطاكيه تعتز بالاساطير التي روت كيف قام بعض مشاهير الشخصيات الاسطورية بزيارة موقع المدينة المرتقبة ، وكيف أنهم استقروا فيه في كثير من الاحيان . وبذلك كانت ارادة الآلهة انفسهم هي التي أملت بأن تكون هذه المنطقة موقعا للمدينة .

وقد جاء الارجوسيون بقيادة تربتوليموس الى جبل سيلبيوس ، يبحثون عن ايو المتجول ، وحدث ان صعقهم جمال الموقع ، فتخلوا عن مهمتهم واستقروا على الجبل . وبعد مدة ، جاءهم اناس آخرون من أصل نبيل من جزيرة كريت تحت قيادة كاسوس واستقروا معهم على الجبل نفسه . ثم تزوج كاسوس ابنة سلامينوس ملك قبرص ، التي أحضرت معها حاشية من النسوة الى وطنها الجديد . ثم جاء أولاد هرقل بعد ان نفاهم يوريستيوس من بلاده . ولقد اكتسبت المدينة بهذا التاريخ الاسطوري اصلا وحسبا نبيلين .

وتقول المعتقدات المحلية ، ان الاسكندر الكبير وجيشه المنتصر خلفوا هؤلاء الزائرين الاسطوريين . وكان أهل انطاكيه

يدعون بأن الاسكندر ، بعد دحر جيش فارس في معركة ايسوس في خريف سنة ٣٣٣ قبل الميلاد ، مر بجيشه قرب موقع انطاكيه في طريقه جنوبا نحو فلسطين ، وعندما رأى هذا الموقع ، نذر بأن يقيم عنده مدينة بعد الانتهاء من غزواته . وتروي القصة أن الاسكندر صرح ، بعد أن شرب ماء من أحد العيون هناك ، بأن هذا الماء كان أعذب من لبن أمه . ومهما يكن من امر هذا الاعتقاد ، فقد كانت وفرة المياه وجودتها من أهم العوامل التي دعت الى بناء مدينة في تلك البقعة من الأرض . ففي هذا الجزء من سوريه تكوين جيولوجي خاص من الحجر الجيري المشقق ، يحوي كهوفا وخزانات تحت الأرض ، تتجمع فيها المياه التي تسقط في فصل الشتاء الممطر . وفي الأمكنة التي احدثت فيها الانكسارات في الطبقة الجيرية بعض الينابيع ، تنساب المياه في جميع فصول السنة ، بما فيها فصل الصيف الجاف الحار . وهكذا كانت هناك ينابيع دائمة في كل مكان من هذه المنطقة ، وخصوصا في البقعة التي اقيمت عليها ضاحية دفنه ، على بعد خمسة أميال الى الجنوب من انطاكيه . وقد تجمعت عدة ينابيع كبيرة دائمة الجريان قريبة من بعضها البعض في نقطة معينة. وبما أن دفنه كانت على مستوى أعلى من انطاكيه ، فقد كان من السهل جر هذه المياه الى المدينة بالجاذبية عبر قناة خاصة.

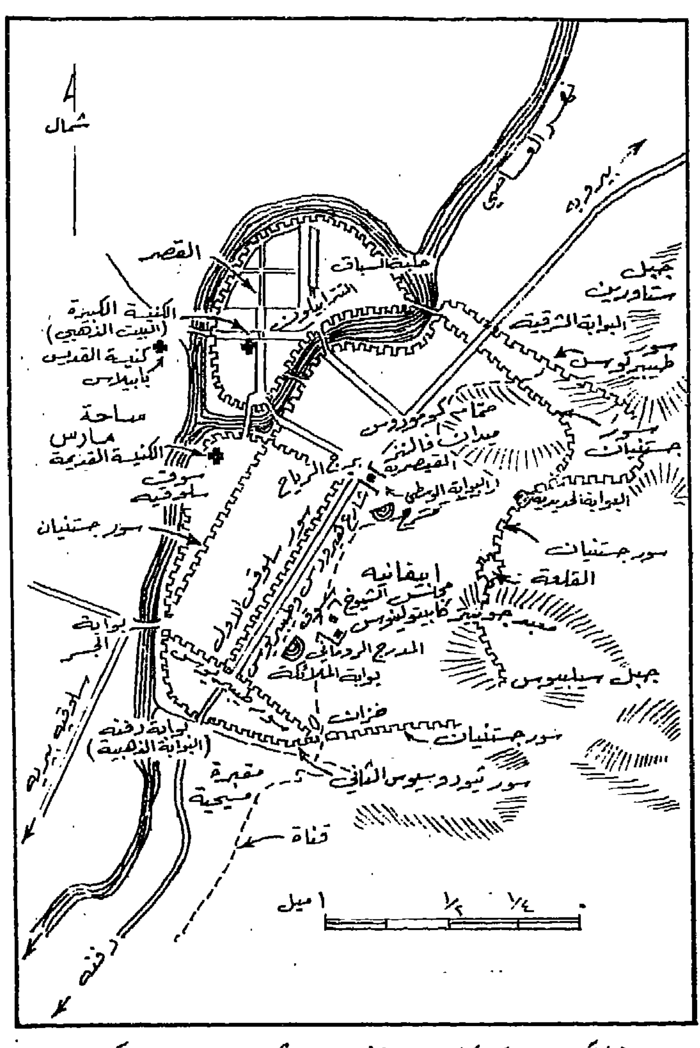
أما مؤسس انطاكيه الحقيقي فقد كان سلوقس نيكاتور ، الملقب بالفاتح ، وقد كان قائدا في جيش الاسكندر الكبير

وواحدا من خلفائه الذين اقتسموا امبراطوريته الشاسعة فيما بينهم . فبعد موت الاسكندر كانت سوريه من نصيب سلوقس ؛ وسواء أكان سلوقس ينفذ خطة رسمها الاسكندر أم لا ، فانه كان موفقا في اختياره حين قام بتأسيس انطاكيه سنة ٣٠٠ قبل الميلاد . ولا شك أن سلوقس ، ومستشاريه قاموا بوزن الامكانات المختلفة جميعها ، ومن الواضح أن موقع المدينة انما اعتمد بعد دراسة دقيقة . وبينما كانت وفرة المياه احدى المميزات الرئيسية للموقع ؛ فان مناخه المعتدل والصحي كان عاملا هاما في اعتماده نهائيا . فالطقس معتدل في الشتاء ، تتخلل الفصل المطر منه فترات مشمسة تأتي بانتظام؛ أما أشهر الصيف الطويلة الجافة ، فالطقس فيها يتميز الى حد كبير بالاعتدال واللطافة ، وهو ما يميز هذه المنطقة من العالم . وكان يهب على تلك البقعة يوميا وبانتظام نسيم عليل من البحر عن طريق وادي العاصي . وفي أشهر الصيف الطويلة ، (بما فيها شهر ايار – مايو – الذي يكون فيه الجو حارا أيضا) ، يساعد هذا التيار الدائم من الهواء النقي البارد على تخفيف شدة الحر والرطوبة . وسرعان ما اصبحت انطاكيه مصيفا يقصده الناس من باقي أنحاء سوريه ومن فلسطين ومصر . وقد كان الهواء المنعش موضع دراسة وتقدير ؛ يدلنا على ذلك انه عندما اقيمت الشوارع في المدينة الجديدة على الشكل الشبكي الذي كان قد أصبح امرا معتمدا في تخطيط المدن ، لم تخطط هذه الشوارع على أساس علاقة هندسية كاملة مع النهر ، ولكن بانحراف نحوه ؛

متخذة اتجاهها بكل عناية بشكل يضمن ان تنعم الطرقات العامة جميعها بالنسيم الصاعد من الوادي .

وكانت الميزة الاخيرة للموقع جماله الطبيعي . فليس من السهل أن يجد الانسان في أي مكان آخر هذه المجموعة من الحسنات الطبيعية ، في جو من جمال المنظر قوامه الجبل ، بضخامته واستداراته المتنوعة ، والمنظر الشاسع، عبر السهل ووراء النهر ، والأرض الحرجية المتموجة برفق بين انطاكيه والهضبة الجميلة المطلة على العاصي جنوبي المدينة بخمسة أميال ، وهي الهضبة التي أصبحت ضاحية دفنه الشهيرة . وكان الجبل مصدر متعة متواصلة للعين . ففي الصباح يكون منحدره من ناحية المدينة مغطى بالظل ، بينما الشمس تشرق على الناحية الاخرى منه ، في حين يستقبل السهل من خلفه، في الوقت نفسه ، أول أشعة الضوء . وتأخذ ألوان الصخور والاعشاب على الجبل بالتغير مع تغير الضوء طوال النهار ؛ وفي المساء ، عند غياب الشمس ، تظل منحدرات الجبل تستقبل النور ، بينما يلف الظلام كل شيء آخر تحتها .

وكان السهل المسطح خلف العاصي ، في مقابل تلك الكتلة الجبلية الضخمة ، يمتد عدة أميال غربا وشمالا ، وينتهي في اطار دائري من التلال والجبال . والى الشمال الغربي كانت الطريق تمتد الى خليج ايسوس ، ومن بعده الى طرسوس والى بوابات كيليكيه . وكان هذا السهل الواسع يشكل محيطا أخاذا لجبل سيلبيوس .



انطاكيه - كما كانت في عهد ثيودوسيوس الكبير

وقد أدرك سلوقس نيكاتور ومستشاروه ان لهذا الموقع ميزات تجارية وعسكرية هامة ، بالاضافة الى الميزات هذه . وقد كان قصد سلوقس ان يؤمن سيطرته على الجزء الشمالي الغربي من سوريه ، ولهذا السبب قام بانشاء أربع مدن شقيقات أسبغ عليها أسماء أربعة من افراد عائلته . وقد تأسست هذه المدن على أساس زوجي ، كل زوج مكون من ميناء ومدينة داخلية . فكان هناك الزوج الشمالي ، ويتكون من انطاكيه ومينائها سلوقيه ، ويماثله الزوج الجنوبي، ويتكون من افاميه ، وهي مدينة داخلية أخرى كأنطاكيه ، ومينائها لاوديكيه .

وكانت سلوقيه ميناء مساعدا هاما لانطاكيه ، يؤمن لها المواصلات البحرية دون تعريض اهلها لمظاهر الحياة السيئة في الموانىء . وقد بنيت هذه المدينة على قلعة حصينة ، عند مصب نهر العاصي ، وكان لها ميناء جيد استعمله التجار منذ أيام اليونان المبكرة ، قبل تأسيس انطاكيه بمدة طويلة . وكان القصد في الأصل أن يكون هذا الميناء عاصمة للدولة السلوقية ، الا أن انطاكيه اصبحت عاصمة الملك ، بعد موت سلوقس نيكاتور ، وذلك لاسباب واضحة . فقد مكنها موقعها في شبكة الطرق السورية من السيطرة على حركة السير البري برمتها في تلك المنطقة . وقد سيطرت انطاكيه على الطرق التي كانت تمتد من الشمال الى الجنوب وتربط سوريه وفلسطين وآسيه الصغرى ، وأهم من ذلك انها سيطرت أيضا

على وسائل المواصلات من الشرق الى الغرب ، تلك التي كانت تمتد من الصحراء ومن وادي دجلة والفرات الى البحر الابيض المتوسط . وكان نهر العاصي صالحا للملاحة من البحر الى انطاكيه نفسها ، وبذلك اصبحت المدينة محطة نهائية لخط القوافل من الشرق . فكانت تأتي اليها البضائع من بلاد فارس ومن الهند وحتى من الصين ، فتنزل عن ظهور الجمال ، وتوضع في الزوارق ، فتحملها هذه عن طريق العاصي الى سلوقيه . ومن هناك ، كانت السفن تأخذها الى جميع أنحاء البحر الابيض المتوسط والى موانىء ساحل الأطلنطي . وقد جعلت وسائل المواصلات عينها من انطاكيه ، بالطبع ، مركزا عسكريا حيويا . وبما أن باقي المدن التي أسسها سلوقس لم تتمتع بهذه الميزات ، فقد اصبح من المحتم أن تفوق انطاكيه جميع جاراتها أهمية الى حد بعيد .

وهكذا اجتمعت كافة العوامل لتعطي انطاكيه مكانة فريدة بين مدن سوريه . فقد أوصلها موقعها السياسي والتجاري الى درجة من الازدهار المادي ميزها عن غيرها في حقب تاريخها جميعها . وكانت المنطقة كلها غنية ؛ اذ امنت لها البيارات والحقول والغابات محصولا وفيرا من الفاكهة والحنطة ، كما كانت هناك بساتين خضار تحيط بالمدينة من كل جانب . وكان الصيد مصدرا هاما من مصادر الطعام ، كما كان أيضا رياضة مفضلة . ولقد أمنت الغابات الخشب للبناء ، وأمنت الجبال القريبة الحجر للغرض نفسه . وكانت

وفرة السمك ، في البحر الابيض المتوسط ، ونهر العاصي ، وبحيرة انطاكيه ، التي تقع في السهل شمالي المدينة ، من مصادر المتعة الخاصة .

وكان اليونان المقدونيون الذين أسسوا انطاكيه وشقيقاتها المدن الأخرى قد رموا الى جعلها مراكز للحضارة الهيلينية في بلاد الشرق التي احتلها الاسكندر الكبير . وكانت قد انشئت مدن يونانية في جميع المناطق التي تغلغل فيها الاسكندر . وبما أن اليونان كانوا يعتبرون « المدينة » المركز الطبيعي للحياة السياسية والثقافية ، فقد واكب انشاء هذه المدن دخول التربية والعادات الاجتماعية اليونانية اليها . وفي أقل من جيل واحد ، كانت مدن الاسكندر وخلفائه قد خلقت عالما جديدا للحضارة اليونانية .

وكانت انطاكيه نموذجا لهذه المدن الجديدة . فقد كان من بين المقيمين الاوائل فيها جنود مقدونيون حاربوا في جيش سلوقس ؛ ولكن كان فيها ايضا بعض المستعمرين الاثينيين ، فكان احد مصادر فخر أهل انطاكيه الرئيسية أن نسبهم يرجع الى هذا العصب اليوناني الشهير العريق . ولم يكن في العالم اليوناني القديم ما يبذ النسب الاثيني ، وقد عزا أهل انطاكيه عظمة مدينتهم الى ذلك الاصل الاتيكي .

وكان هناك أيضا ، الى جانب المقيمين الهيلينيين ، العنصر

السكاني المحلي ، ممثلا في أهل البلاد الاصليين الناطقين بالسامية ، وقد كانوا رعايا الامبراطورية الفارسية قبل قدوم الاسكندر . ولم يكن هناك بد من أن يصبح السكان الاصليون عنصرا من عناصر الملك السلوقي ، ولقد احتوت الخطة التي رسمها سلوقس لانطاكيه على حي مخصص للسوريين الاصليين ، منفصل عن حي اليونانيين والمقدونيين .

ومع أن هذين العنصرين بقيا حتما منفصلين طوال تاريخ المدينة ، الا أن وجودهما أضفى على انطاكيه طابعا خاصا كمركز تجاري وثقافي يتلفت نحو الشرق والغرب . وبهذا اصبحت المدينة في وقت واحد عاصمة سوريه ومركزا للحضارة الهيلينية التي كانت على اتصال وثيق بالثقافة الشرقية . وكان التجار الشرقيون يزورون المدينة باستمرار ويبقونها على اتصال بعالم الفكر الشرقي .

ولقد كان خلفاء سلوقس الأولون جديرين بعظمة مؤسس سلالتهم . فقد ترعرعت في ظلهم المدينة ، مقرا للملك ، وزينها الملوك المتعاقبون بالتماثيل والأبنية العامة ، التي ظل بعضها قائما حتى عهد ثيودوسيوس ، وخاصة بعض المعابد القديمة ، والمكتبة ، وقاعة المجلس . وعندما توسعت المدينة ، وفد اليها مقيمون جدد من اصل يوناني — من ايتوليه وكريت ويوبويه . وزينت المدينة بمغانم الحرب وأصبحت احدى اجمل مدن العالم اليوناني ، يميزها عن غيرها كثرة فلاسفتها وادبائها العلماء .

ومع مرور الزمن ، وبحتمية ظروف العالم في تلك الايام ، فقدت السلالة السلوقية شيئا من نشاطها . وكانت رومه في طور التحول الى مركـز السيطرة فـي شرق البحر الابيض المتوسط ، بينما كان الملوك السلوقيون ، نتيجة لانهماكهم في المشاجرات والمناقشات السلالية ، يفقدون قوتهم وثروتهم باطراد . وقد أصبح من الضروري ، بعد زمن ، أن تحتل رومه سوريه من أجل تثبيت الأمن والنظام ؛ وكان ذلك سنة ٦٤ قبل الميلاد .

وهنا دخل الى تاريخ المدينة عنصر جديد نشيط . فمع ان الرومان ، في توسعهم شرقا ، كانوا يحترمون المؤسسات والعادات القائمة على قدر الامكان ، ومع أنهم كانوا يكنون للثقافة اليونانية احتراما عميقا بحيث أنهم لم يمسوها بأي سوء ، الا أن انطاكيه اصبحت عاصمة ولاية سوريه الرومانية ، ومركز الحاكم الروماني ، والجيوش الرومانية ، ورجـال الاعمال الرومان . ولذا ، فقد صمم الاباطرة الرومان ، ابتداء من اغسطس، على تغيير وجه المدينة وجعلها لائقة للقيام بدورها الجديد . فقد زرعت في الشارع العام الاعمدة المزدوجـة الشهيرة ، واقيمت المعابد للآلهة الرومانية ، واقيم كذلك تمثال للذئبة مع رومولوس وريموس ، رمـزا لتأسيس رومه . وزودت المدينة بتمثال للالاهة روما ، اشارة الى مذهب الدولة الرسمي ، ثم وسع المسرح ، وبنيت القنوات ، وأقيمت قصور العدل الرسمية .

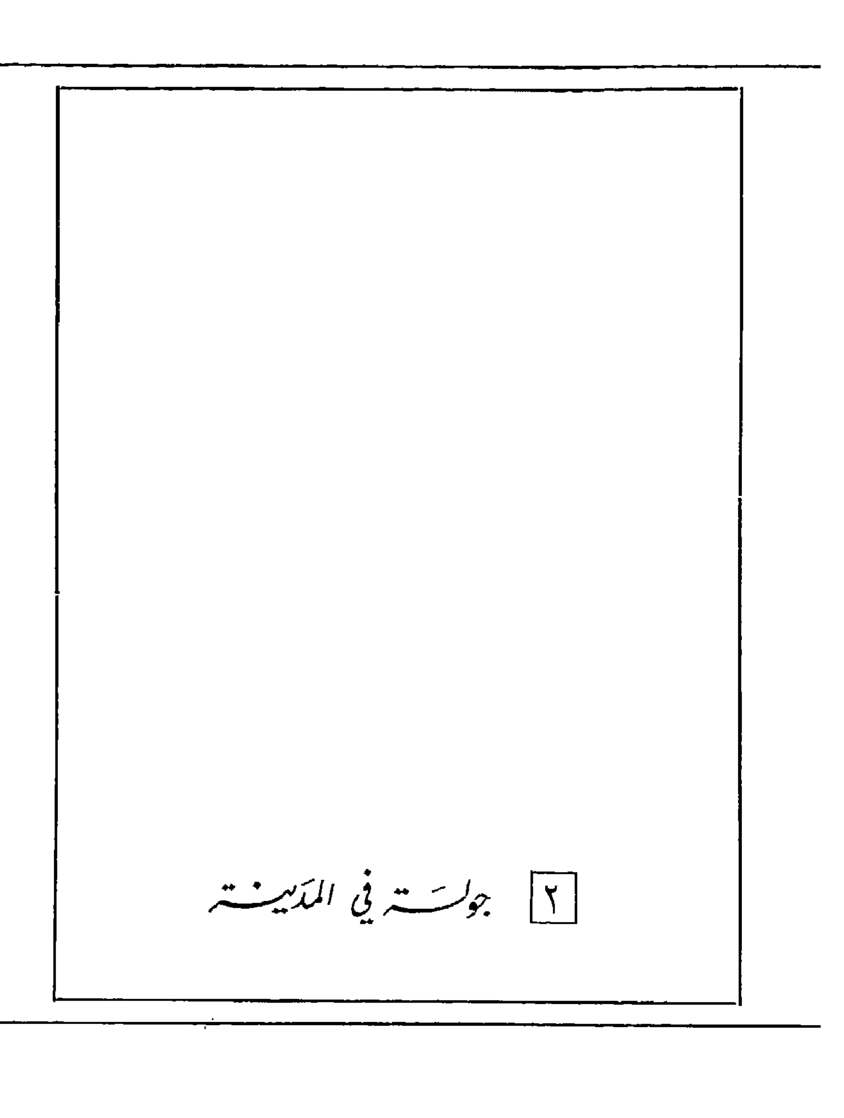
وبعد ان كانت انطاكيه قد امتازت كعاصمة هيلينستية ، دخلت الآن في طور جديد كعاصمة يونانية رومانية لسوريه ، واتخذت اللغة اللاتينية وأدبها مكانهما بجانب اللغة اليونانية وأدبها ، ولو انهما لم يصلا الى مرتبة الاخيرين . وقد أضاف الحكام الرومانيون وحاشياتهم طابعا جديدا الى ثقافة المدينة . وزار المدينة بليني الاصغر ، وهو أحد الشباب الرومانيين الكثيرين المنتمين الى عائلات بارزة ممن زاروا المدينة ، وأصبح موظفا صغيرا في انطاكيه في مطلع حياته العملية . ولقد استفادت المدينة كثيرا من الاباطرة المحبين للثقافة اليونانية ، الذين زاروها. وقد واصلت الثقافة اليونانية القديمة ازدهارها في انطاكيه ، في ظل الحماية الرومانية ، بينما استمر الخطباء والشعراء والعلماء المحليون يكتبون باللغة اليونانية . وقد كتب ليبانيوس نفسه ، وهو لم يكن صديقا لرومه ولا للحضارة الرومانية ، أن المدينة قد ازدهرت في ظل حكامها الجدد . ومع أنها عاشت مضطرة تحت حكم أجنبي ، الا أنها بقيت متصلة اتصالا مباشرا بماضيها الهيليني .

ثم جاءت المسيحية بعد الرومان بزمن غير بعيد ، لتكون آخر لبنة واهمها في تكوين حياة المدينة وثقافتها . وكانت قصة البعثة المسيحية الاولى لانطاكيه ، حيث سمي الرسل مسيحيين لاول مرة ، معروفة لدى الجميع ، وكانت بالفعل مصدر فخر فريد لجميع المسيحيين الذين عاشوا في انطاكيه فيما بعد .

وكانت المدينة مقرا مثاليا للبعثة في بلاد أهلها من غير اليهود ، اذ كانت السلطات الرومانية أقدر على حفظ النظام في انطاكيه منها في اورشليم ، وسلم المبشرون في انطاكيه من هجمات اليهود المتعصبين . وكان المذهب الكلاسيكي والمذاهب الشرقية معروفة لدى الناس ، في مجتمع انطاكيه الجامع ، فلم تكن الافكار الدينية الجديدة أمرا مستهجنا في بلد دائم الاتصال بالشرق . وربما كان العامل المحلي الرئيسي في تيسير الطريق للمسيحية في انطاكيه هو أن عددا من غير اليهود كانوا قد انجذبوا الى الكنائس اليهودية بسبب استيائهم من المذاهب الوثنية التقليدية ، وهناك وجدوا في العهد القديم ، الذي كان مدونا ومشروحا بالترجمة اليونانية ، تعاليم اخلاقية وخلقية تفوق الى حد كبير ما وجدوه في الوثنية. ولم يصبح هؤلاء الزوار يهودا ، لأن اعتناقهم اليهودية كان يعني التخلي عن وطنيتهم وتراثهم الثقافي ؛ ولكن ارتيادهم الكنائس اليهودية مهد السبيل للوعاظ المسيحيين الذين وجدوا ، حين قدموا المدينة ، الكثيرين من الناس محيطين بتلك الجوانب من تعاليمهم المبنية على العهد القديم . ولم يكن هناك شك في أن كثيرين من غير اليهود الذين كانوا ملمين بالعهد القديم باللغة اليونانية كانوا من أوائل من اعتنق المسيحية في أيام بولس وبرنابا وبطرس ، وكان هذا الاخير قد عرف كأول مطران لانطاكيه .

كانت انطاكيه ، بمثل هذه البداية ، بالاضافة الى طرق

المواصلات الممتازة بـرا وبحرا ، قاعـدة مثالية للرحـلات التبشيرية التي قام بها بولس ورفقاؤه . وكان يحق لأهـل انطاكيه أن يشعروا أنه لم تلعب أية مجموعة من الناس ، خارج اورشليم نفسها ، دورا يضاهي الدور الذي لعبوه هم في اول أيام المسيحية خارج النطاق اليهودي .



٢ جولة في المدينة

« مدينة لا كغيرها من المدن »
ليبانيوس

كان الزائر ، في بداية جولته للمدينة ، قمين بأن يسير في الطريق التي وصفها ليبانيوس في مديحه الشهير لانطاكيه؛ فقد كانت ميزة هذه البداية انها تزود الزائر بمنظر منظم للمدينة بأسرها ، تتبعها جولة في الضاحية دفنه ، تنتهي عند العيون الشهيرة . وقد احتوى مديح ليبانيوس على وصف لتأسيس انطاكيه على يد سلوقس الفاتح ، وعلى شرح لمؤسساتها وثقافتها ، ينتهي بوصف للمدينة ولدفنه . وكان هذا المؤلف يعتبر من اعظم اعمال ليبانيوس ، وسرعان ما ادرج في عداد الكتب الكلاسيكية الخالدة . وقد نشرت نسخ مصورة منه تظهر بعض مناظر الجولة في المدينة ، كما وصفها هذا الخطيب الكبير . وبعد قرن من الزمان ، امر احد الاغنياء بان تزين احدى غرف قصره الرئيسية في دفنه بأرضية من الفسيفساء ، تظهر في حاشيتها مناظر عديدة من جولة ليبانيوس بترتيبها الاصلي . وتعطي هذه الفسيفساء ، وقد

حفظت جزئيا واعيد تصفيفها سنة ١٩٣٢ ، لمحة ثمينة عن الحياة في انطاكيه ، وهي ، مضافة الى نص ليبانيوس الاكثر تفصيلا ، تعطينا صورة لآثار انطاكيه وللحياة فيها ، لا نملك مثلها عن اي مكان آخر في ذلك الوقت .

وكان الزائر ، اذا تبع هذه الطريق ، يصل اولا الى البوابة المحصنة تحصينا قويا في سور المدينة الشمالي على الطريق المؤدية الى بيرويه . وكانت الطريق ، التي بلغ عرضها ثلاثين قدما ، معبدة بقطع كبيرة من الجرانيت المصري . وكان الزائر يجد نفسه ، بعد مروره في المدخل الضخم ، بابوابه الثقيلة ، في شارع المدينة الرئيسي ، بأرضيته المعبدة بالجرانيت والمحاطة في كلتا جهتيها بالممرات المسقوفة ، التي كان عرض كل منها ثلاثين قدما ، مثل عرض الشارع المكشوف .

وكان الشارع الرئيسي يمتد مسافة ميلين على محور المدينة الطويل شمالا وجنوبا . وهذا الشارع الشهير الذي يشبه شارع الاعمدة في تدمر كان مصدر فخر عظيم للمدينة وواحدا من اسباب شهرتها المعروفة . وكان الشارع العريض يوفر حيزا كافيا لحركة السير الناشطة في المدينة . واما الأرصفة العريضة على كلتا جهتيه ، التي يحف صفان من الاعمدة بكل منها ، فكانت مكانا لطيفا للمشاة والمتفرجين . وكانت صفوف الاعمدة تتكون من طابقين ولها سقف . وكانت هناك ، على مسافات متقاربة ، سلالم تؤدي الى الاروقة في

الطابق العلوي والى السطوح ، وكانت الارصفة المسقوفة تؤمن الظل في الصيف والحماية من المطر والثلج في الشتاء . وكانت جدران البيوت والمباني العامة تحد الارصفة هذه من الداخل ، وكان موضع ابوابها بين الاعمدة ، بينما كان التجار والباعة في كثير من الاحيان ينصبون اكشاكهم على الناحية الاخرى من الرصيف بين الاعمدة تجاه الشارع . وقد واجهت السلطات البلدية صعوبة في ضبط هذه المخالفات .

وقد بني هذا الشارع في ظل الامبراطور اغسطس (٢٣ قبل الميلاد ــ ١٤ بعد الميلاد) والامبراطور طيبيريوس (١٤ ــ ٣٧) بمساعدة من الملك هيرودس في الفترة التي كان يحول الرومان اثناءها انطاكيه الهيلينستية الى مدينة رومانية . اما في الازمنة الهيلينستية ، فقد كان هذا الشارع طريقا مغطاة بالحصى تسير خارج مدينة سلوقس بمحاذاة اسوارها . ولكن هذه الطريق اصبحت شارع انطاكيه الرئيسي نتيجة لتوسع المدينة .

وكان هذا الشارع مكشوفا ، ولكن ، نظرا لاتجاهه شمالا وجنوبا ، فقد كان يستقبل الظل بعض الوقت في النهار ، ويتلقى النسيم الذي يهب عبر وادي العاصي في الصيف . وكان يعج بمختلف انواع وسائل السير ؛ فمن مسافرين على ظهور الخيل ، او في عربات تجرها البغال ، الى حمير محملة بجميع انواع الاحمال الثقيلة ، تسير فرادى او في قوافل ،

يقودها راكبوها المزودون بالعصي ، الى عربات من ذوات العجلتين تحمل مواد البناء ، الى حمالين محملين بأحمالهم الثقيلة . لقد كانت هناك جميع انواع الحركة في هذا الشارع وفي الشوارع الجانبية المتفرعة عنه . وكان بعض راكبي الحمير والجمال يجتنبون حر الشمس بان يسيروا بدوابهم على الاروقة المسقوفة ذات الاعمدة «وكأنهم عرائس» ، على حد قول القائل . وكان المزارعون ينقلون الاطعمة الى المدينة على العربات او على ظهور الحمير ، وكانت السلطات البلدية ترغمهم على نقل النفايات الى خارج المدينة في طريق عودتهم . وكان النساء يسرن بسرعة الى حاجاتهن ، واولادهن يهرولون وراءهن . وكان الاولاد يمشون الى المدرسة ، يرافقهم عبيد يحملون لهم كتبهم ولوحات كتابتهم المصنوعة من مادة شمعية ، مربوطة باربطة من الجلد . وكان الموظفون الكبار وضباط الجيش يمرون على ظهور جيادهم ، بعدتهم وازيائهم البراقة . وكان المواطنون الاثرياء يمرون على ظهور جيادهم التي يرصع عدتها الذهب . اما السيدات ، فكن يتجولن في المدينة في عربات خشبية مطلية بالألوان الزاهية . وكان اذا مر شخص ذو مكانة عالية ، ممتطيا صهوة جواده الابيض بوقار وأنفة ، تقدمه احد خدمه حاملا عصا وراكضا امامه وهو يصيح ، ليفسح لسيده العظيم طريقا بين الحشد . وكان لعدد كبير من البيوت الكبيرة في المدينة خدام من الزنوج يلبسون الشارات المنمقة بالذهب . اما حكام سوريه ، ومن هم في منصب كونت الشرق ، وقواد القيادة الشرقية ، فكانوا ،

عند ظهورهم في الشارع العام ، يصطحبون فصائل من رماة النبال ، بمثابة شرطة لهم .

وقد كانت الشوارع والميادين القائمة بين كل مبعدة واخرى في جميع انحاء المدينة ، تمثل مختلف النشاطات في مدن البحر الابيض المتوسط ، حيث ان الناس كانوا يقضون معظم اوقاتهم في فصل الصيف الحار الجاف خارج البيوت . ولم تكن انطاكيه كغيرها من المدن التي كان باعة الاصناف المختلفة من البضائع فيها يتكتلون ، بحيث يشتري الناس كل صنف من مكان معين فقط من المدينة ، اي يشترون الادوات المعدنية من ناحية معينة من المدينة ، والاصناف الجلدية من ناحية اخرى ، والاقمشة من ناحية ثالثة . ذلك ان في انطاكيه ، كما يذكر لنا ليبانيوس ، كانت جميع الاصناف تباع في كل اجزاء المدينة ، ولم يكن الناس مجبرين على السير مسافات طويلة لشراء حاجاتهم . وكان المشتري يذهب بسهولة من دكان الى آخر ، او يجد ميدانا ضاجا بالبيع والشراء في الهواء الطلق .

وكانت الميادين تستعمل ايضا مراكز اجتماعية . فكان المواطنون يتمشون مثنى وثلاث ، منهمكين في الحديث ، بينما يلعب اولادهم في شد الحبل ، واحيانا يقعون على ظهورهم ، اذا انقطع الحبل عند منتصفه . وكان المتسولون يرقصون ويعزفون على آلاتهم الموسيقية ، بينما اصحاب الالعاب البهلوانية يتجولون عارضين فنهم حيثما استطاعوا ان يجمعوا

حولهم جمهورا من المتفرجين . وكان الفلاسفة يتجولون ، تميزهم علامات مهنتهم المعروفة ، وهي اللحية الطويلة (اذ كان اكثر الرجال حليقي الذقون) ، ثم الرداء الرث ، والعصا في اليد اليمنى . وكانت الشوارع والاسواق تضج بالحركة حتى منتصف الليل ، وكانت انطاكيه تتمتع بالانارة الليلية في الشوارع العامة ؛ ولم تكن هذه الظاهرة مألوفة في تلك الايام .

وكانت هناك حول انطاكيه معسكرات ، فيها حاميات دائمة، وفيها رئاسة الاركان ، لحماية الحدود مع الامبراطورية الفارسية . وكان الجنود ينتشرون في جميع ارجاء المدينة ، بزيهم العسكري وستراتهم وتنانيرهم ، بينما تشير ألوان زيهم الى السلاح الذي ينتمون اليه ، من مدفعية ، او خيالة ، او مشاة . وكان هناك بين الجماهير البطيئة الحركة ، زائرون من ارجاء الامبراطورية النائية ، او من بلدان اجنبية ، يميزهم لباسهم الغريب بسهولة . وكان الخدم والحمالون يسيرون بسرعة ، وهم يوازنون الحزم على رؤوسهم ، وفي كثير من الاحيان ، كنت ترى الرجال يحملون الخشب وغيره من الاحمال الثقيلة ، لانه كان من الاوفر ان يستخدم رجل لمثل هذه الاعمال من ان تستأجر لها دابة .

وكان النساء والاطفال يملأون جرارهم الفخارية الطويلة من النافورات العامة عند زوايا الشوارع ، ثم يحملونها اما

على اكتافهم ، يوازنونها باحدى اليدين ، او على ظهورهم ، بحيث كان اسفل الجرة المدبب يرتكز على حزام يطوق الجبين وينسحب الى الظهر . وبسبب كثرة المياه في انطاكيه ، لم تكن هناك اي مزاحمة او مشاجرة حول النافورات ، كما كانت الحال في بعض المدن التي كان الماء فيها شحيحا ومتقطعا . اما في انطاكيه ، فقد كان العديد من بيوت المدينة الكبيرة الخاصة يضخ المياه الى ساحاته من القنوات .

ولم يكن قد طرأ على اللباس لعدة اجيال اي تغيير يذكر ، ولم يطرأ عليه اي تغيير لاجيال بعدها . فقد كان الرجال يلبسون عادة سترة من قطعة واحدة تمتد الى الركبة وتحزم حول الخصر على شكل تنورة . وكانت هذه السترة مصنوعة من الصوف في الشتاء ، ومن القطن او الكتان في الصيف . اما المسؤولون والمواطنون ذوو اليسار ، فكانوا يلبسون ، بالاضافة الى هذه ، عباءة طويلة تصل الى الارض. وكان اللباس في الشتاء يتألف من عباءة صوفية ، تتصل بغطاء للرأس. وفي حين ان العمال والعبيد كانوا حفاة الاقدام ، فقد كان اكثر الرجال المقتدرين يرتدون الصنادل مع بنطلونات صوفية ضيقة اثناء الطقس البارد . اما المسؤولون وضباط الجيش ، فكانوا يرتدون عباءات مميزة كجزء من زيهم الرسمي ، تشدها عند الكتف مشابك منمقة تشير الى رتبة كل منهم ، فمثلا ، كانت عباءات الضباط تتميز باللون الابيض . وكان الناس يرتدون حزام الزي الرسمي ، شعارا للخدمة في الجيش او في الخدمة المدنية .

وكانت النساء يرتدين اردية طويلة تصل الى الارض ، بألوان واقمشة مختلفة ، من صوف وكتان وحرير ، تبعا لتغير فصول السنة ، واختلاف المناسبات ، وحسب مركز المرأة نفسها . وكن يلبسن ايضا غطاء ملونا على رؤوسهن وهن خارج البيت . اما في الشتاء ، فكن يرتدين عباءة من الصوف، مع غطاء للرأس . وكان لباس الاطفال صورة مصغرة عن لباس آبائهم وامهاتهم ، وكانوا يحملون ألعابهم المعروفة عبر العصور، وهي اللعب المصنوعة من الخشب او الخرق ، والاطواق ، والبلابل الخشبية .

وكانت هناك شوارع جانبية تخترق الشارع العام على مسافات منتظمة ، ترتفع من جهة باتجاه الجبل ، بينما تسير من الجهة الاخرى ، عبر الارض المستوية ، نحو النهر . وكانت الاعمدة تحف اهم هذه الشوارع فقط . اما مجموعات الابنية على الشوارع ، فقد كانت احجامها موحدة بحيث يبلغ طولها حوالي مائة قدم ، وعرضها نصف مقدار طولها . وكانت منحدرات الجبل السفلى مواقع ممتازة لاقامة البيوت . وقد كتب ليبانيوس عن حسنات العيش في هذه المنطقة قائلا :

يرتفع الجبل ممتدا بجانب المدينة كالدرع المرفوع عاليا في وقفة دفاع، وليس لأبعد السكان على منحدرات الجبل السفلى ما يخافونه من جراء عيشهم في المرتفعات ، بل هم على العكس ، يتمتعون بكل مصادر

السعادة ، من ينابيع ، ونباتات ، وحدائق ، ونسمات ، وازاهير ، واغاني طيور ؛ فكان بامكانهم التمتع بالربيع قبل الآخرين .

وكانت البيوت السكنية الجميلة ممتدة على المنحدرات ، وفيها رتبت قاعات الطعام بحيث يتمكن الضيوف من التمتع بالمنظر المطل على المدينة .

وكان الزائر ، عند مروره في الشارع ، يرى امامه منظر ميدان فسيح عن بعد ، وفي وسط الميدان عمود يحمل تمثالا للامبراطور طيبيريوس . وعند هذه النقطة ، كان اتجاه الشارع ينحرف قليلا ، بحيث كانت عينا المرء ، اذا مشى في الشارع نحو قلب المدينة ، من اي اتجاه ، تستقران على تكوين معماري يبدو اجمل للعين من صف مستقيم لا ينتهي من الاعمدة .

وكان لا بد للزائر حال وصوله الى هذا الميدان ، من ان يتوقف هنيهة ، فهو الآن في قلب المدينة . وكان يرى الى يمينه ، من وقفته هذه ، شارعا تحيط به الاعمدة مؤديا الى النهر والى الجزيرة الكبيرة في نهر العاصي . وكان هناك في رأس هذا الشارع على امتداد احد جوانب الميدان ، معبد جميل للحوريات nymphaeum ، مكون من واجهة مزركشة مصنوعة من المرمر المتموج والفسيفساء الملونة ، تقابلها اعمدة بينها نافورات داخل حنايا . وكانت المياه تنساب الى حوض من المرمر له ارضية من الفسيفساء .

وكان هناك ، الى يسار الزائر ، شارع قصير تحف به الاعمدة ، يسير باتجاه الجبل ، ويؤدي الى ميدان Forum حديث أطلق عليه اسم سلف ثيودوسيوس ، الامبراطور فالنز (٣٦٤ ــ ٣٧٨) ؛ وكان هذا الميدان يضم اهم المباني العامة في المدينة .

وكانت تبرز امام الزائر ، اثناء سيره في الشارع المرتفع تدريجا ، وعند دخوله الميدان ، بأبنيته المرمرية البراقة ، معالم النشاطات المختلفة التي تكون في جملتها حياة المدينة . فقد كانت الحكومة ، والحياة الاجتماعية ، والدين ، والتجارة ، جميعها ممثلة في هذا التكوين الفخم من ابنية عامة ضخمة مجمعة حول منطقة شاسعة مكشوفة . وقد كانت اقامة الميادين عملا تميز به الرومان عن غيرهم ، واحلوه محل رقعة التجمع او السوق اليونانية agora ، مثل رقعتي التجمع القديمتين في انطاكيه ، وقد كانتا تمثلان قلب الحياة في المدينة في عهد السلوقيين . اما ميدان فالنز في انطاكيه ، فقد قصد منه ان يكون واحدا من افخم الميادين في العالم اليوناني الروماني ، ويشبه في تكوينه العام ميدان تراجان في رومه .

وكانت هناك ابنية فخمة موجودة من قبل ، استعملها مهندسو فالنز المعماريون كنواة لهذا الميدان الجديد . وفي الحقيقة ، فان التطوير الهائل لهذه المنطقة يرجع الى عهد

يوليوس قيصر وما قبله . اما أقدم الابنية في هذا الجزء من المدينة ، فكان معبد آريس ومعبد اثينا ، اللذين اقيما في الازمنة الهيلينستية . اما معبد آريس ، فكان له اصلا ساحة مسورة كبيرة ، تقام فيها الطقوس الدينية المتعلقة بالجيش . وعلى مقربة من هذين المعبدين ، كان هناك قصر للعدل يدعى القيصرية ، بناه يوليوس قيصر على غرار بناية مشابهة كان قد اهداها الى مدينة الاسكندرية . اما طابعه المميز فكان ساحة مكشوفة فيها محراب معقود يقف امامه تمثالان ، احدهما تمثال حظ رومه والآخر تمثال القيصر نفسه . وكان الامبراطور تراجان (٩٨ ــ ١١٧) قد اضاف اليها عقدا ضخما . وقد صنع الامبراطور كومودوس (١٨٠ ــ ١٩٢) الكثير لتجميل المنطقة . فقد بنى هنا ملعبين للتمرين لاستعمالهما في الالعاب الاولمبية المحلية ، اسماهما الخيستوس والبلثريون، واقام معبدا لزفس الاولمبي، اله الالعاب الاولمبية. وكان هذا الامبراطور قد اصلح معبد اثينا القديم ايضا . وبقرب بنايات كومودوس ، كنت ترى برج الرياح ، الذي شيده الامبراطور فسباسيان (٦٩ ــ ٧٩) . وكان هذا البرج يضم الهورولوجيون ، وهي ساعة عامة .

وعندما قرر فالنز تحويل هذه المنطقة الى ميدان ، تم الحصول على الرقعة المكشوفة عن طريق اتلاف جزء من القيصرية وبناء العقود فوق الجدول بارمينيوس ، وهو الجدول الذي كان يجري من الجبل الى النهر ، مخترقا هذه

المنطقة . وكانت المنطقة المكشوفة المعبدة بالمرمر محاطة مــن جهاتها الاربع بالشوارع المسقوفة والمحفوفة بالاعمدة . وكانت هذه الشوارع منمقــة بالسقوف المزينــة ، والفسيفساء ، والرسوم الملونة . وكانت الاعمدة مصنوعة من المرمر المجلوب من سالونه ، اما التماثيل فكانت موضوعة على مسافات حول الاروقة المسقوفة ذات الاعمدة . وكان فالنز قد بنى قصر عدل جديد مقابل حمام كومودوس ، الذي كان قد حول الى مقر لحاكم سوريه . وفي جزء من مكان معبد آريس ، بنيت سوق للاغذية macellum . وكان في الميدان ثلاثة تماثيل للامبراطور فالنتينيان الاول (٣٦٤ ـ ٣٧٥) ، احدها على عمود في منتصف الساحة المفتوحة ، والاثنان الاخران في منطقتين مختلفتين من القيصرية . وعلى مقربة منها بنى فالنز مسرحا رومانيا مزدوجا kynegion للاستعراضات والمقاتلات بين الحيوانات الشرسة والمصارعين . وكان عدد الابنية الكبيرة وتنوعها في هذا الجزء من المدينة يعني انه كان بامكانك ان ترى في الميدان ، في جميع ساعات النهار ، مجموعات متنوعة من الناس ، يقومون بشتى انواع الاعمال .

وبعد ان يرى الزائر الميدان والمنطقة المجاورة له ، كان لا بد له ان يتجه نحو الجزيرة عبر الشارع المحاط بالاعمدة الذي يتقاطع مع هذا الميدان . وعبر هذا الشارع ، كانت المسافة بين الشارع الرئيسي والنهر تبلغ حوالي ثلث الميل . وعنــد وصول الزائر الى نهر العاصي ، كان عليه ان يمر فوق جسر

حجري ليجد نفسه في الجزيرة ، وهي احدى احياء المدينة القديمة ، يحيط بها سورها الخاص ، وتربطها خمسة جسور بالجزء اليابس من المدينة وبالسهل الممتد على الجهة الاخرى من العاصي .

وكما هي الحال في الجزء الرئيسي من المدينة ، فقد نظمت الشوارع على الجزيرة على شكل شبكي ، بحيث يتصالب شارعان رئيسيان في منتصف الجزيرة . وكان الزائر يأتي الى ميدان تمتد منه شعب الشارعين الاربع الى الجهات الاصلية الاربع ، ويعلو بداية كل شارع منها عقد ضخم على جوانب الميدان .

وكانت هناك في الجزيرة مجموعة من الابنية ذات اهمية خاصة ؛ فكان هناك كنيسة المدينة الرئيسية ، والقصر الامبراطوري ، وحلبة السباق .. اما الكنيسة ، فكانت هي «البيت الذهبي» ثماني الشكل المشهور ، الذي بناه قسطنطين الكبير على شرف المدينة ، حيث سمي الحواريون مسيحيين لاول مرة . وكان هذا البناء الثماني الشكل يجثم في ساحة فسيحة محاطة بالاروقة المسقوفة المعمدة ، وكان ، بقبته المذهبة ، يشمخ فوق باقي ابنية الجزيرة بحيث يمكن رؤيته من جميع اجزاء المدينة . اما الكنيسة نفسها ، فقد بنيت من انواع فاخرة من المرمر ، وقد زينت من الداخل بالفسيفساء ، والتماثيل ، والمصابيح المصنوعة من الفضة والبرونز . وكانت

كؤوس القربان على المذبح مصنوعة من الذهب ، وقد حلت محل الكؤوس الاصلية التي كان قسطنطين وابنه قسطنطينوس قد قدماها للكنيسة ، والتي اخذت من الكنيسة فيما بعد ، عندما اغلقها الامبراطور الوثني يوليان . وكانت هذه الكنيسة المقر الكاتدرائي لاسقف انطاكيه ، وعندما كانت المجامع الكنسية تدعى للانعقاد في انطاكيه ، كانت تختار هذا المكان مقرا لاجتماعاتها ، وكانت تجتمع داخل الكنيسة في الشتاء ، وخارجها تحت الاروقة المنعشة اثناء الصيف . وقد بنيت الكنيسة في مكان الحمام العام القديم الذي كان قد تداعى ، ومن ثم ازيل ، لاقامة الكاتدرائية الجديدة . وقد اشرف على البناء بلوطارخس ، اول حاكم مسيحي لسوريه . ولم يكن قد تم انشاء البناية عند وفاة قسطنطين سنة ٣٣٧ ، فأتم بناءها ابنه وخليفته قسطنطينوس . وقد استعمل هذا الشكل الثماني غير المألوف ، فيما بعد ، في بناء كنيسة القديس سمعان العامودي ، في منطقة التلال بين انطاكيه وبيرويه . وقد حفظ ذكرى البناء نقش بالشعر اليوناني :

قسطنطين شيد هذا البنيان الجميل من اجل المسيح ،
وهو في جميع وجوهه يشبه قباب السماء البراقة .
وقد اطاع ابنه قسطنطينوس اوامر الحاكم ؛
اما مراقب الانشاء فكان الكونت جورجونيوس .

اما الساحة المسورة حول الكنيسة فكانت تحتوي على

منازل للكهنة ، وخان للمسافرين xenon ، ومدارس ، ومطابخ لاطعام فقراء المدينة .

وكان يجثم ، على مقربة من الكنيسة ، وعلى حافة الجزيرة الخارجية ، القصر العظيم الذي بناه ديوكليتيان (قبل ٢٩٨) لاستعمال الاباطرة عند زيارتهم للمدينة . وكان الاقتراب الى المدخل يتم عن طريق شارع قصير تحف به الاعمدة من على جانبيه ، وهو يشكل جزءا من الشكل المنتظم لشوارع الجزيرة . وقد اعيد استعمال الشكل المستطيل الذي تميز به هذا القصر في تشييد القصر الذي بناه ديوكليتيان لنفسه في سبالاتو على الشاطىء الادرياتيكي . وكانت هناك قصور أخرى مبنية على النمط نفسه في تسالونيكي والقسطنطينية. وقد استند في بناء القصر بهذا الشكل على النمط المتبع في المعسكرات المحصنة التي كان الجيش الروماني يقيمها بانتظام، وقوامها اربعة اجزاء يقسمها شارعان يتقاطعان على زاوية قائمة ، وقد مليء هذا البناء الضخم بمجموعة ضخمة من الوحدات السكنية ، والحمامات ، وبكنيسة واحدة ، ووحدات للخدم والجنود، وبحلبة لركوب الخيل بيضاوية الشكل، محاطة بنباتات دائمة الخضرة ، كان الامبراطور يقوم بالتدرب فيها . وقد كان القصر يحتل ربع الجزيرة تقريبا . وقد كتب ليبانيوس قائلا ان هذا القصر كان « مقسما الى عدد هائل من الغرف ، والاروقة ، والقاعات ، بحيث كان يتيه فيه حتى من ألفه جيدا ، عند انتقاله من باب الى آخر » . وكان السور

الخارجي لهذا الصرح يمتد بمحاذاة النهر ، ولقد شيد فوق اعلى هذا السور رواق مسقوف ومحمي ، كان يتجول فيه الامبراطور ، ومنه يستطيع استكشاف النهر ، ومن خلفه السهل ، حتى الجبال البعيدة .

وبجانب القصر ، كان هناك ميدان السباق بحلبته التي يزيد طولها على ١٦٦٠٠ قدم ، وكان من اكبر الميادين من نوعه في العالم الروماني . وقد بني هذا الميدان في زمن الاحتلال الروماني لسوريه . وكان وجود الكنيسة الرئيسية وميدان السباق بجانب القصر رمزا للاوجه المختلفة لوظائف الامبراطور . وكانت هذه تتمثل في حضوره الرسمي للاحتفالات الكبيرة في الكنيسة ، وترؤسه لحفلات سباق العربات في ميدان السباق ، التي كانت الدولة تحييها متعة للشعب ، وكان مثل هذا الجمع بين القصر والكنيسة الرئيسية وميدان السباق من مظاهر العاصمة ، القسطنطينية ، ايضا .

في ما تبقى من الجزيرة ، كان الزائر يستطيع ان يشاهد بيوت السكن الفخمة ، ويزور الحمامات العامة الضخمة ، باحواضها وحجراتها المتعاقبة المهيأة للمراحل المختلفة من الاستحمام والتسلية . وكانت القاعات مزينة بحلى زخرفية معمارية ، وبالتماثيل ، وبانواع من المرمر المتموج ، والارضيات المصنوعة من الفسيفساء ، وكانت باردة ولطيفة في الصيف . وكانت تحيط بالحمامات حدائق وساحات فسيحة للرياضة والتمرين .

ولكن الزائر لا يكون قد رأى عند هذا الحد الا نصف المدينة فقط . فاذا عاد عبر جسر آخر الى اليابسة ، وجد نفسه على ضفة النهر ، في أقدم جزء من انطاكيه . ففي تلك البقعة ، على حافة النهر ، وخلف السور المحاذي لنهر العاصي ، كان سلوقس الفاتح قد اقام مستعمرته الاصلية . وكانت السوق الاصلية تقع ازاء النهر ، حيث كانت السفن ومركبات النقل تفرغ حمولتها على الارصفة الحجرية . وهنا ايضا كانت المعابد وأبنية الحكومة الاصلية في زمن السلوقيين . ولكن لم يكن هناك قصر سلوقي اذ كان الملوك الهيلينستيون يكتفون بالسكن في نماذج فخمة مكبرة عن البيوت الخاصة المعروفة في ذلك الوقت . وفي هذا الحي كذلك ، كانت تقوم الكنيسة القديمة ، التي بنيت ، حسب الرأي السائد ، في زمن الرسل . وقد وعظ القديس بولس في هذا الجزء من المدينة ، في الشارع الذي كان يدعى شارع سنجون ، قرب مقبرة العظماء Pantheon .

وكان في هذا الحي القديم من المدينة معابد وتماثيل ترجع الى أقدم عصور تاريخ انطاكيه ، وهي تذكر الزائر بالقصص الشائعة عن تأسيس انطاكيه . فكان هناك معبد زفس ، الذي انشأه سلوقس الفاتح عرفانا للاله الحارس للبيت السلوقي ، لاجل تفضله وموافقته على انشاء المدينة . وكان هذا المعبد قائما في سوق انطاكيه الاصلية ، وكانت هذه تغطي رقعة تزيد على مساحة اربع مجموعات متجاورة من منازل المدن .

وكانت هناك عدة تماثيل شهيرة . احدها تمثال اثينا البرونزي ، وهو التمثال الذي اقامه سلوقس ليسد الحاجات الدينية للاثينيين الذين كان قد احضرهم للاستيطان في مدينته الجديدة . ولكن اشهرها كان تمثال حظ انطاكيه السعيد Tyche ، وقد نحته يوتيخيدس السيكيوني ، تلميذ النحات الشهير ليسيبوس ، بأمر من سلوقس . وقد غدا هذا التمثال سابقة لتجسيدات عديدة تمثل الحظ السعيد ، اقيمت في جميع المدن الناطقة باليونانية . ومن ثم تحولت كل هذه التماثيل ، التي كانت ترمز اصلا لازدهار المدن وحظها السعيد ، الى تجسيدات للمدن التي اقيمت فيها .

وكان تمثال انطاكيه ، وهو الاول من هذا النوع ، مصنوعا من البرونز . وكان اختيار البرونز امرا موفقا بالنسبة لتمثال مقام في مكان مكشوف . وقد اظهر التمثال الالاهة ، يجللها رداء طويل ، تجلس على صخرة ، واضعة احدى ركبتيها على الاخرى ، وهي تستخدم يدها اليسرى لسند نفسها على الصخرة ، بينما تمسك بيدها اليمنى حزمة من القمح ، رمزا لازدهار المدينة المادي . اما الصخرة ، فكانت تمثل جبل سيلبيوس . وكان يقوم تحت قدمي الالاهة تمثال لشاب عار ، تمتد ذراعاه وكأنه يسبح ، وهو يمثل نهر العاصي . وكانت الالاهة تلبس على راسها تاجا يعلوه شكل برجي ، ويمثل هذا التاج سور المدينة الذي تتميز حافته العليا بفتحات منتظمة متتالية . وكان التمثال مرفوعا على قاعدة ،

ومحميا تحت سقف مزخرف قائم على اعمدة اربعة ، واحد في كل من الزوايا الاربع . وقد صنعت نسخ مصغرة من تمثال الالاهة كانت تباع للزوار كتذكار .

وكان الزائر يمر ، في طريق عودته الى الشارع الرئيسي ، عبر حي ابيفانيه ، وهو الحي الذي بناه الملك انطيوخوس الرابع ، الملقب بأبيفانس (١٧٤ ـ ١٦٤ قبل الميلاد) ، الذي كان من اواخر الحكام السلوقيين العظام . وقد راح الناس يستوطنون هذا الجزء من المدينة ، الذي يقع بين الشارع الرئيسي والجبل ، نتيجة لفيض السكان ، حين بدأت المدينة تتجاوز حدودها الاصلية . وقد اعتقد البعض ان انطيوخوس ابيفانس كان معتوها ، بينما اعتبره غيرهم عبقريا . ومهما كان من امره ، فانه غدا ذائع الصيت لحبه للبناء . وبالفعل ، فقد كانت هذه احدى الوسائل لتخليد اسماء الحكام القدماء . وقد بنى انطيوخوس عدة مبان في ارجاء المملكة جميعها ، وحتى في خارجها ، وجعل هذا الحي الجديد من انطاكيه واحدا من اجمل اجزائها .

وكانت هناك سوق جديدة ، لتخفف عن السوق القديمة القائمة قرب النهر زحام البيع والشراء . وفي السوق نفسها ، كانت تقوم احدى اشهر ابنية انطيوخوس وهي قاعة المجلس bouleuterion التي كانت تشبه مبنى قاعة المجلس في ميليتوس . وكانت هذه القاعة لا تزال تستعمل لاجتماعات

مجلس الشيوخ في انطاكيه ايام ثيودوسيوس . وكان هناك ايضا معبد جوبيتر كابيتولينس ، اهم الآلهة الرومان ، وقد بني معبده مجاملة للرومان الذين كان انطيوخوس شديد الاعجاب بهم .

ومن الآثار الاخرى التي تركها انطيوخوس ابيفانس قناة جديدة للمياه ، تخترق بنفق جانب الجبل ، وتجلب فيها المياه من دفنه . وقد بنى هذه القناة المهندس الروماني كوسوتيوس . ومنها الخارونيون ، وهو رأس ضخم محفور في الصخر في جانب الجبل المطل على المدينة ، اقيم اثناء تعرض المدينة لموجة من الطاعون ، كطلسم مبعد للشر . وقد ظل هذا الرأس يطل على المدينة طوال مدة تاريخها . وكان الزائر يسمع عنه اساطير مختلفة لا يعقل ان تكون جميعها صحيحة .

ومن بين المعالم التي كان على كل زائر ان يشاهدها في حي انطيوخوس الجديد ، مسرح اقيم في نقطة على سفح الجبل تشكل منحنى طبيعيا لاقامة نصف دائرة من القاعد المرمرية . وكانت هناك عدة تماثيل حول المداخل وفي موازاة الجزء الامامي من المنصة . وكان اهمها يقف امام خلفية المنصة المصنوعة من المرمر ، وهو تمثال الاهة الشعر كاليوبي التي كانت تعتبر ، هي وزفس وابولو ، آلهة راعية لانطاكيه . وكان معبدها ، القائم في الجزء الاوسط من المدينة ، واحدا من

اهم معابد انطاكيه . اما في المسرح ، فكانت هذه الالاهة تترأس العروض الادبية التي كانت تقام فيه بانتظام امام الجمهور . وقد اقام هذا التمثال الامبراطور تراجان عندما وسع المسرح ليلائم سكان انطاكيه الآخذين في الازدياد . وكان التمثال المصنوع من البرونز المذهب ، على نمط تمثال حظ انطاكيه ، يصور سلوقس الفاتح وابنه انطيوخوس وهما يتوجان كاليوبي . وكان وجود هذين الملكين يمثل الاحترام الكبير الذي كانت تكنه انطاكيه لكاليوبي منذ أقدم عصور المدينة .

ومن المعالم الاخرى في هذا الجزء من المدينة بوابة الملائكة ، وهي بوابة المدينة الجنوبية على الطريق المؤدية الى دفنه. هنا ، على الطريق خارج البوابة ، اقام الامبراطور تيطس ، بعد تدميره لاورشليم سنة ٧٠ ، تماثيل برونزية افترض انها تمثل الملائكة الذين اخذوا من المعبد المتهدم . وبالطبع ، لم تكن تماثيل الملائكة الاصلية موجودة في ذلك الوقت ، ولكن هذه التماثيل كانت اما تقليدا لها ، او اشكالا مجنحة يمكن ان تسمى بالملائكة . وفوق البوابة كان تيطس قد اقام تمثالا للقمر ، الذي كان ، شأنه شأن الشمس ، يمثل الابدية في الرموز الامبراطورية في ذلك الزمان .

وكان الزائر يشاهد عند البوابة جميع الانواع المألوفة من البشر الذين كانوا يتجمعون حول مدخل اي من المدن الكبيرة . فكانت هناك مفرزة من الجنود لحماية البوابة . وكان هناك

المتسولون ، والمتسكعون ، وباعة القطع التذكارية . وكانت قد قامت هناك سوق صغيرة عادية تضم باعة السمك ، واللحم ، والفاكهة ، والخبز ، وغيرها من انواع المأكولات ، بما فيها المرطبات . وكان كل بائع يقف خلف منصته المتحركة ، التي كان يستطيع حملها معلقة بحزام يربط خلف عنقه ، ويدلل على بضاعته . وكان الاطفال يلعبون بالتراب ، والكلاب تتجول سعيا وراء الكسر والفتات .

وفي بداية الطريق الى دفنه ، الواقعة على بعد خمسة اميال الى الجنوب من المدينة ، كان الزائر يمر على يساره بأقدم مقبرة مسيحية في انطاكيه ، وهي بقعة كان اهل انطاكيه يكرمونها كثيرا ، اذ كانت تحفظ فيها قبور بعض اشهر الشخصيات في تاريخ الطائفة المسيحية . وكان يرقد في احد هذه القبور القديس اغناطيوس ، اسقف انطاكيه الشهيد، الذي اعتقل في زمن الامبراطور تراجان وارسل الى رومه ، حيث تم اعدامه بالقائه حيا الى الحيوانات الضارية في حلبة المدرج الروماني هناك. وقد جمع المسيحيون في رومه عظامه، واعيدت فيما بعد الى انطاكيه لتدفن في المقبرة . هناك ايضا كان قبر القديس بابيلاس ، الاسقف الذي استشهد اثناء فترة الاضطهاد في زمن الامبراطور ديسيوس (٢٤٩ – ٢٥١) ، وقد نقلت رفاته في زمن جالوس قيصر (٣٥١ – ٣٥٤) الى دفنه ، في محاولة لاسكات موحى ابولو الموجود هناك . وقد بني له مزار لتخليد استشهاده ، وبالفعل ، وضع وجود بقايا

القديس هناك حدا لعمل الوحي ، ولذلك اعاد الامبراطور الوثني يوليان (٣٦١ — ٣٦٣) رفاته الى المقبرة . وبعد ارتقاء ثيودوسيوس العرش بمدة قصيرة ، اقام الاسقف ميليتيوس كنيسة مصلبة خلف نهر العاصي على شرف القديس بابيلاس، ومن ثم نقلت رفات القديس لترقد هناك نهائيا . وكانت هناك قبور اخرى كثيرة في تلك المقبرة لعدد من الشهداء المحليين والرجال والنساء الطاهرين ، وكان الزائر المسيحي يجد هناك بواعث كثيرة تدعو الى الصلاة والتعبد .

وكان السير الى دفنه يدخل سرورا خاصا في قلوب اهل انطاكيه . فحالما يعبر الانسان البوابة ، كان يجد نفسه وسط مفاتن الطبيعة . وكانت الطريق تمتد اولا بحذاء ضفة النهر اليسرى ، وهناك ، على يسار الطريق ، كانت توجد سلسلة من بساتين الفواكه والحدائق المليئة بالزهور والورود . هنا وهناك ، كانت تقوم بيوت ريفية تحيط بها الاشجار والزهور ويمتلكها المواطنون الاثرياء . وكانت الطريق تبعد عن النهر تدريجا وتبدأ بالصعود البطيء ، لان دفنه كانت اكثر ارتفاعا من انطاكيه . وهنا ، وعلى جانبي الطريق ، كان المرء يرى الكروم والبيوت الجميلة . وفي كل مكان ، كانت هناك حدائق مليئة بالزهور التي تستعمل في صنع العطر الذي اشتهرت به انطاكيه . وفي فترات متقطعة ، كانت الطريق تخترق احد الجداول الصغيرة المنحدرة من جانب الجبل نحو نهر العاصي . وكانت هناك بجانب الطريق ينابيع يستطيع

المسافر ان يتوقف عندها لتناول بعض الماء ذي النكهة المميزة اللطيفة المستمدة من الصخر الكلسي ، اذ ان الماء يختزن فيه داخل برك طبيعية تحت سطح الارض .

وعلى طول الطريق ، كانت هناك خانات تغري المسافر على التوقف والاستراحة . وكان بعض هذه الخانات مكونا من طابق واحد ، له سقيفة على طول واجهته الامامية ، وكان بعضها الآخر مكونا من طابقين ، له شرفة تبرز من واجهة الطابق الثاني . وفي ساحات الخانات ، كانت هناك معرشات من الكرمة او من شجيرات الزهور المسحوبة فوق العوارض الخشبية المتقاطعة ، تستعمل كقاعات طعام خارجية . وكان الزائر يختار بين الجلوس الى احدى الموائد ، وبين الاتكاء على حصيرة مصنوعة من القش وممدودة على الارض . وكانت المرطبات بسيطة ــ اما نبيذ محلي مخلوط بالماء البارد ، او عصير ليمون او برتقال ممزوج بالماء الذي كان يبرد في قبو تحت الارض او يسحب مباشرة من عين باردة . اما الذين يرغبون في تناول الطعام ، فكانت تقدم لهم الفطائر والفاكهة . وكانت الرقعة المظللة باردة باستمرار ، وكان بامكان الزائر ان يراقب رؤوس الاشجار وهي تتمايل مع الريح الذي يهب من قلب وادي نهر العاصي .

وعند الاقتراب من دفنه ، كانت البيوت تزداد عددا ، وكان الزائر ، بعد فترة قصيرة ، يجد نفسه في تلك الضاحية

المشهورة بوسائل اللهو والتسلية . وكانت دفنه ، في بعض المجالات ، اشهر من انطاكيه ، حتى ان المدينة كانت تعرف احيانا بـ « انطاكيه القريبة من دفنه » . وكان للمنطقة تاريخ اسطوري شهير ؛ فقد كان يظن انها تأسست على يد هرقل (ومن بين الاسماء القديمة للمنطقة «هيراكليس») ، وكانت انطاكيه تفتخر بالاسطورة المحلية ، ومؤداها انه تم في دفنه بالذات تحكيم باريس ، عندما كان عليه ان يقرر ايا من الالاهات الثلاث : حيرا ، ام اثينا ، ام افروديت ، كانت اجملهن .

اما الجزء الاوسط من الضاحية ، فكان يشبه اية مدينة صغيرة اخرى . فكانت هناك سوق ، فيها حمامات عامة ، ومعابد ، وشوارع منتظمة الطراز تملؤها البيوت الواسعة . وفي طرف الضاحية الجنوبي ، كان الزائر يشاهد اعظم مناظر تلك البقعة الجميلة ، الا وهي العيون دائمة الانسياب ، وبقايا معبد ابولو الذي كان يقع تحت العيون مباشرة ، ثم المسرح ، ومدرج الالعاب الاولمبية .

وكان معبد ابولو ، الذي شيده سلوقس الفاتح ، قد احرق في عهد الامبراطور يوليان ، ولم يبق منه في ذلك الوقت الا اعمدته وبعض اجزاء جدرانه . وكانت دفنه قد قدمت الى ابولو كما قدمت انطاكيه الى زفس . وحسب الروايات التقليدية ، لحق ابولو بالعذراء دفنه في هذه المنطقة ، ولكنها تحولت الى شجرة غار لتنقذ نفسها من هذا الاله . من هنا ،

اصبحت شجرة الغار تعرف بعد ذلك باسم «دفنه» ، وهو اسم تلك العذراء . وكان الزوار يؤخذون الى الشجرة نفسها التي تقمصتها العذراء . وتمضي الرواية فتقول ان الاله ابولو شعر بجزع وخيبة امل لتحول العذراء الى شجرة ، فأطلق جميع السهام من قوسه . وفي يوم من الايام ، بعد ان أسس سلوقس انطاكيه ، كان الملك يصطاد في تلك البقعة ، فضرب حصانه الارض بحافره ، فكشف عن رأس سهم ذهبي يحمل اسم الاله محفورا عليه ، مما اثبت انه احد سهام ابولو . وبهذه الطريقة تلقى الملك علامة واضحة بان تلك البقعة كانت مقدسة عند ذلك الاله . فعندما امر سلوقس بانشاء المعبد تحت عيون الماء ، قام ايضا بغرس غابة صغيرة من شجر السرو اصبحت شهيرة في جميع انحاء العالم القديم .

وكانت العيون تدعى كاستاليا وبالاس وسرمنا، وكان موحى ابولو يقع في عين كاستاليا . وقد عمل الحكام المتعاقبون على تجميل هذه العيون التي كانت تنبع من صخرة في احد جوانب هضبة دفنه . وقد اعطت المياه الدائمة الانسياب من خزاناتها الطبيعية تحت الارض تلك البقعة من دفنه نضارة وبرودة لم تكن اية منطقة اخرى تتمتع بهما . وكانت المياه تجمع في احواض كبيرة مصنوعة من الحجر ، ثم توزع عن طريق القنوات الى دفنه ، وتنقل عبر سفح الجبل الى انطاكيه .

وقد اقام الامبراطور هارديان (١١٧ ـ ١٣٨) في سرمنا ،

احدى اكبر العيون ، اعظم المنشآت في منطقة العيون اتقانا ، الا وهو خزان منمق ، نصف دائري من احدى جهاته ، يحتوي على صفوف من المقاعد ، يعلوها منتزه تحيط به الاعمدة ، حيث يمكن للناس ان يجلسوا او يتجولوا ، متمتعين بخرير الماء وبرودته . وفي النقطة التي كانت تدخل منها المياه الى حوض الخزان ، اقام هارديان معبدا على شرف الحوريات اللاتي كن يعشن في العيون. ووضع الامبراطور في ذلك المعبد تمثالا له على صورة زفس وهو جالس وممسك بين يديه بالكرة السماوية .

وكان الامبراطور تيطس قد بنى المسرح بالاموال التي اكتسبها من بيع الغنائم التي استولى عليها في مدينة اورشليم . وقد احتوى المسرح على تمثال لوالد تيطس ، الامبراطور فسباسيان ، وعلى تماثيل عديدة اخرى للزينة ، كانت تقف على طول الجزء الامامي من منصة المسرح .

اما أشهر الآثار اطلاقا ، من بعض النواحي ، في دفنه ، فكان مدرج الالعاب الاولمبية . فقد كان هناك برجان متماثلان بقرب المدخل ، ومعبد لزفس الاولمبي داخل ساحة الالعاب ، ومزار نيميسس ، الاهة الانتقام ، في الطرف المنحني ، حيث كان يجلس الحكام وغيرهم من المسؤولين عن الالعاب .

كانت دفنه مليئة بكل ما يلفت الاهتمام . فكان هناك تحت

الارض مزار هيكاته الذي تؤدي اليه ٣٦٥ درجة . وكانت هناك خانات عديدة واروقة مكشوفة تحفها الاعمدة يجد فيها الانسان المرطبات من جميع الانواع . وكان الزائر المسيحي يتوقف عند مشاغل مزار القديس الشهيد بابيلاس، حيث كانت تصنع القطع الدينية التذكارية لبيعها للمسافرين. وكان المسافر ايضا يعجب بالقصر الامبراطوري ، الذي بناه الامبراطور ديوكليتيان ، وهو اصغر من قصر انطاكيه . ومن فوق جدران البيوت في الشوارع ، كان يمكن للمرء ان يرى رؤوس الاشجار التي تتحلى بها الحدائق وساحات المنازل . ومن أعلى هذه المنازل ، واثناء ساعات النهار ، كان المنظر عبر وادي العاصي وحتى الجبال الواقعة على الجانب الآخر من النهر يزداد بهاء دائما حين تتمايل الاشجار مع هبات الريح . فلا عجب اذن ان أقامت عائلات انطاكيه الثرية اكثر بيوتها الصيفية على هذه البقعة .

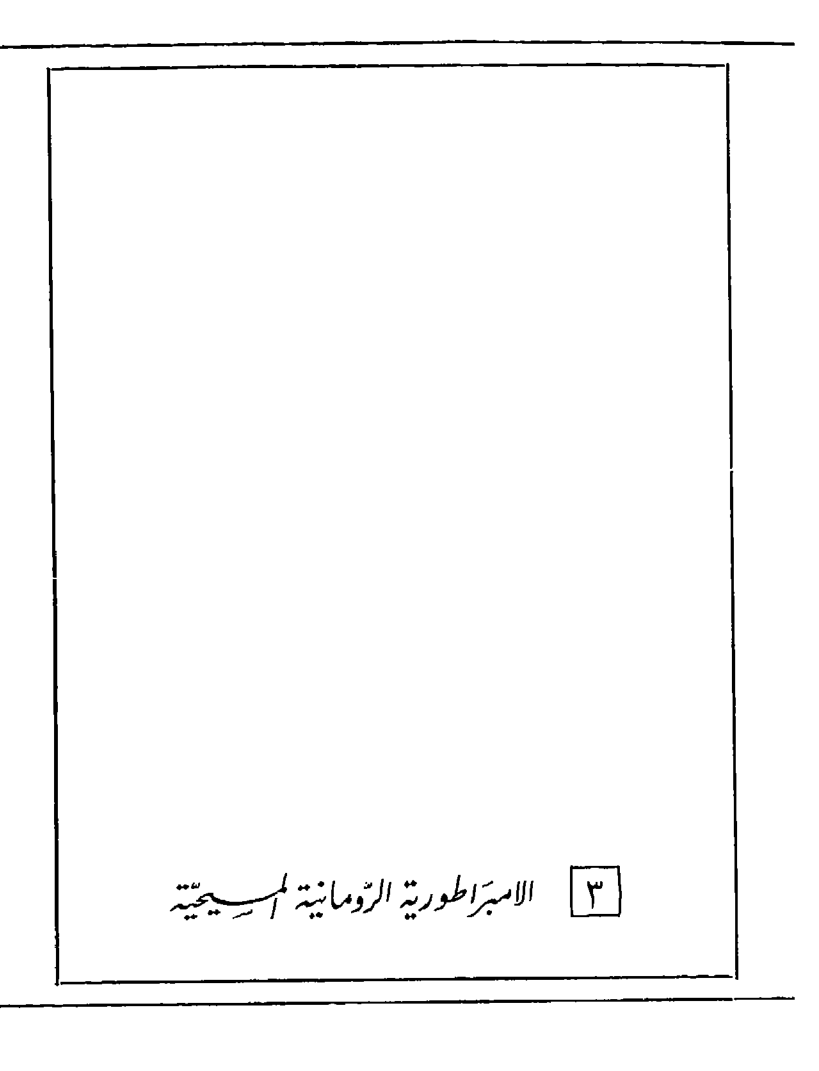
كانت دفنه ، اكثر من غيرها ، تجسيدا لتراث العالم الكلاسيكي الخصب . وقد كان جمالها الطبيعي ، الذي كان الناس يحافظون عليه بدقة ويزيدون من سحره بعناية ، جديرا حقا بتصور حلول الآلهة والالاهات فيه . وكان لا بد لمكان مثل دفنه تعشقه الآلهة ان يملك طاقات سامية لمنفعة الجنس البشري الذي بنيت ثقافته حول القصص المتداولة عن الآلهة والالاهات . واذا كانت هناك في دفنه بيوت صممت صراحة من اجل المسرات التي كان يتمتع بها

العالم الوثني ، فانه من الصحيح ايضا ان جو مثل هذه البقعة، من جميع جوانبه ، كان يدخل وافر الحبور والانتعاش الى قلوب الكثيرين ممن أسعفهم الحظ بزيارتها . فقد كان الضيف الوقور يتمتع بالراحة والبهجة والشفاء في هذه البقعـــة المنعشة الهادئة . وكان لا يشاهد دفنه احد ممن ترعرع في كنف التقاليد الكلاسيكية دون ملاحظة جمالها ، من حيث علاقته بالادب الكلاسيكي الذي كان قد خلقه ونشره رجال كتبوا عن آلهة كان يظن أنهم يقطنون مثل هذه البقعة .

وبالطبع ، ففي زمن الامبراطور المسيحي ثيودوسيوس ، لم يكن الاعتقاد الحرفي بالآلهة القديمة عاما ومقبولا ، الا ان الثقافة النابعة منه كانت لا تزال قوة حيـة . وقـد احس ليبانيوس واصدقاؤه ، وهم من شعروا بقوة هذه الثقافة ، ان دفنه تتمتع بقوة خاصة . وهكذا ، عبر ليبانيوس ، في نهاية وصفه لدفنه ، عما يمكن ان يشعر به كل مواطني العالم الكلاسيكي في تلك البقعة ، اذ قال :

عندما يرى المرء هذا ، لا يمكن له الا ان يصيح ويقفز من الفرح ، ويثب ويصفق بيديه ، ويبارك نفسه لرؤيته ذلك المنظر ، وان يحلق على اجنحة الفرح ، كما يقال . فشيء يسحر هنا ، وشيء يذهل هناك ، شيء يجذب الانسان نحوه ، وآخر يشده عنه ؛ وينصب على عين المشاهد ضياء أخاذ : معبـد ابولو ، ومعبد زفس ،

والمدرج الاولمبي ، والمسرح الذي يقدم كل متعة ، وعدد اشجار السرو وسمكها وارتفاعها ، والممرات المظللة ، وجوقات الطيور الصداحة ، والنسيم المنتظم ، والروائح التي هي أعذب من التوابل ، وقنوات المياه الفخمة ، والدوالي المرفوعة لتكون قاعات للمآدب ـ هذه هي حدائق ألكينوس... وقرن أمالثيا ، وسيبارس بعينها. ولا يهم اي حمام تخيرت دون غيره لتستحم فيه ، فهناك في الحمامات التي فاتتك ما هو ابهج . والمكان يساعد الجسم كثيرا ، بحيث انك اذا غادرته بعد اقامة قصيرة ، ستذهب وصحتك احسن مما اتيت . واذا سئلت عما سرك اكثر من غيره ، فانك تجد صعوبة كبيرة في اعطاء الجواب ، لانه الى مثل هذا الحد تنافس كل مسرة في دفنه جميع المسرات الاخرى . وليس هناك عذاب ، مهما كان أليما او مستعصيا او طويلا ، الا وتستطيع دفنه ان تزيله . فستجد ان الالم يختفي حال وصولك . واذا كانت الآلهة تترك السماء حقا وتأتي الى الارض ، فأني اعتقد انها لا بد آتية سوية لتعقد مجالسها هنا ، اذ انه لن يتاح لها ان تصرف وقتها في مكان اجمل من هذا .



٣ الامبراطورية الرومانية المسيحية

« وقد عين الله قسطنطين ... »

يوسيبيوس

سواء أكان الزائر وثنيا ام مسيحيا ، فانه كان يعلم أن انطاكيه كانت ، في وقت واحد ، مدينة وثنية قديمة ومجتمعا مسيحيا هاما . وكغيره من سكان الامبراطورية ، فقد كان يعلم ، كما أنه قد شاهد بعينيه ، التغيرات التي كانت تجري في تكوين الدولة والمجتمع ، وفي الكنيسة من الداخل .

وقد تاثرت كل عائلة في انطاكيه ، بشكل أو بآخر ، بالتغيرات التي طرأت على الامبراطورية في الاجيال الثلاثة السابقة ، تلك التغيرات والتطورات التي شملت الامبراطورية بمجموعها ؛ ولكن انطاكيه ، بسبب موقعها الجغرافي ودورها الاداري ، شهدت هذه الاحداث عن كثب ، وعانت من بعضها اكثر من العديد غيرها من المدن .

فلم يكن قد مضى اكثر من مائة سنة على احتلال انطاكيه وحرقها على يد الفرس ، حين تعرضت الامبراطورية في ذلك

الوقت الى خطر شديد جدا هددها بالتمزق . وبالفعل ، فقد احتلت انطاكيه لحقبة من الزمان قوات من مملكة تدمـــر الصحراوية . ولكن الحظ تغير ، وجاء ثلاثة اباطرة هم اورليان (٢٧٠ ــ ٢٧٥) وديوكليتيان (٢٨٤ ــ ٣٠٥) وقسطنطين الكبير (٣٠٦ ــ ٣٣٧) ، نجحوا في انقاذ الدولة وتغيــير صورتها تغييرا جذريا ــ كما كان لا بد ان يكون ــ بحيث شمل كل بيت في انطاكيه ، غنيا كان ام فقيرا . وفي عهد ثيودوسيوس ، كانت الامور قد تحسنت . فقد كان الامن الخارجي قد استتب ، ولم تعد هناك امكانية للرجوع الى النكبات التي حلت بالبلاد قبل عهد ديوكليتيان . ولكن سكان انطاكيه في عهد ثيودوسيوس ، كانوا يسمعون من آبائهم واجدادهم عن مقدار الجهد الذي استنفد لانقاذ الدولة . وكان واضحا ان التغير الذي طرأ على انطاكيه في الاجيال القليلة السابقة كان يوازي التغير الذي جرى منذ استنفد آخر الملوك السلوقيين قواهم، ووجد الرومان ان من الضروري لهم أن يحتلوا سوريه .

لقد كان هناك امران يعملان معا في آن واحد أديا بالقرن الرابع الى ان يكتسب اسم القرن « الجديد القديم » . فقد كانت مجموعة من العوامل تسير بالدولة الرومانية الوثنية الى التداعي والانهيار ، بينما كانت طاقات اخرى تعمل على بناء الامبراطورية الرومانية المسيحية على انقاض ذلك العالم المتداعي . فكان هناك تجديد في كل شيء ، بحيث ارسيت

قواعد جديدة ومختلفة عما سبقتها في مجالات السياسة ، والاقتصاد ، والدين ، والحياة الفكرية .

وقد اصبحت نهاية الحكم الامبراطوري الكلاسيكي واضحة اثناء الازمة التي حلت بالامبراطورية في القرن الثالث . وقد اجتمعت مجموعة من العوامل العملية ادت الى تعريض الدولة للخطر الفعلي . وكان لبعض هذه العوامل جذور منذ القدم ؛ فقد كانت الدولة ، لعدة سنين خلت ، تعاني من تناقص في عدد السكان ، وخصوصا المولودين احرارا منهم ، مما ادى الى هبوط في القوة العاملة لم يكن هناك سبيل لايقافه او تغيير اتجاهه . وبما ان هذا الهبوط كان يعني هبوطا في عدد الشبان ، فانه اضعف الجيش وتسبب في تدهور خطير في الزراعة والانتاج الاقتصادي . وقد ادت الخسارة في الزراعة نفسها الى تثبيت النقص في عدد السكان ، وكانت الأرض ، اثناء هذا كله ، تفقد طاقتها الانتاجية .

اما الجيش ، فقد اضطر الى تقليص اعداده والى الاعتماد اكثر فاكثر على المرتزقة الاجانب ، ومن ثم فقد وجد نفسه عاجزا باطراد متزايد عن حماية حدود الامبراطورية الطويلة ، وهي الحدود الممتدة من بريطانيه ونهر الراين ، عبر نهر الدانوب والبحر الاسود وجبال ارمينيه ، الى ما بين النهرين . وقد تعرضت هذه الحدود الى ضغط متزايد من القبائل البربرية التي كانت تسعى الى اقتحام الامبراطورية لتتمتع

برخاء الحضارة الرومانية ويسرها . وكان البرابرة انفسهم قد طردوا من معاقلهم نتيجة لضغط من امم اخرى تشق طريقها من آسيه. وكان البرابرة يجوبون حدود الامبراطورية، التي كان تحصينها آنذاك ضعيفا ، وحامياتها قليلة العدد ، وهم يفتشون على مواضع ضعيفة لاختراقها .

وكانت المشكلة ذات خطورة ملحوظة ، وخاصة على الحدود الشرقية . فهناك ، كانت قوة الفرس ترقى بهم الى مستوى دولة تستطيع ان تعتبر نفسها ، من نواح عدة ، منافسة للامبراطورية . وكانت مدن سوريه الغنية ، وفي مقدمتها انطاكيه ، تبشر بغنائم عظيمة . وعندما قام الفرس بغزواتهم لم يحملوا معهم النفائس فحسب ، ولكن الاسرى ايضا . وكان من الصعب بمكان المحافظة على مراكز الدفاع الصحراوية ، ولم تستطع القوات الامبراطورية ان تمنع الغزاة من الدخول، نظرا لسرعة حركتهم . وقد سقطت انطاكيه نفسها ، واحرقت ، واحتلت لفترة قصيرة ، في منتصف القرن الثالث. ولقد ساعد الغزاة الحزب المساند للفرس في المدينة ، والمكون من مجموعة من الناس كانوا قد سئموا الحكم الامبراطوري سآمة جعلتهم يفضلون حكم الفرس عليه .

وفي وجه هذه المشكلات الجبارة، اثبتت الحكومة الرومانية عدم قدرتها على مواجهة الازمة . وقد تعاقب على الحكم فيها اباطرة ضعفاء ، اما يتناحرون فيما بينهم على السلطة ، او

يخفقون في معالجة المشكلات العسكرية التي كانت قواتهم اضعف من ان تواجهها .

وبدا من المؤكد ان الدولة ستنهار لولا ظهور هؤلاء الاباطرة الثلاثة الذين استطاعوا ، بفضل مواهبهم الفائقة ، ان يضعوا حدا للأزمة العسكرية أولا ، وان يترسموا وينفذوا ، من ثم ، عملية اعادة تنظيم هائلة ، تتناول الدولة والمجتمع على حد سواء . وقد نظم هؤلاء الاباطرة الموهوبون ، وهم اورليان وديوكليتيان وقسطنطين ، سلسلة من الاصلاحات في الحكومة ، والجيش ، والنظام الاقتصادي ، مخططة على اساس تقوية جميع جوانب العيش والعمل في الامبراطورية . واذا ما اخذنا بعين الاعتبار مدى الضعف الذي كان قد أصاب الامبراطورية عندما تولوا زمام الامور ، وجدنا ان مجهوداتهم نجحت نجاحا باهرا .

واتجهت هذه الاصلاحات ، تمشيا مع الفكر السياسي والاقتصادي السائد آنذاك ، الى خلق دولة استبدادية . فقد وسع الجيش وأعيد تنظيمه في جزئين ، احدهما يتألف من حاميات للحدود ، والآخر جيش ميدان متحرك ، فازدادت الخدمة العسكرية مكانة وقوة ازديادا كبيرا . واصبح الامبراطور ، في زيه الخارجي وما يحيط به من دلائل ، قائدا عسكريا . وقسمت الولايات الى وحدات أصغر ، وضمت الى ولايات او الى تنظيمات جغرافية جديدة ، ساعدت على

اقامة ادارة اشد فعالية وقدرة . ثم وسع الجهاز البيروقراطي ونظم على اساس عسكري ، بحيث كان المسؤولون يرتدون بزة تميزهم عن غيرهم . وفي عهد قسطنطين ، نقلت العاصمة من رومه الى مقر جديد هو القسطنطينية،«مدينة قسطنطين»، التي كانت تمتاز بموقع افضل للمواصلات العسكرية والادارية .

وقد تم تجميد العمال في مهنهم ، وتمت السيطرة على الانتاج والتجارة وذلك من اجل انقاذ الاقتصاد وتأمين الانتاج. وكانت احدى وسائل السيطرة هذه تشكيل نقابات قوية خاضعة للاشراف الرسمي . وبهذا ، لم يكن باستطاعة العامل ان يترك مهنته وينخرط في عمل آخر ، ولكن ، اكثر من ذلك ، كان على الابناء ان يلتحقوا بمهن آبائهم . وقد حاول بعض الصناع المهرة التهرب من اعمال خطرة او غير مربحة ، ولكن الشرطة لاحقتهم وعاقبت من استطاعت القبض عليه منهم . وكانت الحكومة تأمل بهذه الوسيلة ان تؤمن دوام الانتاج ، وقد خططت جميع النشاطات الانتاجية على اساس صريح من اعطاء الافضلية للاطعمة والمعدات التي يحتاجها الجيش والجهاز البيروقراطي .

وكان من بين التجديدات القيمة ، اصلاح النقد ونظام سك العملة الذي أوجده ديوكليتيان . وقد انهى هذا الاصلاح ، ولو مؤقتا ، التضخم الذي كانت الحكومة اما تؤيده او

تسكت عنه لسنين عديدة . وقد حاول ديوكليتيان بعد ذلك ان يدخل تشريعا للسيطرة على الاسعار ، ولكن ثبت انه من غير الممكن تطبيق مثل هذا التشريع .

وقد تأثرت انطاكيه بهذه التطورات بشكل خاص ، بسبب موقعها الستراتيجي في سوريه ، فقد اصبحت مقر القيادة العسكرية التي اقيمت لمواجهة غزوات الفرس ، واصبحت ، من ثم ، مقرا امبراطوريا حربيا يشمل مقر حاكم سوريه وموظفيه . ونظرا لاهمية الولايات الشرقية الحيوية ، فقد نظمت تنظيما خاصا جديدا ، كأسقفية الشرق ، واطلق على رئيسها لقبا استثنائيا وهو لقب « كونت الشرق » . اما في المجموعات الجغرافية للولايات الاخرى ، فقد كان المفتشون الذين يشرفون على ولاة الاقاليم مسؤولين امام الامبراطور مباشرة ، كما كانوا يتمتعون بصلاحية مدنية فقط . ولكن نظرا لخطر الفرس الدائب ، فقد صار من الضروري اعطاء المنطقة الشرقية صلاحيات خاصة ، وعليه فقد اعطي كونت الشرق سلطة مدنية وعسكرية ، فاتخذ من انطاكيه مقرا لقيادته ، واحتلت المدينة بذلك المركز الرئيسي الثاني في التنظيم الاداري . ونتيجة لذلك ، غصت المدينة بالمسؤولين المدنيين وبالجنود الذين كانوا يتمركزون في معسكرات تحيط بانطاكيه من كل جانب ، او يمرون بالمدينة في طريقهم الى الحدود الشرقية .

تلك كانت نتائج واحد من التيارات التي نجمت عن انهيار

طاقات الامبراطورية الطبيعية . ولكن كان هناك ، في الوقت نفسه ، تيار آخر نجح في ادخال طاقة جديدة الى حياة الدولة واهلها . ذلك المصدر الجديد للطاقة ، الذي كانت نتائجه ابعد اثرا حتى من اصلاحات الاباطرة العظام ، كان هو المسيحية ، التي برزت الآن كعامل مهم في الحياة العامة . وقد نجم تيار القوة الحيوية الجديد هذا عن اطلاق الحريات للمسيحية في عهد قسطنطين الكبير ، وادى الى انشاء الامبراطورية الرومانية المسيحية ، والى توسع الكنيسة المذهل ، والى ابتداء ثقافة ونظام تعليم جديدين . ولم يغير اعتناق قسطنطين للمسيحية وجه الامبراطورية الرومانية فحسب ، بل اعطى تاريخ اوروبه والدول السلافية بأسره اتجاها جديدا .

وكانت المسيحية في عهد ديوكليتيان ديانة مضطهدة يعتبر معتنقوها ، في واقع الامر ، وبحكم معتقداتهم ، مواطنين غير موالين للدولة واعداء لا يكنون الاحترام للدين القديم الذي جعل الامبراطورية عظيمة . ولكن ، بالرغم من الاضطهاد ، فقد كانت قوة المسيحية تزداد شأنا ، وكانت ايضا قد بدأت تجد لنفسها موطىء قدم في الدوائر الحكومية الرئيسية . وبعد فترة من الوقت ، اعتنق الامبراطور قسطنطين نفسه هذا المذهب الجديد . فقد ظهر له الصليب والمسيح في الرؤيا ، واعتقد انه بذلك منح القوة للتغلب على اعدائه . وقد اصبح الصليب – الذي ظهر للامبراطور في رؤياه مرفقا

بالتوصية : «بهذه الاشارة انتصر» ـ رمزا امبراطوريا . ولم تكن ظروف اعتناق قسطنطين للمسيحية واضحة تماما في جميع تفاصيلها ، وكان بامكان اعداء المسيحية ان يشككوا في اخلاصه ، وفي الدوافع التي حدته الى اتخاذ مثل هـــذه الخطوة . ولكن المسيحيين رحبوا بذلك الاعتناق فرحين ، ولا يمكن ، على الاقل ، انكار نتائجه الفعلية ، فقــد بدأت المسيحية الآن بالتمتع بالقبول والتأييد الرسميين .

وقد نتجت مشكلات ضخمة عــن اعتناق الامبراطــــور للمسيحية وظهور هذا الدين تدريجا دينا رسميا للدولة . ولم يكن من الممكن بأي وجه ان تحل جميع هذه المشكلات دفعة واحدة . فقد كان تغيير وضع المسيحية مباغتا وغير متوقع ، بحيث انه لم يكن اي من الكنيسة او الامبراطور قــد درس المسائل جميعها التي ستنجم عن تحول مركز هــذا الدين .

ولم يكن الامر محصورا في تغيير دين الناس الشخصي . فبينما كانت المسيحية من قبل امرا خاصا ، اصبحت الآن ، من نواح كثيرة ، قضية عامة . اما الوثنية ، فمع انها كانت في وجوهها المختلفة ـ اي في مذاهبها وفلسفتها وأدبها ـ رهنا بالمعتقدات والميول الخاصة ، الا انها كانت قد لعبت ايضا دورا رئيسيا في الحياة العامة . في هذا المجال بالذات من الحياة العامة ، أثار وضع المسيحية الجديد بعض القضايا السياسية .

لقد كانت الامبراطورية الرومانية الوثنية ، التي كانت تعيش بفضل قوة التقليد لا بقوة الدستور ، قد بنت تماسكها السياسي ؛ وخلقت تفويضا لسلطة الامبراطور ، على أساس من المذاهب العامة التي كان من السهل اضفاؤها على اي نوع من انواع الديانة الشخصية او المعتقدات الفلسفية التي ينتمي لها اي فرد من الجمهور الوثني . وقد تمثلت المذاهب الرسمية في عبادة الشعب لرومه بصورتها المشخصة ، وفي تأليه الاباطرة . وكانت القرابين الشخصية للامبراطور تعتبر رمزا للولاء للدولة ، ولما كان المسيحيون ، بسبب معتقداتهم ، عاجزين عن تقديم مثل هذه القرابين ، فقد اصبحوا يعتبرون مواطنين غير موالين . وكان المفترض ان الامبراطور يحكم بارشاد من اله وصي ، هو احد مجموعة الآلهة التقليدية . وقد كان كل امبراطور مميزا بعلاقته باحد هذه الآلهة — جوبيتر او ابولو او هرقل — او ، اذا كان يتبع مذهبا شرقيا ، الشمس غير المقهورة . وبذلك يكون الحاكم قد حصل على تفويض الهي هو مصدر قوته . وقد توحدت الشعوب المختلفة في الامبراطورية ، برغم تعدد انواع دياناتهم التقليدية ، تحت راية مذهب عبادة رسمية واحد ، مما عمل على تركيز ولاء الرعية ، بحيث كان من افضل الوسائل الموجودة آنذاك لتوحيد الدولة .

وقد كان قسطنطين نفسه ، نظرا لتوليه الحكم كامبراطور روماني وثني ، ونظرا لانه وريث اسلافه جميعا ، كاهن

الطقوس العامة الاعظم pontifex maximus ، وكان أبولو حارسه الشخصي. فماذا كان يحدث عند اعتناقه للمسيحية ؟ كيف كان يمكن لحاكم ، هو مسيحي كفرد ، ان يظل امبراطورا هو ، بحكم منصبه ، الكاهن الاعظم ؟ لقد كان على قسطنطين ، كامبراطور وثني ، ان يتلقى رسميا رسائل نصح من ابولو ، وكان مفروضا أن يكون للامبراطور اله ذو وصاية ؛ ولكن ما نوع العلاقة التي كان يمكن ان تقوم بين قسطنطين ، وهو الآن طفل الله ، وابولو ؟ ماذا سيكون اساس الدولة السياسي حقا ، اذا كان الامبراطور مسيحيا ، وكانت المسيحية هي الديانة المفضلة ، بل الرسمية ؟

كانت هذه ، اذن ، عناصر لدولة جديدة ولثقافة جديدة . ولكن كان على قسطنطين ان يسير بكل حذر ، لانه كان واضحا انه ليس من المحتمل ان يعتنق المسيحية سكان الامبراطورية جميعهم دفعة واحدة . وبالفعل ، فقد بقي الكثيرون من موظفي القصر وضباط الجيش الكبار على وثنيتهم . وقد كانت الجماعة الوثنية في القصر ، لمدة من الزمن ، على جانب كبير من القوة .

ولكن ، اذا كان العالم ، في الاعتقاد المسيحي ، ميدانا لمملكة الله ، فلا بد ان ثمة مكانا داخل هذه المملكة لرئاسة امبراطور روماني يعتنق المسيحية . واذا كان لا بد لكل شيء ان يتجدد، فقد كان على الامبراطور الروماني المسيحي ان يبدأ بتكوين

امبراطورية لها دورها كأداة في تحقيق مملكة الله هذه . وقد احتاجت هذه الامبراطورية ، كسالفتها ، الى اساس سياسي وديني . وقد قام اسقف قيساريه المدعو يوسيبيوس ، وهو رجل دين عالم ومتدين ، وأحد مستشاري قسطنطين المقربين في الأمور الكنسية ، قام بارساء القاعدة النظرية للدولة الجديدة . فقد استنبط يوسيبيوس تعريفا جديدا لطبيعة الحاكم المسيحي ومصادر قوته ، نقلت فيها ، بشكل جزئي ، نظريات الملك الوثنية القديمة ـ بما فيها المبدأ التقليدي الذي نبعت منه قوة الامبراطور الروماني ـ الى مفهوم جديد للملك المسيحي الذي قدر له ان يتمتع بتاريخ طويل في العالم .

وعليه ، قام يوسيبيوس بتقديم الامبراطور الروماني المسيحي كنائب لله في الارض ، يحكم كوكيل وخادم للحاكم الاعلى ، ويتصرف تبعا لارشاده المباشر . فالله يقوم باختيار الامبراطور ، وما كان انتخابه بالوسائل الدنيوية الا نتيجة للتدخل والرغبة الالهية . وبهذا ، فان قرارات الامبراطور تمثل الارادة الالهية ، وان واجب الامبراطور ان يقود رعيته في طريق العبادة الصحيحة والخلاص . وكان الامبراطور ـ تمشيا مع النظريات الهيلينستية في الملك ـ المخلص والمنعم والراعي الصالح لشعبه . وبهذا ، اذا كان للامبراطور سلطة واسعة ، فقد كانت عليه كذلك مسؤولية كبيرة . واذا كانت النظرية المسيحية عن حكمه تشبه ، في نواح عديدة جدا ، المفهوم الوثني التقليدي ، فقد سهل هذا الى حد كبير التحول الذي جرى في الدولة .

وبينما كان على الامبراطور ان يستمر في دوره كحاكم تقليدي لرعيته الوثنية — وفعلا ابقى قسطنطين على بعض الاشكال والرموز الرسمية الوثنية عددا من السنين بعد اعتناقه المسيحية — فقد كان في هذا الاستمرار اساس الدولة المسيحية الجديدة . ولكن بقيت هناك مشكلات سياسية وثقافية بحاجة الى حل .

ولربما كانت علاقة الامبراطور بالكنيسة اكثر هذه المشكلات الحاحا . فاذا كان الامبراطور ممثل الله وشبيهه في الارض ، فما هو المركز العملي الذي عليه ان يحتله في شؤون الكنيسة الادارية، وحتى اللاهوتية ؟ وكانت هناك مشكلة اخرى مرتبطة بهذه ، وهي علاقة الكنيسة بالسلطة المدنية . فاذا كانت المسيحية ستصبح دينا للدولة ، فالى أي مدى كان على السلطة المدنية ، في حال وجود ضرورة لاستعمال القوة ، ان تتدخل في تنظيم الكنيسة ؟ لم يكن اي من الدولة أو الكنيسة قد توقع مثل هذا السؤال أو احتاط له .

ولكن لم يمض زمن طويل قبل ان يظل هذا السؤال يطرح نفسه ويستلزم حلا . فقد نتج عن التنشيط الهائل الذي دخل الى الكنيسة ، بفضل تحررها ، نشاط في التأمل الفقهي ، الذي ادى بدوره الى نقاش حيوي واسع النطاق لم تعرفه الكنيسة من قبل . وفي الوقت نفسه ، برزت اسئلة جديدة تتعلق بالتنظيم ، والنظام الداخلي ، والجهاز الاداري.

وكانت النتيجة الحتمية لهذه الاسئلة قيام الخلافات والبدع . وقد جزع المراقبون لمشاهدة الخصام يعتري حياة الكنيسة الروحية ، ولو انه يجدر بنا ان نعترف ان قسطا من النزاع ، على الاقل ، كان ناتجا عن محاولة مخلصة لتوضيح معتقدات الكنيسة .

وتفاقمت بعض هذه الخلافات واتسعت ، وقد اثارت البدع الدوناتوسية والآريوسية الفوضى بحيث أجبرت الحكومة على التدخل للحفاظ على الامن العام . وزيادة على ذلك ، فقد كان الامبراطور قسطنطين ومستشاروه يعتقدون ان سلامة الدولة وسكانها وازدهارهم رهن باتباع الناس للتعاليم الحنيفة . واذا كان الامبراطور الآن ، حسب النظرية السياسية المسيحية الجديدة ، هو القوة المسيطرة في الكنيسة ، فماذا كان موقفه من الخلافات الفقهية ؟ عندما أوجبت ادعاءات الآريوسيين استدعاء مجمع كنسي ، قام الامبراطور ، بموجب الحق الذي يتمتع به ، باستدعاء مجمع نيقيه سنة ٣٢٥ ، وترأس جلساته ، واستخدم سلطات الدولة البوليسية لتطبيق قرارات المجلس . وقد قبلت الكنيسة بغير تردد ، امتنانا منها لتحرير الإمبراطور لها ومساندته اياها ، الدور الذي لعبه قسطنطين ، دون ان تفكر كثيرا في احتمالات السيطرة الامبراطورية عليها في نهاية المطاف .

وهكذا ، سلمت الكنيسة بأن الامبراطور يستطيع ، بل

ويجب عليه ، ان يتخذ موقفا معينا ، بارشاد مـــن الروح القدس ، عندما كانت تقوم خلافات حول المبادىء الكنسية . ونتيجة لهذا ، أصبح واجبا على الجهات المتخاصمة فـــي الكنيسة ان تسعى الى كسب الامبراطور ومستشاريه الى صفها . وكان لا بد ايضا ان تصل شؤون الترقية الاسقفية والتشريع ــ علما بان بعضها كان يعني السيطرة على ممتلكات كبيرة ــ الى موظفي البلاط ، ان لم تصل الـى الامبراطور نفسه . فليس غريبا اذن ان ظهر نوع من الاساقفة الدنيويين « السياسيين » الذين لم يكرسوا انفسهم لرعاية رعيتهم في البلدان النائية بقدر مـا وجهـوا عنايتهم الـى المناورات الدبلوماسية في البلاط الامبراطوري . وبالاضافة الى ذلك ، فقد كـان هناك موضوع التشريع ، من حيث تأثيره علـى المسيحيين ، ومن حيث انه انعكاس للاخلاق المسيحية . وفي هذا المضمار ، كان قسطنطين رائدا في اقامة سلسلة مـن الاصلاحات استهدفت القوانين القائمة ، وكان لهذه الاصلاحات فيما بعد تأثير كبير على قوانين العالم المسيحي . ولكـن قسطنطين نجح ، في هذه الامور جميعها ، فـي ادخـال الكنيسة في الدولة ؛ اما الدولة ، من حيث هي دولة ، فلم تدخل بدورها في الكنيسة . وبهذا ، دخلت الكنيسة الـى الدولة حسب شروط الدولة . وليس من الواضح الآن ، وربما لم يكن من الواضح آنذاك ، ما اذا كانت الكنيسة قد تنبهت كليا الى ان هذا كان نتيجة الاجراءات التي اتخذها قسطنطين . فان كانت الكنيسة قد فهمت طبيعة هذا الاجراء الامبراطوري،

فمن الممكن انها رحبت به دون أن تتنبه لما سيترتب عليه من عواقب .

وبمرور الزمن ، وضحت هذه العواقب ، وتمثلت النتيجة في وضع الكنيسة ابان عهد ثيودوسيوس . لقد اتخذ اولاد قسطنطين ومن تبعوهم مواقف متضاربة من النزاع الآريوسي ، ولقد كان قسطنطينوس (٣٣٧ – ٣٦٢) ، الذي أصبح امبراطورا على الجزء الشرقي من الامبراطورية آريوسيا يصرح بآريوسيته ، ويرغب في بدء عملية اضطهاد حقيقية ضد من يدينون بالتعاليم الحنيفة . وكان الآريوسيون يحاولون بالفعل اقامة كنيسة آريوسية للدولة يسيطر عليها الامبراطور .

وكان الكثيرون من سكان انطاكيه يتذكرون الخلاف الطويل حول الآريوسية. وقد انتهى موضوع جوهر المسيح – وهو موضوع يدور حول ما اذا كان المسيح الهي الجوهر ام أنه كان شخصا ثانويا خلقه الله ولكن من غير جوهر الآب الالهي – الى العديد من البدع المتفرعة، ولكن الحنفية ، رغم كونها في خطر، وجدت نصيرا قويا في شخص اثاناسيوس السكندري . وبعد فترة انقطاع ، تربع اثناءها الامبراطور يوليان الفيلسوف الوثني على العرش (٣٦١ – ٣٦٣) ، عادت المشكلة الآريوسية واتصلت بالعائلة الامبراطورية مرة اخرى . وكان الامبراطور فالنز (٣٦٤ – ٣٧٨) آريوسيا متطرفا ، وقد بدأ عملية اضطهاد ضد المسيحيين الحنفاء لم تتوقف حتى سنة ٣٧٧ ،

وكان احد اسباب توقفها دعوة اطلقهـا الخطيب الوثنـي ثميسطيوس .

كان هذا تفرع عن التركة التي خلفها قسطنطين الكبير . ولقد راحت القضية الآريوسية تحتضر ، لانها لم تتمتع بالقوة الفطرية الكافية لتحل محل الايمان الحنيف ، وتغير صفـة المسيحية الاساسية . وعندمـا اعتلـى ثيودوسيوس عرش الامبراطورية (عام ٣٧٩) ، وكان رجلا حنيفا ومتدينا ، اصبح من الواضح ان السلام سيعود الى الكنيسة . ولكن مسير الخلاف الذي ظهر ، والدور الذي لعبه الاباطرة فيه ، اظهر أن بعض المشكلات التي ظهرت في عهد قسطنطين كانت ما تزال تنتظر الحل .

ولم تكن المشكلات محصورة في النطاق السياسي والفقهي . فقد اثار ظهور المسيحية كذلك سؤالا فكريا يكمن فيه امكان ادخال تغييرات بعيدة المدى في ثقافة الامبراطورية ، لا تقل خطورة عن التغييرات التي سبقتها . وكان هذا السؤال يتعلق بواحد من المميزات الاساسية للحضارة اليونانية الرومانية . لقد كان الادب وعبادة الآلهة في الحضارة اليونانية ، على حد تعبير ليبانيوس ، اختين توأمين ، ولم يكن من الممكن لاحد ان يهاجم احدهما او أن يحاول التخلص منه دون ان يؤثر على الآخر . وقد عرف هذا كل مسيحي مثقف ـ خصوصا كل مسيحي اعتنق المسيحية بعد بلوغه سن النضج . وكان الادب

الكلاسيكي جزءا لا يتجزأ من الفلسفة والدين الوثنيين . وكان الادب يعني الشيء الكثير للوثني المثقف ، بحيث انه لم يكن بامكان المسيحي ان يفرق ، في مخيلته ، بين الادب وبين أصحاب ذلك الادب ، الذين كانوا يتطلعون الى ادبهم ليستمدوا منه ايمانهم في الحياة ونظرتهم اليها . لقد كانت مهمة المسيحيين ان يكسبوا الوثنيين الى المسيحية ، ولكن اذا كان على المسيحيين ان يعتبروا الوثنيين اعداء لهم ، فكان لا بد للمسيحيين ان يحسوا ــ حتى لاشعوريا ــ ان الادب الوثني كان وثيق الصلة بهذا العداء .

وكان هذا الشعور مسؤولا عن رد الفعل الذي حدث عند الكثيرين من المعلمين المسيحيين الاوائل ضد الادب الوثني ، من حيث كونه وثنيا . وكانت هناك بالطبع اسباب معقولة تحدو المسيحيين الى عدم الموافقة على بعض اجزاء معينة من ذلك الادب ، كمسرحيات ارسطوفان مثلا ، وبعض تراجم حيوات الآلهة الخاصة . ولم يكن من المعقول ان يعرض اي ولد مسيحي يدرس الادب اليوناني الى هذا النوع من القراءة ، ولم يكن بود اي مسيحي بالغ ان يضمر الآراء التي تظهر فيها . اما آثام الوثنيين ، كما عددها العهد الجديد ، وسمعة كورنثوس التي كانت مضرب المثل كمدينة للملذات ، فلم تكن قد اختفت من العالم الوثني في زمن ثيودوسيوس ، وكان الفنانون الوثنيون لا يزالون يطلعون على العالم برسوم ، وتماثيل ، وفسيفساء ، يحيون فيها بفرح كبير لذات هذا

العالم . وقد كونت جميع هذه العناصر ــ من فن ، وادب ، وفلسفة ، ودين ــ وحدة عضوية متكاملة في نظر الوثنيين والمسيحيين على السواء . ولذلك ، فقد وجدت المسيحية نفسها مضطرة لا ان تهاجم اعتقادا دينيا فحسب ، ولكن ايضا طريقة حياة بأكملها ، ونظام فكر وفن برمته . ووجد الوثنيون انفسهم مضطرين للدفاع عن هذا التراث .

ولكن مهما بدا الامر واضحا ، فقد اعتقد بعض المسيحيين انه لم يكن من الممكن ، او حتى من الحكمة ، ان يحكموا بالاعدام على الادب الوثني برمته . فقد كان هذا الأدب مألوفا بطبيعة الحال لدى المثقفين الذين اعتنقوا المسيحية بعد بلوغهم سن الرشد . واهم من ذلك ، كان هذا الادب لا يزال يكون نواة نظام التعليم وصلبه ، حتى بعد ان ترعرعت المسيحية ونمت . وقد اثر هذا الأمر في كل فرد ، سواء أكان وثنيا ام مسيحيا ، ومن بعده أثر في الدولة نفسها ؛ فقد كان عمل الدولة المنتظم يعتمد على نوع الثقافة والتدريب اللذين تحلى بهما الافراد ممن كانوا يتولون مهمة الادارة فيها .

ولم تكن اصلاحات ديوكليتيان وقسطنطين السياسية والاقتصادية قد شملت اي تغيير في البرنامج التعليمي ، فقد كان الجميع يعتبرون نظام التعليم السائد صالحا من الناحيتين النظرية والعملية بشكل متفوق ، فبقي التعليم مبنيا على دراسات الكتاب الكلاسيكيين القدماء . وكان حكم الأثينيين

في القرن الخامس يعتبر الميزان المطلق للذوق السليم . وكما قال شيشرون في («الخطيب» Orator : ٢٥) ، لم يكن احد يستمع الى حديث ما لم يكن « خاليا من الشوائب ومختارا احسن اختيار . » ولم « يجرؤ » المتكلم الذي كان يقصد ان يرضيهم « على ان يستعمل كلمة واحدة غريبة او مؤذية للشعور » . وعليه ، فلم يزل التلميذ في ايام ليبانيوس يتدرب على تفهم كتابات الكتاب الكلاسيكيين وتذوقها ، ولم يزل القصد من التعليم هو تمكين الشاب من الكتابة ، والتكلم بأسلوب عظماء القدماء . ولم يكن احد يعتبر هذا تقليدا او نقلا ، فقد ظهر من منهاجهم التعليمي أنهم آمنوا بأن الكتاب والفلاسفة القدماء كانوا يمثلون قمة التحصيل الانساني ، في مجالي الفكر والتعبير على السواء ؛ وبما انه لم يكن بالامكان ان يتفوق أحد عليهم ، فكان افضل ما يمكن عمله هو محاولة فهم سر تفوقهم ، ومن ثم تقليدهم ، بقدر المستطاع . لقد كان هذا تقليدا ولا شك ، ولكنه تقليد لانجاز فكري يمثل أرقى مستويات التحصيل الانساني . وكان الأدب القديم «كلاسيكيا» ، لانه نجح في تدوين صورة للانسانية في جميع وجوهها ، لا يحدها وقت أو زمان . وفي النظرة الوثنية الى الحياة ، كان الانسان هو الموضوع الصحيح في دراسة الانسانية ، وبذلك كان افضل تدريب للطالب من اجل مواجهة الحياة ــ في العائلة ، والمدينة ، والدولة ــ يكمن في الدراسة المستفيضة لادب الانسانية . وكان الكتاب الكلاسيكيون ، في سعيهم لتصوير الحياة من حولهم ، قد خرجوا بسلسلة من

الصور عن كل ما يجدر الاقتداء به وكل ما يحسن اجتنابه ، وكانت هناك مؤلفات صالحة للاستعمال في جميع مراحل الدراسة ، من الصغر الى سني النضج .

وكانت للكتابة الكلاسيكية فائدة اخرى ، وهي الاسلوب الادبي الذي كتبت فيه . فكان احد المعتقدات الاساسية في التقاليد التربوية يرتكز على ان دقة الفكر ووضوحه ينعكسان في التعبير الكتابي والشفهي عن ذلك الفكر . وكان لا بد للعقل المدرب القادر من ان يدل على نفسه في كيفية التعبير . وعلى النقيض من ذلك ، فقد كان الضعف في اللغة وفي المقدرة على نقل الافكار بوضوح ورشاقة دليلا على عقل ضئيل المعرفة ، ضعيف التدريب . وكان التركيز كله على الاسلوب الكتابي . ولكن هذا كان مرده ، كما كان الناس يعتقدون ، الى اسباب وجيهة .

وبالطبع ، كانت الاعتبارات الاساسية التي اخرجت هذا المنهاج الى حيز الوجود ، ثم ابقت عليه ، اعتبارات تتوخى المنفعة العملية بجانب كونها اعتبارات فلسفية . وعلى هذا الاساس التعليمي ، كان يمكن تهيئة الدارسين في دراسة القانون والخدمة المدنية تهيئة كاملة ، وقد كان هناك اعتراف رسمي بان الترقية في مستويات الخدمة المدنية العليا اعتمدت على الانتاج الادبي .

هذا ، اذن ، كان نظامهم التربوي ، وكان على كل من اراد

ان يعمل في حرفة من الحرف او في وظيفة عامة ان يتبعه . ولكن هل كان من الممكن ان تبنى ثقافة المسيحي على هذا الأدب الذي كان ، في بعض الاحيان ، وبكل تأكيد ، منافيا للمسيحية ؟

لقد قرر بعض المفكرين المسيحيين الاوائل ان الحل الوحيد كان في الابتعاد الكلي عن الثقافة الوثنية برمتها . وكان على المسيحي ، في نظرهم ، ان يلزم الحذر تجاه « الفلسفة » والخداع المتعجرف المبني على تعاليم من صنع الانسان . وكان في السؤال المشهور الذي طرحه المحامي ترتليان « وما علاقة اثينه باورشليم ؟ » تصوير دقيق لرد الفعل عند العديدين من المسيحيين المهتمين بالامر .

ولكن كان هناك جواب آخر اكثر مرونة من هذا الحل الذي رأيناه ، توصل اليه ببطء بعض اتقياء المفكرين المسيحيين بالتعاقب ، ابتداء من اناس مثل كليمنت الرومي ، وجوستين الشهيد ، من بين الآباء الرسوليين . وكان بعض هؤلاء الرجال ، وجميعهم ملمون بالمؤلفات الكلاسيكية ، على درجة من الرسوخ في عقيدتهم مكنتهم من قراءة مؤلفات الكتاب الوثنيين من وجهة نظر مسيحية . وجرت اولى المحاولات الجادة لنقل الكتاب الكلاسيكيين الى حظيرة التقاليد المسيحية على يد اللاهوتيين الكبيرين كليمنت السكندري واوريجين . فقد كان من الواضح لهما انه من الممكن الاستفادة من بعض عناصر

الفكر والادب الوثنيين المتازة في عملية تدريب المسيحيين خلقيا وفكريا ، نظرا لما اثبتته من فائدة في تدريب الوثنيين . وقد كان فكر افلاطون في كثير من النواحي مشابها لبعض مظاهر التعليم المسيحي . ومع انه لم يستطع بالطبع الارتقاء الى اعلى المستويات التي توصلت اليها المسيحية لمنفعة الانسان ، الا انه سعى الى ايجاد الحلول لمشكلات طبيعة الانسان ، وطبيعة الروح ، واساس السلوك الانساني ، وهي المشكلات عينها التي وجدت المسيحية حلولا لها . واذا لم يكن باستطاعة افلاطون نفسه التوصل الى تلك الحلول ، فان فكره ، على اي حال ، كان قيما من حيث هو تعبير عما يمكن ان يحققه العقل البشري على اساس من العقل وحده ، دون مساندة من الالهام الالهي . وقد وجد المفكر المسيحي قيمة كبرى في ان افلاطون تنبه الى ان هناك كائنا اعلى وعنصرا خالدا، وانه لم يستطع ان يتحسس هذا فعلا، او ان يفهمه، او ان يحدد مكانه . وقد عرف افلاطون ان السعي الحقيقي كان يكمن في ايجاد مصدر هذا الخلود،ولكنه عرف ايضا انه لم يكن قادرا على ايجاد الجواب او الحل . فاذا نظر الى فكر افلاطون من هذه الزاوية ، يصبح من المكن ان يكون فيه ما يفيد المسيحية ، ومن المكن ايضا ان تكون كتابات الكتاب الكلاسيكيين الآخرين ذات قيمة من ناحية التنظيم الفكري والتدريب الادبي . وعليه ، فاذا احسن توجيه المسيحي ؛ اصبح في استطاعته ؛ دون شك ، الاستفادة من هذه الامور التي كانت ، اولا وآخرا ، من انبل عناصر تراثه القومي . وكان

في استطاعة اي مسيحي درس الفكر الوثني دون تحيز ضده ان يجد في أحسنه ، ضمن حدوده الطبيعية القاصرة ، عنصرا شاملا له مكانه في شمول المسيحية الأكبر والأعم . واذا ادخلت ارقى عناصر التجربة الوثنية في الفكر المسيحي ، فهذا يؤدي الى اغنائه ، وليس الى تغييره .

وقبل ارتقاء ثيودوسيوس العرش بمدة وجيزة ، قام ثلاثة من عظام اللاهوتيين الكابادوشيين وهم باسيل القيساري ، واخوه الاصغر غريغوري النيسي ، وصديقهما العامل معهما غريغوري النازيانزي ، بمساندة حق المسيحيين في دراسة الكتابات الكلاسيكية الوثنية والاستفادة منها بشكل قاطع في كتاباتهم . وقد ايقن هؤلاء المفكرون انه ، بفضل المركز الجديد الذي تبوأته المسيحية ، والمسؤوليات والحقوق الجديدة التي نتجت عنه ، اصبح من الضروري جدا ان تضع المسيحية نفسها في موضع تستطيع معه ان تستمد شيئا من السعادة من تراثها وتبني الثقافة المسيحية الجديدة ، التي كان لا بد من بنائها اذا ارادت المسيحية ان تقوم برسالتها وتحتل مكان العالم الوثني احتلالا كاملا . والى ان يتم هذا ، لم يكن هناك مفر من عيش المسيحيين والوثنيين في عالم واحد ، وكان على المسيحيين ان يشاركوا الوثنيين في امور من هذا العالم لم يكن من الممكن تغييرها في الحال .

وهكذا حدث انه في عهد اكثر الاباطرة مسيحية ، وهو

ثيودوسيوس ، وصلت الثقافة الانسانية للامبراطورية المسيحية الجديدة الى كامل تراثها . وكان بامكان المسيحيين الآن ان يدركوا ان الايمان الصحيح يمكن ان يكون قويا وواسعا الى درجة تمكنه من تقبل افضل جوانب تراث الفكر اليوناني القديم وتحويله الى شيء يسمح للمسيحية باستعماله . وهكذا ، فقد استطاعت ثقافة العالم المسيحي الدنيوية ان تجد مكانها المناسب كرفيقة للتعاليم الدينية . واصبح الآن بالامكان دمج مظاهر حياة الانسان الفكرية ، والدينية ، والسياسية ، وجعلها وحدة متناسقة ضمن حدود الرغبة الالهية ، وتحت اشراف السلطة ذاتها . فقد كانت الخصومة بين الوثنية والمسيحية ، على المستوى الثقافي ، قد نتجت عن تضارب الآراء حول مصدر معرفة الانسان ، والسلطة التي يمثلها هذا المصدر . وقد ادعى الوثنيون والمسيحيون على السواء ان كلا منهم وجد الحقيقة . ومع ان بعض الوثنيين كانوا يقرون وجود اله مجهول ، فقد كان اكثر الكتاب والمفكرين الوثنيين يعتبرون الانسان وقواه الفكرية اصل كل جهد خلاق. كان من الممكن للانسان ان يبدأ بالسعي وراء الحقيقة ، ومع ان الناس كانوا قد تصوروا سلسلة كاملة من الآلهة ومن القوى الالهية المختلفة التي يمكن ان تساعد الانسان في مجهوده ، فلم يزل ممكنا للانسان ان يكتشف المعنى الجوهري للاشياء . وكانت المعرفة بالنسبة للعقل اليوناني غير محدودة، وكان امام الفكر الانساني المدرب حقل غير محدود من البحث والتأمل . وقد اشار المدافعون عن المسيحية الى ان وجود

هذه الكثرة المتنوعة من الآلهة الذين تصورهم اليونان ، ووجود هذه الكثرة المتنوعة من النظم الفلسفية ، يثيران الشك في صحة معتقداتهم كلها . وبالاضافة الى ذلك ، فان العقـل الانساني ، بالنسبة للوثني ، هو الاداة القادرة على السعي وراء اكتشاف الحقيقة ، والحكم على النتائج ، ومواصلـة البحث ، على فرض احتمال اكتشاف المزيد .

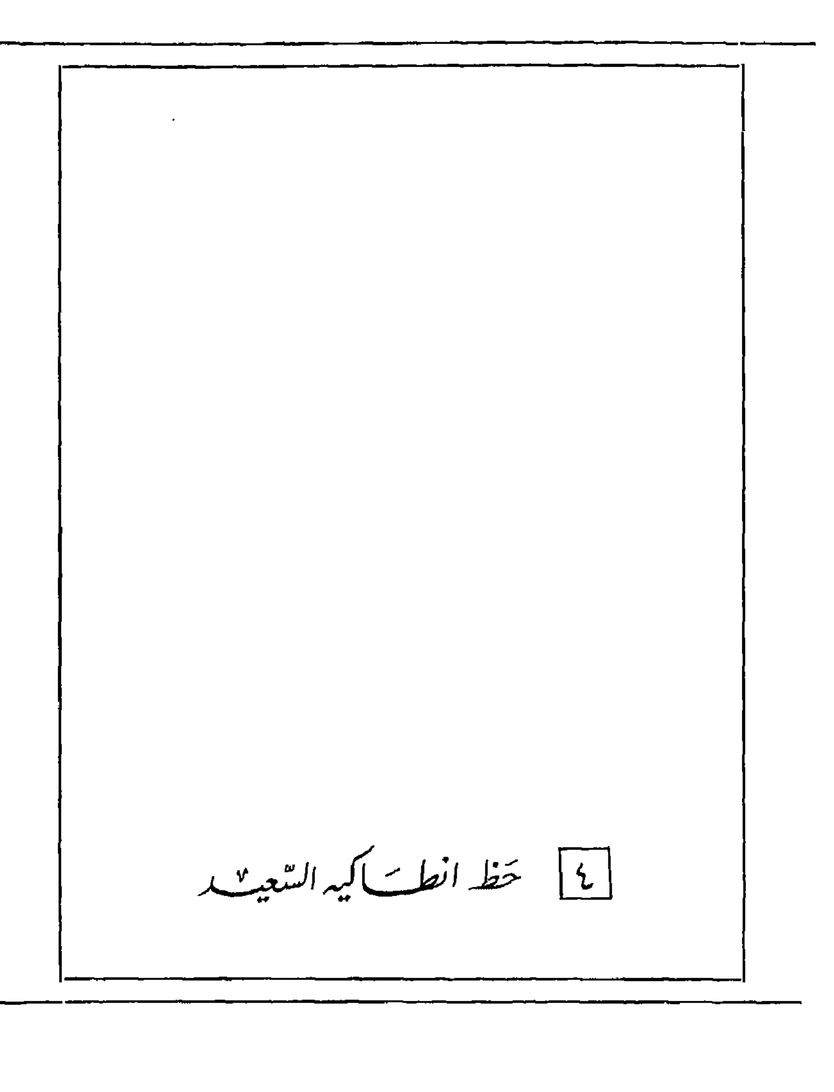
وبعكس هؤلاء ، فانه كان بمقدور المسيحيين ان يتأكدوا ان معرفتهم وحكمتهم جاءت من المصدر نفسه الذي أمن لهم صحة معتقدهم ، وقد أعطوا المقدرة على التمييز بين الخير والشر جنبا الى جنب مع المقدرة على تفهم الامور . وبالنسبة لهم ، فان النظام المسيحي برمته كان يشكل حقيقة واحدة ، متمثلة في المسيح . وعلى هذا الاساس ، كان باستطاعة الكنيسة والشعب المسيحي ان يخلقا ، بكل ثقة ، ثقافة يونانية مسيحية حقة ، وان يستمتعا بها ويفيدا منها . وبذا ، كان أن بدأت الامبراطورية المسيحية ، بعد موت قسطنطين الكبير باربعين سنة ، في البروز بشكلها الصحيح الـذي كان اعتنـاق قسطنطين للمسيحية قد بدأ يرشدها اليه . وكان لا بد من ان تتم هذه العملية شيئا فشيئا ، ولم يكن تحويل العالم اليوناني الروماني الى المسيحية قد تم بعد ، ولكن ربما شعر المسيحيون في ايام ثيودوسيوس بثقة ورضى يفوقان ما شعر به آباؤهم واجدادهم في زمن قسطنطين الكبير . ولذا ، كان عهد ثيودوسيوس في انطاكيه ، وهي التي كانت لمدة طويلة

مهدا مرموقا للثقافة اليونانية ، ومركـزا ذا نفوذ للحيـــاة المسيحية ، مرحلة جديدة في نضوج الدولة المسيحية . وقد كانت هذه العملية تسير بالطبع في جميع انحاء العالم اليوناني الروماني . اما في انطاكيه ، فقد كان التطور ذا اهمية اكبر ، نظرا لقوة الخطين الوثني والمسيحي ، اللذين كانا يقتربان من نقطة الالتقاء .

ولكن هذه العملية كانت بالضرورة عملية طويلة ، ولم يكن ما تم في عهد ثيودوسيوس امرا نهائيا . وكان على التطور النهائي ، في الثقافة والسياسة ، ان ينتظر الى عهد جستنيان الكبير ، في القرن السادس ، حتى يتم . ومع ذلك فان اسس عمل جستنيان ترجع الى العمل الذي قام به قسطنطين وثيودوسيوس . اما ما كان يجري تثبيته ، فكان وحدة في الدين ، والسياسة ، والثقافة الفكرية ؛ وقد قدر لهذه الوحدة ان تسبغ على الامبراطورية الرومانية الشرقية والامبراطورية البيزنطية طابعها الخاص .

وقد جرى هذا التلاحم الثقافي في انطاكيه ، وهي تعد ، كمدينة ، مركزا يونانيا ومجتمعا مسيحيا معا . وقد كان في المدينة ، باعتبارها مجتمعا بشريـا ، ان تمكـن التعليـم ، والدراسة ، والجهد الخلاق ، والتبادل الاجتماعي ، من الابقاء على مدنية قديمة وتكوين مدنية جديدة في آن واحد ، وذلك لان بقاء دين قديم او نشر دين جديد لا يمكن ان يتم الا فـي

مجتمع بشري . وقد لعبت جميع المدن العظيمة ــ انطاكيه ، والقسطنطينية ، والاسكندرية ، واثينه ــ دورا في هذه العملية التي ارسيت قواعدها في القرن الرابع . وقد كانت النتيجة، كما ظهرت في عهد ثيودوسيوس وبعده ، ممثلة للعمل الجماعي النابع عن التقاليد الخاصة لكل من هذه المدن . وبالطبع ، كان المواطن داخل كل مدينة هو الذي عمل وساعد في تحديد تلك النتيجة ، ولكن يجدر بنا الا ننسى ان المدينة هي التي شكلت المواطن وكونته .


٤ حظ انطاكيه السّعيد

« الرجال يصنعون المدن » .

ثوسيديدس

كانت انطاكيه في عهد ثيودوسيوس الكبير مركزا من مراكز التعليم الشهيرة في العالم الناطق باليونانية. ويعود الفضل في ذلك ، جزئيا بطبيعة الحال ، الى ليبانيوس . غير ان ليبانيوس نفسه كان تلميذا وخليفة لأجيال اقدم منه من المعلمين الذين اجتذبت شهرتهم التلاميذ الى انطاكيه من جميع انحاء العالم. وليس من شك في ان العديدين من مواطني انطاكيه كانوا يوافقون ليبانيوس في محاولته تلخيص أسباب عظمة تلك المدينة ، حين قال :

هل نستطيع ان نذكر مدينة واحدة تستحق ان تقارن بهذه ؟ فالى جانب كونها اسعد حظا من اقدم المدن ، فهي اكبر حجما من بعض المدن الاخرى ؛ وهي تفوق بعض المدن في نبل اصلها ، ومدنا اخرى في ارضها المعطاء . قد تفوقها مدينة واحدة (القسطنطينية) بأسوارها ، ولكنها اعظم من هذه في وفرة مائها ،

واعتدال شتائها ، وفي تهذيب أهلها ، وفي طلبها للعلم .
وهي أجمل من المدينة التي تفوق تلك حجما (رومه) ،
بسبب اجمل الاشياء وهي التربية والادب الهيلينيين .

لقد كان التعليم يعتبر في الامبراطورية الرومانية آنذاك احدى القواعد الهامة لخير الدولة وسعادة مواطنيها . وكان الدخول في الخدمة الحكومية يتطلب ، رسميا ، قدرا كافيا من التدريب في العلوم الانسانية . وكانت قرائن التفوق في العلم وفي المهارة الادبية — كنشر مؤلفات في التاريخ او الفلسفة ، او كتابة قصائد بالاسلوب الكلاسيكي — تضمن الترقية في الخدمة المدنية . وقد كان للاباطرة انفسهم محاولات ادبية ، فالامبراطور يوليان مثلا ، كان فيلسوفا عالما واديبا موهوبا ، وحتى لو لم يكن امبراطورا ، فقد كان بامكانه ان يصبح شخصية مرموقة في تاريخ الادب والفلسفة اليونانيين . وقد كان على الاباطرة ، من ناحية المبدأ على الاقل، ان يطلبوا نصيحة الفلاسفة المحترفين فيما يتعلق بشؤون الدولة . وقد عين ثميسطيوس وغيره سفراء لدى الدول الاجنبية بسبب ثقافتهم وانجازاتهم الادبية . واما بين المسيحيين ، فكان الاساقفة في كثير من الاحيان علماء يمتلكون مكتبات خاصة ضخمة ، متمرسين في العلوم الوثنية بجانب تعمقهم في الكتاب المقدس واللاهوت ، وكان الكهنة يوقنون ان نجاحهم كوعاظ ومدافعين عن الدين يطرد ويتوطد اذا هم كتبوا عظاتهم وألقوها حسب قوانين البلاغة السائدة في تقاليد الدراسة الكلاسيكية .

ولكن ، ومع هذا كله ، كان دعم النظام التعليمي وتنظيمه في الغالب أمرا خاصا ، وليس مسؤولية او خدمة عامة تقوم بها الحكومة . ومع ان البلديات كانت تدعو من وقت الى آخر اساتذة البلاغة والادب الرسميين ، وتدفع مخصصاتهم (وكان بعض رجال الادب المرموقين يتسلمون دعوات كثيرة في آن واحد من البلديات المتنافسة) ، ومع ان الادارة الامبراطورية قدمت مكتبة لجامعة فـــي القسطنطينيـــة ودفعت رواتب الاساتذة فيها ـ الا ان جهود الدولة في هذا المضمار ظلت قاصرة ، وكان التعليم الذي يتلقاه الطفل في اوائل عهـــد دراسته يعتمد كليا على مقدرة أهله المادية ، وعلى نوعية التدريس الخاص الموجود محليا .

ونظرا للاحوال الاقتصادية آنذاك ، وخصوصا للمفارقة الكبيرة بين منتهى الثراء ومنتهى الفقر اللذين تميزت بهما الامبراطورية الرومانية في جميع عصورها ، بحيث كان عدد افراد من يسمون بـ «الطبقة الوسطى» قليلا نسبيا ـ لم يكن غريبا ان نجد نسبة الامية عالية . وقد كان المفكرون القدماء ، ومن بينهم ارسطوطاليس ، صاحب الموقف الممثل لشعور الاكثرية ، يعتقدون ان الناس لم تلدهم امهاتهم متساوين ، بل كان للبعض مواهب طبيعية تفوق ما للآخرين ، بحيث ان البعض ولدوا ليحكموا والبعض ولدوا ليخدموا . وفي مثل هذا المفهوم للانسانية ، كان الرق امرا طبيعيا . فقد كان يعتقد ان من ولد من اصل وضيع او من أبوين من الرقيق ، لم يكن

صالحا للتعلم ، ذلك لان البيئة الطبيعية الصعبة ، بل المهينة ، التي عاش فيها كانت تؤدي الى اعوجاج او انحراف عقلي يجعله غير ذي قدرة على اكتساب المعرفة او استعمالها استعمالا صحيحا . فكان من الواضح ـ والحالة هذه ـ اعتبار محاولة تثقيف الطبقات الدنيا او العبيد عملا منافيا للطبيعة نفسها .

واذا كان المسؤولون عن الدولة يتقبلون الامية كجزء من النظام الطبيعي للحياة، فانهم لم يتنبهوا الى ان الامية، والنقص في التعليم بوجه عام ، يمكن ان يشكلا معضلة سياسية . فاثناء توسع الامبراطورية الرومانية التدريجي ، اصبحت تلك الامبراطورية تتكون من مجموعة من الامم تتكلم لغات عديدة وتمثل اجناسا مختلفة من البشر ، هي بحاجة الى رابط مشترك يمكن بوساطته ان يتم شيء من التماسك بينهم . وقد حاول المسؤولون ان يخلقوا مثل هذا الرابط بتطوير المذهب الرسمي المتعلق بشخص الامبراطور ، وكان بمثابة اعلان للولاء اكثر منه عبادة دينية (وقد كان رفض المسيحيين الاشتراك في هذه الطقوس السبب في اعتبارهم غير موالين ، وبالتالي ، في اضطهادهم) . ولكن هذا لم يكن كافيا في الحقيقة لربط جميع امم الامبراطورية المختلفة ببعضها البعض . وكان مصير المسيحية ، مع مرور الزمن ، ان تكون هذا الرابط ، ولكنها لم تكن في نهاية القرن الرابع قد تغلغلت الى نسبة من السكان تكفي لكي تكون عاملا رئيسيا في الوحدة الوطنية ، كما اصبح شأنها ابان الدولة البيزنطية .

بقي هناك عامل واحد قابل لان يطور كمصدر للوحدة ، كما حدث في عصور لاحقة وامكنة اخرى ، وهو التعليم والثقافة . وقد كان ينبغي اقامة نظام من التعليم المجاني العام ، مهمته نشر اللغة اليونانية في الجزء الشرقي من الامبراطورية ، وتدعيم الشعور بالتراث الوطني المنبثق عن الثقافة اليونانية الكلاسيكية ، ليكون الاساس المشترك لجمع الشعوب المحلية المختلفة في الاناضول وسوريه وفلسطين ومصر ، التي لم تكن لتشعر ، من غير هذا الحل ، ان لها مصالح مشتركة . وبطبيعة الحال ، فقد تعلم الكثيرون من سكان هذه الاقطار اللغة اليونانية ، اما لاغراض تجارية ، او للارتقاء بأنفسهم عن طريق الخدمة في الحكومة ، ولكن الكثيرين غيرهم الذين لم يسعفهم الحظ او لم تحدهم الرغبة ، لم يتكلموا سوى لغتهم الام ، وبذلك كان شعورهم يتركز في انهم رعايا قوة حاكمة ذات لغة وثقافة اجنبيتين .

ويظهر ان السلطات الامبراطورية لم تتنبه الى المخاطر السياسية الكامنة في مثل هذه الظروف ، مع ما يمكن ان يرافقها من آمال وطنية اقليمية او حتى انفصالية . وبعد عهد ثيودوسيوس بمدة غير طويلة ، اصبح واضحا مقدار ما يمكن ان ينجزه القادة الشعبيون السياسيون والدينيون ، الذين استطاعوا ، باساليبهم الدهماوية ، ان يجدوا صدى بين فلاحي سوريه ومصر الأميين ، بما فيهم الرهبان الأميين ، وان يثيروا شعورهم الوطني المحلي . ويظهر ان هذا ايضا كان

يعتبر جزءا من النظام الطبيعي للحياة ، وعندما حان الوقت ، حاولت الحكومة المركزية قمع هذه الحركات الخطيرة بالقوة . وفي هذه الاثناء ، وفي عهد ثيودوسيوس ، كانت هناك في انطاكيه وفي الريف من حولها طبقة دنيا من المزارعين والعمال الذين لم يعرفوا الا اللغة السريانية . وبقيت هذه الطبقة بمثابة تذكير ، لم يعره احد اي انتباه ، بأن في الامبراطورية فعلا عنصرا سكانيا منفصلا ، لم يحاول احد بشكل رسمي ومنظم ان يدمجه في الثقافة اليونانية والمجتمع اليوناني المسيطرين آنذاك . ومع ان السجلات تدل على وجود أشخاص يحملون أسماء سامية أصيلة تمكنوا ، عن طريق الحظ او المقدرة ، ان يرتفعوا بأنفسهم الى مرتبة من القبول والنجاح في مستوى الناطقين باليونانية في العالم المحلي ، الا ان هؤلاء كانوا يمثلون الاستثناء لا القاعدة .

وبذا ، فقد كان هناك نوعان من الاطفال في انطاكيه : فئة بامكانها ان تأمل في ان تتعلم ، وفئة محرومة من هذا الامل . اما بالنسبة للفئة الاولى ، فقد كان التعلم يبدأ في البيت . وكان الطفل يتعلم القراءة والكتابة عن طريق جدته في أغلب الاحيان ، واحيانا عن طريق اخ او اخت اكبر منه ، وفي بعض العائلات عن طريق عبد متعلم . ونحن نسمع عن مزارعين كانوا يقضون اشهر الشتاء ، عندما كان الطقس يمنعهم من العمل خارج البيت ، وهم ينحتون الحروف الابجدية في قطع خشبية .

وعندما كان الطفل يصل الى حوالي السابعة من عمره ، كان يذهب الى المدرسة برفقة خادم او عبد يلقب بـ«المربي» ، مهمته حمل كتب الطفل ومواد كتابته من المدرسة واليها ، وكان يتصرف بوجه عام كصديق للطفل ومعلم له في الآداب والاخلاق . وكان المربي يعتبر احد افراد العائلة . وكان له في كثير من الاحيان سلطة كبيرة يشترك فيها مع الابوين .

اما منزلة معلم المدرسة ، فتدل القرائن على انها كانت ، في جميع الاحيان ، منزلة متواضعة تكاد تكون محتقرة . وفضلا عن كون راتب المعلمين ضئيلا ، فقد كان الكثيرون منهم شرسي المزاج ، وكان بعض الاطفال يرزحون تحت وطأة جبروت المعلم والضرب المبرح الذي كان ينزله بهم . وكان احد اسباب حقارة منزلة المعلم ان المجتمع لم يكن يعتقد بضرورة توفر اية مؤهلات خاصة لدى من يمتهنون التعليم في المرحلة الابتدائية . ولم يكن هناك اجازات للمعلمين ، كما لم يكن هناك تفتيش رسمي للمدارس .

وكان الطفل يبدأ تعليمه بدراسة قواعد اللغة الاولية ، والانشاء الادبي البسيط ، وقراءة القصص والمقتطفات من « الادب الجيد » ، جهارا ، ثم حفظها ، مستعملا كتب المنتخبات المعدة خصيصا لهذه الغاية . وكان تعليم الحساب يبدأ متأخرا بالنسبة للعصور الحديثة . واما بالنسبة للكتاب الكلاسيكيين ، فكانت لهوميروس المرتبة الاولى ، باعتباره كاتبا

شاملا يستطيع المتعلم ان يجد في كتاباته وصفا كاملا للانسانية من جميع وجوهها . وكان الطفل يتعلم من هوميروس أساس الخلق ، وأنواع الطبع الانساني ، الى جانب تذوق الادب العظيم . وعليه ، فقد كانت قراءة مؤلفات هوميروس تبدأ في مرحلة مبكرة من المنهاج ، وتستمر دراستها في الصفوف التالية جميعها .

اما ما نسميه اليوم بالدراسة الثانوية ، فقد كانت تبدأ في سن الثانية عشرة . ولم يكن ممكنا ، من الناحية المادية ، ان يصل جميع الاطفال الى هذه المرحلة ، لانه كان على بعضهم ان يعملوا قبل بلوغهم هذه السن لمساعدة اسرهم على المعيشة .

وعند وصول الطفل هذه السن ، يكون قد اصبح قادرا على القراءة والكتابة بسهولة ، كما يكون قد صار مستعدا لان يبدأ المرحلة الجدية في تعليمه ، وهي الدراسة المستفيضة للكتاب الكلاسيكيين . وكان كتاب الشعر والنثر يتخذون أمثلة يحتذي الطفل اسلوبهم ، ويلقي عن ظهر قلب ، اما قطعا يحفظها لهم ، او قطعا يكتبها هو باسلوبهم نفسه . وكان التلميذ يحفظ قطعا طويلة عن ظهر قلب لتساعده على تكوين تعبيرات جيدة وأسلوب جميل دون صعوبة ، عندما يبدأ بالكتابة بنفسه . وكانت الذاكرة تعتبر ، في مراحل التعليم جميعها ، وسيلة لتخزين المعرفة ، تفوق بجدواها أسلوب تدوين الملاحظات او وضعها في كتب .

وكانوا يدرسون كل تفاصيل الفن الأدبي . وكان المتكلم يتلقى تدريبا دقيقا حسب القواعد المرعية في الصوت ، والاشارة ، وطريقة الوقوف . فقد كان نجاح الخطيب في الحياة يعتمد على مظهره وطريقة ادائه بمثل ما يعتمد على فحوى كلامه .

وكان الطفل ، اثناء دراسته للكتاب ، يدرس مبادىء النقد الادبي ، وفقه اللغة العلمي ، وقواعدها . وبهذا ، كان الطفل يتدرب على تحليل النصوص وشرحها من جوانبها الادبية . والخلقية ، والفنية . وكان المحتوى الخلقي ، من بين هذه الجوانب ، يعتبر الغاية الرئيسية في الدراسة ، لان هدف انواع التعليم جميعها تكوين الخلق والاعداد للحياة .

وكان منهاج الدراسة في اغلبه ادبيا ، ولكنه كان يحتوي ايضا على الرياضيات ، والموسيقى ، وعلم الفلك . ولم تكن تدرس الرياضيات لفائدتها العملية بقدر ما كانت تعطى للتلاميذ من اجل تنظيم افكارهم ، وشحذ اذهانهم ، وتهيئتها لدراسة الفلسفة التي كانت تعتبر اسمى موضوعات الدراسة .

وكان التلميذ يواصل هذا النوع من الدراسة حتى بلوغه الخامسة عشرة او حتى العشرين ، تبعا لظروفه الخاصة . وكانت نهاية هذه المرحلة نقطة تحول قاطعة في حياة التلاميذ العلمية . فمنهم من كانت دراسته تنتهي عند هذا الحد ،

بالطبع . اما الذين كانت ظروفهم تمكنهم من اتمام دراستهم ، فكانوا يبدأون دراساتهم العليا التي هـي بمثابة المرحلـة الجامعية .

وكانت هذه الدراسة العليا تستمر لسنين عديدة ، يعتمد طولها على امكانات الطالب المادية ، وعلى ميوله وخطتـه للمستقبل . وكان بعضهم يستمر في هذه المرحلة لمدة ثماني سنوات .

وفي الحالات جميعها تقريبا ، كان الطالب ، عند وصوله مرحلة الدراسة العليا ، يسافـر الى الخارج ، الـى اثينه مثلا او الى القسطنطينية ، طلبا للتتلمذ على استاذ معين ذي شهرة تروق له . ومع ان العلاقة الشخصية بين الاستاذ والتلميذ كانت امرا هاما في مراحل الدراسة القديمة جميعها، الا ان هذه العلاقة كانت تأخذ طابعا ذا اهمية حاسمة ، اذ ان الثقافة الكلاسيكية كانت ثقافة اشخاص . فقد كان العلم ، والذوق ، والآداب ، والاخلاق ، تنقل عن طريق العلاقـة الشخصية بين الاستاذ والتلميذ ، وكان هناك شعور قوي باهمية نقل التراث العظيم واستمراره في المراحل العليا من العملية الدراسية . وكان رجال الادب البارزون جميعهـم وغيرهم ممن احرزوا تفوقا فكريا يعودون بذاكرتهم الى استاذ محبوب كان له التأثير الفعال في تكوين حياتهم العملية .

وكان الطالب يبدأ دراسة المسائل الدقيقة في البلاغة ،

والانشاء ، وتاريخ الادب ، والنقد ، وتاريخ الفلسفة ، في كنف الاستاذ المختار ، او ، في بعض الحالات ، تحت رعاية مجموعة متعاقبة من الاساتذة ، حيث ان بعض الطلبة كانوا يقصدون عدة اساتذة في مكان واحد ، كأثينه مثلا ، او يسافرون من مدينة الى مدينة . وكان الطلبة يدرسون فن الانشاء والالقاء عن طريق دراسة انواع مختلفة من الاشكال الادبية ، كالخطب الخيالية التي تعزى الى شخصيات التاريخ العظيمة ، والمناظرات ، واوصاف الاعمال الفنية النادرة ، والخطب والمقالات الادبية التي تتناول موضوعات تستثير اهتماما عاما ، وسرد بعض احداث الاساطير . وكان التدريب العلمي يرمي الى تطوير الذوق الادبي ، والمهارة ، والاصالة . وكان الشبان الذين ينوون التخصص في القانون او الدخول في الحياة العامة مستعدين للكلام امام جماعات من شيوخهم سبقوهم في طريق الدراسة نفسها . اما بالنسبة للمحامي ، فقد كان للأسلوب الادبي، وطريقة الالقاء ، والانطباع الشخصي الذي يتركه المتكلم ، الأهمية نفسها التي للمعرفة الفعلية في القانون ، ولم يكن القانون يدرس الا بعد أن يتدرب الطالب في فن مخاطبة الجماهير .

وكان على الطالب ، بعد انهاء دراسته ، ان يختار مهنته في الحياة . وفي كثير من الاحيان كان يتخذ قراره بدافع من المصالح العائلية . فاذا قرر تدريس البلاغة والادب ، كان يعتبر عند ذلك الحد مؤهلا تأهيلا كافيا ، وكان بامكانه ان

يعلن عن نفسه معلما حيثما وجد الفرصة اللائمة .

اما بالنسبة للطموحين من الشباب من ذوي القدرة اللازمة، وكذلك ممن تتوافر لهم علاقات عائلية مفيدة ، فقد كان القانون اكثر المهن تبشيرا بالنجاح . وكان بامكان المحامي الذي يعمل لحسابه الخاص ان يجمع مبالغ كبيرة من المال وان يرتفع الى مركز اجتماعي مرموق .

ولما كانت دراسة القانون أمرا ذا اهمية حيوية بالنسبة للحكومة ، فانه لم يكن يسمح بتدريسه في المعاهد الخاصة ، كما كان الحال في السابق ، بل كان على طالب الحقوق ان يلتحق بالمدارس الحكومية في القسطنطينية وبيريتوس (بيروت) . وكانت مدة الدراسة خمس سنوات . وكان الاستاذ يقرأ النصوص والتعليقات الكلاسيكية الخاصة بمشاهير المحامين في الامبراطورية القديمة ويشرحها. وعليه ، فقد كان الطالب يدرس « مجموعة القوانين » Institutes لجايوس و « مجموعة القوانين » Institutes لأولبيان في السنة الاولى ، ويدرس كتابات اخرى لاولبيان في السنة الثانية ، ثم ينتقل الى كتابات بابينيان في السنة الثالثة ، فكتابات باولس في السنة الرابعة . اما السنة الخامسة فكانت لدراسة الدساتير او القرارات الامبراطورية التي جمعت في نهاية القرن الثالث .

وكان الطالب يستعمل مجموعتين من القوانين ، وهما

المجموعة الغريغورية والمجموعة الهيرموجينية ، اللتان كانتا قد صنفتا بالمبادرة الشخصية . ولم تصدر الحكومة مجموعة شرائع رسمية الا بعد خمسين سنة ، في عهد ثيودوسيوس الأصغر .

وكان معظم الطلبة في الاجزاء الشرقية من الامبراطورية يتكلمون اليونانية ، ولكن لغة التدريس في كليات الحقوق كانت اللاتينية ، وهي لغة القوانين نفسها ، مع انه كانت هناك محاولات لادخال اللغة اليونانية ابان حكم ثيودوسيوس الكبير . وقد حزن ليبانيوس وغيره من الاساتذة المحافظين في انطاكيه لان شباب المدينة كانوا يصرفون الوقت في دراسة اللاتينية وفن الاختزال — وهي ميزة نافعة في دراسة القانون — بدلا من التفرغ ، حسب رأي اساتذتهم ، للدراسات الادبية التقليدية .

وكانت دراسة القانون ضرورية لاي شخص يرغب في الانخراط في سلك الخدمة المدنية الامبراطوري . وكان هذا السلك يروق للكثيرين ، ليس فقط للمركز الاجتماعي المرموق الذي كان يضفيه على صاحبه ، ولكن ايضا لانه كان ، في درجاته العليا ، طريقا للثراء ، الى جانب انه كان لاصحاب الوظائف المدنية الحق في السيطرة على التعيينات السياسية . ولكن لم يكن من السهل دائما العثور على مراكز شاغرة ، وكان على الكثيرين من طالبي الوظائف المؤهلين ان ينتظروا بعض

الوقت قبل ان يحصلوا على وظيفة . وكان دخل الموظف الحكومي يعتمد على راتبه ، من ناحية ، وعلى الرسوم التي كان يسمح له بتحصيلها ، حسب العادة ، من المواطنين الذين كان يتصل بهم بحكم عمله ، من ناحية اخرى . ولما كانت تلك الرسوم من اوجه العمل المغرية ، فقد كانت المنافسة على الوظائف شديدة ، وكانت الحكومة مجبرة على تحديد الوظائف المختلفة في الخدمة المدنية على اساس تنظيمي ، خوفا من ان تزيد عن العدد المناسب . وبذلك كان من الافضل لطالب احدى هذه الوظائف من الشباب ان تكون له وساطة شخصية تؤمن له بدء الصعود على ذلك السلم الطبقي .

ولم يتمتع الشباب الذين كانوا يرغبون في الالتحاق بالمهن الفنية ، كالطب ، والهندسة المعمارية ، والهندسة المدنية ، بتسهيلات لتحصيل العلم كتلك التي كان يتمتع بها طالب البلاغة او القانون . ومع ان الالمام بالرياضيات والعلوم الطبيعية ، بالمستوى المحدود الذي كانت قد وصلت اليه آنذاك ، كان يعتبر دائما جزءا هاما من منهاج التعليم الحر ، الا ان النظرة التقليدية التي كانت ما تزال سائدة — بشكل لا يتفق الآن مع زمانه الصحيح — هي ان السيد لا يلوث يديه باتباعه مهنة فنية . ولذا ، فقد كانت العلوم تقسم الى علوم « نظرية » وعلوم « عملية » في موضوعات كالطب والهندسة المعمارية ؛ اما السيد فكان يتعلم العلوم النظرية ، وكانت العلوم العملية تترك لمن دونه علما . ولكن هذا النوع من العمل

كان فيه اغراء شديد لبعض الناس ، بحيث ان بعض الشبان من العائلات المرموقة اصبحوا اطباء ومهندسين معماريين ، على الرغم من ان القرن الرابع شهد اوقاتا لم يتوفر فيها العدد الكافي من المتقدمين لتأمين المختصين المطلوبين . وكان الطلاب في بعض الاحيان يواجهون صعوبة في الحصول على التدريب الضروري لمثل هاتين المهنتين ، وكانت هناك فروق في نوعية التدريب الذي يحصلون عليه ، اذ انه لم يكن هناك اساتذة رسميون معترف بهم لتدريس هذه الموضوعات ، وكان على الطالب ان يجد من بين مزاولي هاتين المهنتين من يرغب في قبول المتدربين . وكان يمكن للمتدرب ، بعد فترة من الزمن ، ان يصبح مساعدا اصيلا ، وكان يمكن كذلك للاستاذ المجيد المهتم بطلبته ان يصنع الكثير في حقل تطوير مهنته ؛ ولكن لم تكن هناك اجازات رسمية او امتحانات حكومية ، ولم يكن من الغريب ان يزاول المهنة اشخاص حصلوا على قسط ضئيل جداً من التدريب .

وكان الجيش والكنيسة يجتذبان دائما عددا من الراغبين في الخدمة فيهما . فكان الشبان الراغبون في دخول الجيش، ممن يثبتون مقدرة على ان يصبحوا ضباطا ، يتلقون تدريبهم كطلاب عسكريين في القسطنطينية ، اذا اسعفهم الحظ ، ومن ثم يبدأون في الخدمة كضباط صغار في سن مبكرة . اما التدريب الكهنوتي في الكنيسة فكان يشبه في طريقته التدريب للمهن الفنية ، أي ان الطالب كان يدرس على كاهن

او اسقف بشكل سيرد وصفه في فصل لاحق من هـــذا الكتاب .

وسواء أعمل الشاب بمهنة فنية ، او كرس جهده للعناية بممتلكات العائلة ، كما كانت الحال في العائلات المرموقة ، فقد كان يواجه مسؤوليات مختلفة اصبحت جزءا من متطلبات المواطنة في مدينة انطاكيه في زمن ثيودوسيوس الكبير .

وفي زمن ثيودوسيوس ، كانت عملية الادارة البلديـــة تعكس تطورا نتج عن ظروف دعت الحكومة الامبراطوريـــة المركزية الى اناطة عملية صيانة الخدمات البلدية العامة وجمع الضرائب الامبراطورية بالقضاة المحليين ومجالس المدن (التي كان يطلق عليها الاسم التقليدي : مجالس الشيوخ) . وفي مدينة كانطاكيه ، كان يمثل الحكومـــة الامبراطورية فـــي القسطنطينية عدد من المسؤولين ، مهمتهم ادارة الولايات ، والاشراف التشريعي الاعلى ، والوحدات العسكرية . وكـــان جميع هؤلاء المسؤولين اعضاء في نظام الخدمة المدنية المنظم تنظيما دقيقا والخاضع لاشراف قوي . ومن بين هؤلاء ، كان كونت الشرق ، وسيد الجنود ، وحاكم سوريه ، ولكل جهازه المناسب . اما الموظفون المسؤولون عن الحياة اليومية في المدينة ، بمظاهرها المختلفة — من صيانة الطرق والمجاري ، وتسخين الحمامات العامة ، ووسائل الترفيه العامة ، بما فيها الالعاب الاولمبية ، الى مراقبة الاسواق العامة وتنظيمها

لتأمين الموازين العادلة والمستويات التجارية الاخرى، والتفتيش على المياه العامة وتأمين تزويد المدينة بها (فمثلا ، كـان المواطنون يمنعون من غسل ثيابهم في النافورات العامة التي كان يفترض انها تزود المدينة بمياه الشرب) ، الى تزويـد المدينة بالانارة في الشوارع ، التي كان يؤمنهـا اصحـاب الحوانيت الملزمين بوضع المصابيح امام ابواب متاجرهم في الليل ، وتزويد المدينة بالخبز ، وهو الطعام الرئيسي الذي كان عليهم تأمينه باسعار محـددة ــ اما هـؤلاء الموظفـــون المسؤولون عن جميع هذه الخدمات ، فكانوا ينتمون الى طبقة الشيوخ المحلية . وكان يفرض على اعضاء هذه الطبقة ، اذا كانوا من ابناء الاسر المرموقة واصحاب المتلكات ذات القيمة المعينة ، ان يسهموا بجهدهم الشخصي واموالهم الخاصة في خدمة هذه الاعمال الرسمية وصيانتها .

وكان اعضاء النظام المشيخي هذا ، بالاضافة الى هـذه المهمات ، يجبرون ، لمـا يمتلكـون ولمركـزهم المـوروث ، علـى خدمة الحكومـة الامبراطوريـة فـي مجالات محلية معينة لها طابـع حيوي ، كجمـع الضرائب الامبراطورية ، والحصول على الدواب والماشية من الملاكين الخصوصيـين لاستعمالهـا فـي الجيش وفـي الخدمـة البريديـة الامبراطورية ، ثم الحصول على الاطعمة والمعدات للجيش ، وجمع المجندين للجيش ، وتأمين عمل المزارعين وسواهم في بناء الطرق وغيرها من الاشغال العامـة كصيانـة الجسور وتحصين اسوار انطاكيه .

ومع تطور الدولة الاستبدادية ، اصبح الاعتقاد سائدا بان هذه كانت الطريقة الوحيدة لضمان استمرار العمل في البلديات ، ولكن هذا النظام كان يفرض حتما صعوبات جمة كما كان يشجع على سوء التصرف . فقد كان جمع الضرائب العادية ، مثلا ، امرا صعبا بحد ذاته ، ولكن في حالة فرض ضرائب غير عادية ، كما كان يحدث من وقت الى آخر ، اما لتوفير المال لبعض الاغراض الخاصة ، او لتغطية عجز غير طبيعي ، فقد كان الشيخ المسؤول عن جمع هذه الضرائب غير العادية يواجه ، ليس فقط صعوبة شخصية ، او حتى خطرا شخصيا ، من جراء عملية استخلاص النقود من الناس ، ولكن كذلك يواجه امكان اعتباره مسؤولا هو شخصيا عن النقود ، في حالة عدم تمكنه من جمع المبلغ المفروض عليه . فقد كان هم الحكومة ، من استعمالها لهذه الطريقة في جمع الضرائب ، ان تحصل على النقود باي اسلوب ومن اي جهة ممكنة .

وكان من اهم الواجبات واصعبها المفروضة على هؤلاء الشيوخ تأمين الخيول لسباق العربات والجياد ، حيث ان السباق كان من اكثر وسائل التسلية العامة شيوعا في انطاكيه ، ثم تأمين حيوانات ضارية من اجل استعمالها في قتال الحيوانات والصيد في المدرج الروماني على سفح الجبل، وكانت هذه ايضا تسلية محببة الى النفوس ، بعد ان حلت محل المصارعة التي اندثرت عندما اصبحت المسيحية دينا

للدولة . وكان الجمهور في انطاكيه ذا احساس مرهف وذوق نام لمثل هذه المشاهد ، وكان يصر على ان تستعمل فيها احسن الخيول والحيوانات الضارية . ولم تكن هذه الخيول والحيوانات موجودة بوفرتها السابقة ، مما جعله من الصعب تأمين متطلبات مدينة كبرى متمسكة بوسائل لهوها كأنطاكيه . ولم تكن انطاكيه هي المدينة الوحيدة المتعطشة لمثل هذه التسلية ؛ فعندما خلت الجبال الى الشرق والشمال من انطاكيه من مواردها الحيوانية ، اصبح من الضروري ، في بعض الحالات ، ان يذهب المزودون بعيدا طلبا للاسود والدببة وما كان اصغر منها من الحيوانات . ولم يكن من الغريب في النهاية ان تجلب الخيول من اسبانيه . وكان على الشيوخ ، في بعض الاحيان ، ان يجوبوا البلاد – على نفقتهم الخاصة بالطبع – سعيا وراء الحيوانات . اما المواطن الذي كان يقدم هذه الانواع من التسلية للجمهور ، فكان يحوطه مديح الجمهور من كل جانب ، الا ان هذه كانت من اكثر انواع الخدمات العامة كلفة .

ولكن المجازفة الكبرى في هذا النظام كانت تكمن في تأثيره على الممتلكات العائلية لبعض الشيوخ ، الذين لم تكن امكاناتهم تسمح لهم في الحقيقة بتغطية المصروفات المترتبة على نوع الخدمة التي كانوا يجبرون على تأديتها . وفي الاصل ، كانت ضرورة القيام بهذه الخدمات تعتبر فرصة لكي يظهر عن طريقها المواطنون المحبون للخدمة العامة كرمهم ، وتعلقهم

باخوتهم من المواطنين ، وبشرف بلديتهم . وكانت مكافأتهم تلك المنزلة العالية في نظر الجمهور ، وذلك الجاه الشخصي . وفي بعض الاحيان ، كان مواطنو المدينة يعبرون عن امتنانهم لهم عن طريق اقامة التماثيل او التماثيل النصفية لاشخاصهم، مذيلة بنقوش تمجد أعمالهم . ولكن هذا النظام ادى الى نتيجته المحتومة . فقد استطاع بعض المواطنين ، الذين كان نسبهم وممتلكاتهم تؤهلهم للقيام بمثل هذه الخدمات العامة ، ان يفلتوا بشتى الطرق ، بما فيها النفوذ الشخصي والرشوة ، من تحمل مسؤولياتهم او انفاق اموالهم على مثل هذه الامور. وقد منحت بعض الفئات العاملة ، امثال الموظفين في الخدمة المدنية الامبراطورية ، والكهنة المسيحيين ، والمعلمين ، اعفاءات من الضرائب والخدمات العامة . وكانت الاعفاءات تمنح ايضا تشجيعا للانخراط في مهنة معينة ، كالطب والهندسة المعمارية والهندسة المدنية ، التي كانت تعاني من نقص في القوى العاملة . وكان بعض الشيوخ يفرون من المدينة ، حين يجدون ان الظروف اصبحت لا تطاق .

وكانت نتيجة الاعفاءات والتهرب والفرار ان زاد العبء على هؤلاء الشيوخ الذين لم يتمكنوا من التخلص من الواجبات التي فرضتها عليهم منزلتهم ، وكان من السهل ان يجد احد الشيوخ نفسه فقيرا نتيجة للمتطلبات المفروضة عليه . وبقي بعض الشيوخ دون زواج لانهم ارادوا ان يجنبوا ابناءهم الصعوبات والمشكلات التي كانت من نصيبهم هم .

وفي الوقت نفسه ، تمكن بعض المواطنين من خارج طبقة الشيوخ ، الذين جمعوا ثروات كبيرة اما عن طريق التجارة او ملكية الارض ، من ان يفلتوا ، بوسائل غير مشروعة ، من الانضمام الى طبقة الشيوخ التي كانت ثرواتهم الجديدة تؤهلهم للاندراج فيها . وكان هؤلاء يذكرون جيدا ان الامبراطور يوليان ، حين وجد الحكم البلدي في انطاكيه في حالة تفكك وضعف ، قام بتوسيع مجلس الشيوخ بالقوة عن طريق اجبار امثال هؤلاء من المواطنين على الخدمة فيه . ولكن اصلاحات كهذه لم تدم طويلا في بعض الاحيان .

وكان تأمين الطعام للمدينة من اصعب المشكلات واهمها . وكانت انطاكيه اوفر حظا في هذا المضمار من العديد من المدن الاخرى ، وذلك لخصوبة المنطقة المحيطة بها ووفرة مياهها . ففي الظروف العادية ، كانت هذه المنطقة تنتج محصولات كافية ومنوعة من الحبوب (وبشكل خاص الحنطة والشعير) ، والفاكهة (التي كانت تؤكل طازجة ويحفظ الباقي بتجفيفه في الشمس) ، ثم الخضار . وكانت انطاكيه مشهورة بوفرة الاطعمة المستخرجة من مياه البحر الابيض المتوسط ، ونهر العاصي ، وبحيرة انطاكيه . وقد كتب ليبانيوس في مديحه مفتخرا بحسن الضيافة التي كانت تقدمها انطاكيه ، قال :

كان المسافرون الذين يقتربون من انطاكيه بعد غياب الشمس ، في المرحلة الاخيرة من رحلتهم ، يحشون

السير الى المدينة بمرح وتطلع ، لانهم كانوا يعلمون انهم يستطيعون ان يتمتعوا فيها حتى اثناء الليل . فكان في وسعهم ان يستحموا ويتناولوا الطعام على مستوى يفوق ما يتطلع اليه رجال دعوا الى مآدب النصر بعد الالعاب العامة ، تماما كما لو انهم قد اوفدوا الطباخين امامهم ليهيئوا لهم الطعام . وكان كل شيء متوافرا ، ولم يكن من الضروري ان يسارع الناس في طلب السمك ، اذ ان كل ما كان عليهم ان يفعلوه هو ان ينصتوا الى اصوات الباعة في الشوارع . والحقيقة ، اننا نحن الذين نعيش على اليابسة نتمتع بالسمك اكثر مما يتمتع به من يتقلبون على مياه المحيط ؛ ومع اننا مفصولون عن البحر ، فان صيادي الاسماك يصطادون لنا في شباكهم مخلوقات البحر ، وتستقر في هذه الشباك اعداد كبيرة من جميع انواع السمك كل يوم . ومن الحسنات الاخرى هنا ، ان المحتاجين لا يفتقرون الى هذا النوع من الطعام . فان قوة الحظ ، التي تسبغ على كل رجل ما يناسبه ، قد اعطت الاغنياء محصولات البحر ، واعطت غيرهم محصولات البحيرة ، كما اعطت النهر للجميع على السواء ، ذلك النهر الذي يغذي ، من اجل الاغنياء ، السمك الذي يأتي اليه من البحر ، ويطعم ، من اجل الآخرين ، الانواع الاخرى من السمك، وجميعها بوفرة عميمة .

كانت انطاكيه في الظروف الطبيعية ، اذن ، غنية بمصادر الطعام . ولكن كانت هناك اخطار كبرى تتعرض لها بشكل خاص وسائل الزراعة القديمة والاقتصاد القائم آنذاك . فكانت المحصولات عرضة للتلف او الابادة نتيجة لتعرضها للحشرات او الامراض النباتية ، التي لم يكن يعرف لها علاج . وكانت هناك موجات دورية من الجراد ، وكان الطاعون يتفشى بين الماشية من وقت الى آخر ، ولم يكن لهذا اي علاج ابضا . ولم يكن للمزارعين وملاكي الاراضي الا ان يتقبلوا هـــذه المخاطر كجزء من طبيعة النظام القائم .

ولكن الخطر الاكبر والاعم كان مرده ، في مثل مناخ سوريه، الى تقلبات الطقس . وكان نجاح المحصولات ، من فصل الى فصل ، يعتمد على تأمين المياه بشكل منتظم ، وهذا امر لم تشأ الطبيعة ان تؤمنه . وكان الصيف حارا دون مطر ، ولم يكن ينمو فيه شيء الا في البساتين التي كان من الممكـــن سقايتها بجهد بشري من الخزانات او الينابيع . أما الزراعة المنتظمة ، فكانت تتم في فصل الشتاء الماطر . وكان يحصد في الربيع ما كان قد بذر في الخريف . وهـــذا يعنـــي ان محصول الربيع بأكمله كان يضيع اذا اجتاحت المنطقة فترة جفاف في الشتاء .

وكان هذا يحدث بالفعل وبكثرة ، وكانت نتيجته مصاعب مباشرة ومتزايدة بالنسبة للطبقات الدنيا . اما المزارعون

والملاكون الاثرياء ، فكانوا يخزنون الطعام ويسدون حاجاتهم بسهولة ، وكانوا ، بطبيعة الحال ، يمسكون ما اختزنـوه ويرفضون بيعه ، الا عند ارتفاع الاسعار ، ويشاركهم في هذه العملية اصحاب المتاجر . وكانت الحكومـة تحاول ، بقـدر استطاعتها ، ان تستورد الطعام ، ولكن النقل البري كان شاقا وبطيئا بحيث اصبحت الاسعار الباهظة عائقا دون ذلك . ولم يكن من الممكن دائما ان تؤمن الحكومة الكفاية من الطعام من البلدان الغنية بالحبوب كمصر وشمال افريقيه ، لان محصولات هذه البلدان بأكملها كانت تستهلكها المناطق التي كانت تتزود منها عادة ، وخصوصا المدن الكبيرة ، مثل رومه والقسطنطينية اللتين كانتا عاجزتين تماما عن سد حاجتهما من الطعام .

وهذا يعني ، بالطبع ، ان قلة الطعام الدائم كانت ترفع من الاسعار . ومع مرور الوقت ، كانت تتأزم الامور ، خصوصا لدى الفقراء ، الى درجة تؤدي الى اضطرابات دامية . وكان المزارعون أنفسهم ، في المجاعات الخطيرة ، يلجأون الى المدينة طلبا للطعام . واذا حدث ان كانت هناك كمية من الحنطة والشعير التي تمتلكها الدولة (كان الفقراء يأكلون خبز الشعير والاغنياء خبز الحنطة) ، او كان بالامكـان استـيراد بعض الحبوب ، فانه كان يتم تأمين كميات محدودة من الخبز ، ولكن عملية الخبز والتوزيع كانت تتم تحت اشد انـواع الاشراف . وكان الحراس يتمركزون عند بوابات المدينة لكي يمنعوا المزارعين والمسافرين من الخروج بما يزيد عن نصيبهم

من الخبز . وعندما كانت تقع مثل هذه الازمات، كان الخبازون وأصحاب الافران يحاولون الفرار من المدينة ؛ اعلمهم ان قسطا من اللوم كان سيقع عليهم ، اما من المواطنين، او من الحكومة ، او من كليهما .

وكان بعض حكام سوريه ، في مثل هذه الازمات ، يصدرون اوامرهم بالسيطرة على الاسعار . وكانت النتيجة اختفاء جميع انواع الطعام من الاسواق حالا . وكان مالكو الاراضي واصحاب المتاجر يعرفون ان تلك الاوامر لن تنفذ ، وانهم اذا امسكوا ما اختزنوه لفترة كافية ، فانهم سيبيعونه بأسعار مرتفعة . اما بعض التجار ، فكانوا يخسرون تجارتهم في الحالات التي تنفذ فيها السيطرة على الاسعار . وكانت السلطات البلدية والشيوخ ، بدلا من ان يعتبروا تأمين الاطعمة المتوفرة للناس مسؤولية تقع على عاتقهم ، يدخلون في كثير من الاحيان سوق المتاجرة بها . وكانوا يؤمنون بالدرجة الاولى مصالحهم ومصالح اصدقائهم ، اذا كانوا من المالكين او التجار. وكان الكثيرون من سكان انطاكيه في عهد ثيودوسيوس يذكرون المجاعة الكبرى التي نزلت بهم في عهد الامبراطور يوليان قبل عشرين سنة . وكانت هذه المجاعة ، كما تبدو لمن يعود اليها بذاكرته ، أحد العوامل التي ادت الى اخفاق خطة يوليان الدينية والسياسية برمتها ، اذ ان محاولاته لمواجهة النقص في الغذاء ــ الذي نشأ عن جفاف افسد جميع المزروعات ــ قلبت ضده جميع الطبقات في انطاكيه .

الفقيرة منها والغنية . وقد احتج مالكو الاراضي والشيوخ ضد السيطرة على الاسعار ، لان المجاعات كانت ، على حد قولهم ، جزءا من نظام الكون الطبيعي ، على الناس ان يتحملوها ؛ وكانوا يشعرون ان الاسعار تنظم نفسها بنفسها ، وستصير الى الهبوط في النهاية . وكان هذا بالفعل هو الرد الطبيعي عند الطبقة الحاكمة في تلك الايام . وقد كان بالامكان ، كلما سبب الجفاف مجاعة ، ان يتنبه الناس مسبقا الى انهم سيواجهون نقصا في المواد الغذائية ، فقد كان معنى قلة المطر في فصل الزراعة واضحا ؛ ولكننا لا نسمع عن اي استعداد رسمي مسبق لمواجهة مجاعة مقبلة .

هذه كانت بعضا من المشكلات الداخلية التي واجهت سكان انطاكيه . وقد نتجت مشكلات اخرى من جراء العلاقات المحلية ببعض المسؤولين الامبراطوريين الذين أتت بهم اعمالهم الى المدينة . فقد كانت انطاكيه تتمتع بالفعل بميزات تجارية واجتماعية غير عادية ، لكونها عاصمة الولاية السورية ، والمركز الاداري لاسقفية الشرق ، فضلا عن كونها مقر قيادة الجيوش المناطة بها عملية الدفاع عن حدود بلاد ما بين النهرين . ولكن هذه الميزات كانت تندثر احيانا بسبب المتاعب التي كان المواطنون يواجهونها من جراء تعاملهم مع المسؤولين من ممثلي الحكومة المركزية .

ولم يكن هناك مفر من بعض هذه المتاعب ، على الاقل ،

لان الحكام ، وحتى من كانوا في منصب كونت الشرق ، في بعض الاحيان ، كانوا يعينون ، ليس لجدارة او مقدرة ، وانما لانهم كانوا يتمتعون بحظوة عند مسؤول كبير في الادارة الامبراطورية . وعند وصولهم الى انطاكيه ، كان بعضهم يذيع علنا ان همه الرئيسي اثناء وجوده في الوظيفة جمع المال بأي وسيلة تمكنه من ذلك . وفي الحقيقة ، فقد كان الربح الشخصي امرا معترفا به كمصدر ثانوي لدخل اداريي الولايات الذين كان يتوقع منهم ان يستفيدوا من مراكزهم ليضيفوا الى راتبهم دخلا جانبيا . ومع ان بعض الاداريين العاطفين كان يرد الجميل الى مدينته بعض الشيء ، عن طريق تقديم بناية عامة الى المدينة ، كرواق مثلا، لذكرى اقامته فيها ، الا ان هذا لم يخفف من المرارة التي كان يشعر بها المواطنون تجاه هذا السلب القانوني .

وبالطبع ، فقد كانت هناك فئات من الناس في انطاكيه مستعدة لمساعدة الحاكم في اي طريقة يشاء ، آملين بذلك ان يجمعوا بعض المال لانفسهم . وكان معنى ذلك انه في حالة وصول حاكم يميل الى معاشرة المبذرين المنحلين من الناس ، فأنه لا يمر وقت طويل حتى يتجمع حوله نفر من الناس ، يستطيعون ، عن طريق تقديم وسائل الترفيه والتسلية له ، ان يلعبوا دورا رئيسيا في تشكيل ادارته .

وكانت هناك ناحية اخرى يؤثر فيها خلق الحاكم الشخصي

تأثيرا حيويا على اهل انطاكيه . فقد كان الحاكم يتولى ، بالاضافة الى كونه مسؤولا عن ادارة الولاية ، مهمة القضاء في انواع معينة من القضايا المتعلقة بشؤون الولاية ، بما فيها مدينة انطاكيه ، وفي قضايا استئناف الاحكام الصادرة عن القضاة العاملين تحت امرته في انطاكيه وغيرها من انحاء الولاية . وكان مدى تدريب القضاة القانوني ومدى خبرتهم امرين يتفاوتان كثيرا في تلك الايام . وزيادة على ذلك ، كان الحاكم ، بصفته قاضيا ، يتمتع بسيطرة كاملة على سير القضايا والمرافعات . في تلك الايام ، وفي الوقت الذي كان ضرب الشاهد اثناء استجوابه للتأكد من صحة افادته امرا عاديا ، وكان تعذيب المتهم يعتبر ضروريا لاجباره على قول الحقيقة ، كان من الممكن لاي حاكم من حكام سوريه . فيه مسحة من القسوة ، ان يسبب تعاسة كبيرة لسكان المدينة . وكان بعض الحكام من القسوة بحيث قدمت الشكاوى ضدهم الى الامبراطور ، الذي عمد الى اقالتهم من وظائفهم . وبالطبع، لم يكن جميع المسؤولين قساة جشعين ، فقد كان البعض ، على الاقل ، رجالا مستقيمين وخيرين ، ونحن نسمع عن اعمالهم الخيرة وهباتهم للمدينة .

لقد كانت انطاكيه مركزا عسكريا هاما منذ ايامها الاولى . ومع ان انطاكيه في عهد ثيودوسيوس لم تعد مقرا لقيادة الجيش ، ومركزا لتجمعاته ، استعدادا للحملات السنوية ضد الفرس ، كما كانت في زمن قسطنطينوس ويوليان ، الا ان

حماية الحدود المتاخمة للفرس ظلت امرا ضروريا لاستقرار الامبراطورية وسلامتها . وكانت هناك معسكرات ومراكز تدريب كثيرة في ضواحي المدينة ، وخصوصا في السهل الممتد خلف نهر العاصي . وكانت المدينة نفسها تعج بالضباط والكتبة التابعين لهيئة اركان القائد المسؤول ، وبالجنود الذين كان يسمح لهم بالقدوم الى المدينة خارج اوقات الوظيفة . وقد اثر وجود هذه الاعداد الكبيرة من الجنود على اقتصاد المدينة تأثيرا واضحا ، وساعد على ابقاء الاسعار مرتفعة . وقد اعطانا ليبانيوس صورة حية لما كانت عليه المدينة اثناء الاستعداد لحملة كبيرة ؛ قال :

عندما اندلعت مع الفرس هذه الحرب الاخيرة التي كانت حكومة الفرس تستعد لها منذ زمن طويل ، وعندما دعت الطوارىء الى القيام باستعدادات مضادة مناسبة لدرء الخطر ، وعندما تعدت الضرورة الاستعدادات ؛ واستدعت ايجاد مكان قادر على استيعاب جميع الاشياء التي تتطلبها الحرب ، كانت ارضنا هذه هي المكان الذي استطاع التغلب على هذه الطوارىء بوفرة مصادره ، فجمع القوات الى صدره ، ليدفع بالجيش باكمله عندما يحين وقت المعركة . فقد انساب الى داخله ، كما تنساب الانهر الى البحر ، جميع الجنود وجميع الرماة والخيالة والخيول ، بما فيها خيول المقاتلين وخيول الاحمال ، وكل جمل وكل فرقة جنود ،

حتى تغطت الارض بالجنود ، من واقفين وجالسين ؛ وتغطت الاسوار بالدروع المعلقة ، وكنت ترى الرماح والخوذ في كل مكان ؛ وقد ضج المكان بضرب المطارق والصراخ والصهيل ، وكانت هناك اعداد كبيرة من الوحدات المتمركزة فيه بحيث ان ضباطها وحدهم كانوا يشكلون اضافة لا يستهان بها الى عدد سكان المدينة . وقد تجمع في المدينة جيش كبير كان يكفي ، لو كان في اي مكان آخر ، لاستهلاك مياه الشرب جميعها . ولكن الجميع كانوا يستقبلون الجنود ببشاشة ، وكأنهم يعتنون باقرباء لهم وفدوا لزيارتهم بعد طول غياب ، وقد استفاد الجميع من الارض ، وكأن كل بيت في المدينة قد تحول الى مخزن مليء بالاطعمة . وبهذه الطريقة ، كان يمكن للرجال ان يطعموا الى درجة الشبع ، حتى بدا وكأن لم يكن وراء العلم المسبق بهذه الطوارىء والخدمات التي كانت توفر عمل أو قصد انساني ، بل كأن الآلهة انفسهم ، بالقوة الخارقة التي يتمتعون بها ، جهزوا كل شيء باسلوب خفي ... ونحن نقدم هذه المدينة كقاعدة للعمليات تضاهي قوة الامبراطورية الحربية ، ونحن لا نثبط شجاعة الامبراطور المقدام بان نبخل عليه بشيء من المساعدة .

كانت انطاكيه في الحقيقة مدينة الضابط العسكري المرموق اميانوس مارسيلينوس ، الذي اصبح مؤرخا ، بعد خدمة

عسكرية حافلة . ونتيجة لحياته العملية ، فقد استقر في رومه في بداية عهد ثيودوسيوس ، وقام بكتابة كتاب في التاريخ باللغة اللاتينية ، ولم يكن استقراره في رومه امرا عاديا بالنسبة لمواطن من انطاكيه .

وقد كان شخص الامبراطور يقف خلف المسؤولين ، والبيروقراطيين ، والجنود ، وخلف الزائرين المرموقين الذين اتت بهم الوظيفة الامبراطورية الى المدينة ، بل خلف جميع اوجه الحياة المختلفة في المدينة . ومع ان رحلة الرسول الخاص ، الذي كان يسافر باقصى سرعة ، ويستفيد من جميع تسهيلات النظام البريدي الامبراطوري المبني على اسلوب استبدال الخيول والعربات بين كل محطة واخرى، مع أن رحلة كهذه كانت تستغرق اسبوعا ، فان شخص الامبراطور كان وجودا حقيقيا جدا ، يفرض نفسه على جميع عمليات الحكومة .

ونظرا للاسلوب الذي تطورت فيه الامبراطورية ، خصوصا في السنوات المائة التي سبقت عهد ثيودوسيوس ، فقد اخذت شخصية الحاكم تلعب دورا متزايد الاهمية في جميع مرافق الحياة في الامبراطورية . وبالطبع لم يكن الامبراطور حاكما مطلقا غير مسؤول عن اعماله ، فقد كان يخضع لبعض الضوابط ، وكان امكان الثورة موجودا ابدا . ولكن ، مع ذلك، كان مقدار القوة والمبادرة الموكولة الى الامبراطور ، بالاضافة

الى هيبة مركزه ونفوذه الشخصي النابع عن اختياره لمستشاريه وكبار موظفيه ، يعني ان وجود الدولة الكلي كان يستمد لونه من شخصية الرجل ــ ومن دينه ايضا ، في ذلك القرن ــ الذي مكنه حظه السعيد من تنصيب نفسه امبراطورا . ومن الناحية النظرية على الاقل ، ظل مبدأ الوراثة معمولا به ، وقد اتخذ النظام الذي كان الامبراطور بموجبه يقوم بتعيين زميل له اصغر منه سنا ويتبناه ليكون خليفة له ، وليحفظ ، من ناحية المبدأ ، القدر الممكن في مثل هذا النظام من الاستقرار والاستمرار .

وكان الامبراطور ، كفرد ، يملك قوة ويحمل مسؤولية يفوضهما الى جميع المسؤولين في الامبراطورية . وكان كل موظف ، من كبار الوزراء في القسطنطينية الى صغار الكتبة في مكتب الضرائب بقرية على حافة الصحراء في مصر ، وكل من يقع بينهم في ذلك السلم الاداري الضخم ، يعتبر ممثلا شخصيا للامبراطور ، يعمل ويتكلم باسمه . وكان القضاة يجلسون تحت صورة للامبراطور ، وينطقون باحكامهم باسمه ، وكأنهم امتداد لقوته الشخصية . وكان القسم يؤدى امام صورة او تمثال للامبراطور .

واذا كان الامبراطور ، بفضل منصبه ، مزودا بمجموعة من الميزات والسلطات الرسمية ، بصفته والدا لشعبه ، فانه لم يكن دائما يتمتع بسيرة شخصية او بشخصية انسانية

تتلاءم مع حاجات منصبه ومسؤولياته . وكان الرجال في انطاكيه الذين بلغوا سني كهولتهم ايام ثيودوسيوس يتذكرون اربعة ، او حتى خمسة ، اباطرة من هذا النوع (اما ليبانيوس الذي ولد سنة ٣١٤ ، فقد كان يتذكر ستة) ، وكان من السهل عليهم ان يتذكروا كيف تأثرت الحياة في المدينة من تعاقب هؤلاء الحكام على الملك ، وكل منهم يختلف عن الآخر . اما حكم ثيودوسيوس ، فكان يبشر ، من بعض النواحي ، بعهد من السلام ، ولكن التاريخ والخبرة الشخصية كانا قد علما المواطن في انطاكيه ان يتقبل ، بقدر الامكان ، كل ما يأتي به اي حكم جديد .

وكان قسطنطينوس (٣٣٧ ـ ٣٦١) آخر من تولى الحكم من ابناء قسطنطين الكبير ، فكان حاكما قادرا ونشيطا ، ونصيرا متحمسا للبدعة الآريوسية ؛ وقد خلفه ابن عمه يوليان ، آخر حاكم من بيت قسطنطين ، وكان قائدا شجاعا واداريا ماهرا ، مسيحيا بالولادة انقلب الى الوثنية ؛ وقد كان، في الوقت نفسه ، اديبا وفيلسوفا ومتصوفا ومؤرخا دينيا عالما . وقد سمح له حكمه الذي دام عشرين شهرا (٣٦١ ـ ٣٦٣) ، قضى أكثرها في انطاكيه ، بان يحاول اعادة الديانة القديمة وابعاد المسيحية . ومع ان هذه المحاولة باءت بالاخفاق ، الا انها اثارت ازمة دعت خليفته جوفيان ، الذي كان من قبل ضابطا مسيحيا في الجيش ، الى اعلان سياسة رسمية قوامها التسامح الديني . وقد تميز حكم جوفيان

الذي لم يدم اكثر من ثمانية شهور (٣٦٣ ــ ٣٦٤) بعقد « صلح غير مشرف » مع الفرس ، ومحاولة غير ناجحة لاحقاق السلام داخل الكنيسة التي كانت لا تزال تئن تحت وطأة الخلاف حول الآريوسية .

وبعد موت جوفيان المفاجيء (نتيجة للتخمة ، او اختناقا من دخان المدافيء ، حسب الروايات المتضاربة) ، تولى الحكم شخصان احدهما فالنتينيان (٣٦٤ ــ ٣٧٥) الذي كان ضابطا عسكريا مسيحيا ، وثانيهما اخوه الاصغر فالنز . وقد كان فالنتينيان ، الذي استولى على النصف الغربي من الامبراطورية ، حليما في معالجة الخلافات الدينية ، ولكنه كان صاحب مزاج ثائر سيطر على جميع اعماله ولوث سمعته كحاكم .

اما فالنز، فكانت انطاكيه تذكره كسلف ثيودوسيوس المباشر (٣٦٤ ــ ٣٧٨) بصفته حاكم النصف الشرقي من الامبراطورية. وكان من حسن حظ ثيودوسيوس ، في انطاكيه على الاقل ، انه خلف رجلا لم يأسف على ذهابه الا القلة القليلة من السكان. وقد كان فالنز قد صرف قسما كبيرا من أيامه في الحكم في مدينة انطاكيه ، ومع انه قدم للمدينة ميدانا جميلا جديدا يعرف باسمه، فقد كانت اللعنات تنصب على ذكراه في المدينة اكثر ما تنصب . وقد غلبت قسوة فالنز الشاذة وانقياده لاصحاب الحظوة من التافهين عنده على حسناته ، من اعتدال

شخصه واهتمامه بسكان الولايات . وقد كان جبانا لا يستحق في الحقيقة ان يكون حاكما ، وبدأ ، بصفته آريوسيا متحمسا، عملية اضطهاد عنيفة ضد المسيحيين الحنفاء . وكان موته في معركة ادرنه المشينة ضد القوط خلاصا لشعب الامبراطورية .

هذه كانت الحالة التي ورثها ثيودوسيوس (٣٧٩ ـ ٣٩٥). وكان ثيودوسيوس اسبانيا وابنا لضابط مرموق في الجيش يتولى حكم بريطانيه . وكان ثيودوسيوس نفسه قد خدم بتفوق كضابط في الجيش ، وكحاكم ولاية ، وكان رجلا يتسم بالجدية والتدين العميق ، قد كرس جميع جهوده في خدمة الامبراطورية والكنيسة. وقد باشر، حال توليه الحكم ، بالعمل لاحلال السلام في الكنيسة واعادة توحيدها ، لان المشكلة كانت سياسية بقدر ما كانت دينية ، بحيث كان الخلاف داخل الكنيسة يهدد استقرار المجتمع بأكمله ومن ثم الدولة . وبادر الامبراطور ، في الوقت نفسه ، الى اتخاذ خطوات جديدة ، اكثر شدة ، لاخماد الوثنية .

وكان من الصعب ، في ذلك القرن المتسم بالتغيير والانتقالية ، ان تؤمن الامبراطورية السلام والازدهار لجميع مواطنيها الوقت كله . وعلى اي حال ، فان السلام والازدهار كادا ان يكونا مفهومين نسبيين . ولكن عهد ثيودوسيوس ، بالمقارنة مع السنوات التي سبقته مباشرة ، ادخل تحسينات

في بعض المجالات . فبينما كانت نكبة ادرنه هي الضربة التي انهت حكم فالنز ؛ كان الجيش يعاد بناؤه . وقد اضفى السلام داخل الكنيسة هدوءا حل محل الخلاف الذي ساد من قبل . ولم تكن هناك حرب مع الفرس ، وقتئذ على الاقل . واما الامبراطور نفسه ، فكان شخصا يحترمه الناس ، ولو ان سياسته لم تكن مرضية للوثنيين . ومع ذلك ، فقد كان ممكنا للوثنيين ، من امثال ثميسطيوس ، ان يتبوأوا مناصب رفيعة في الامبراطورية ، وكان بامكان انطاكيه ان تشعر بأنها ليست مقبلة على عهد من الارهاب كالذي انزله بها فالنز عندما اكتشف ان بعض الاشخاص — ومن بينهم ليبانيوس نفسه — كانوا يحاولون اكتشاف اسم الامبراطور الذي سيخلفه في الحكم بوسائل سحرية .

وبينما كانت التطورات السياسية والدينية في جميع انحاء الامبراطورية ، والمتاعب والمشكلات المحلية في انطاكيه ، تستحوذ على حياة المواطنين الخارجية ، كان هناك تيار اجتماعي وفكري لم يتأثر بالحوادث العامة بشكل حيوي . وكان هذا بالفعل تيارا قديما جدا ، من النوع الذي تصعب ازاحته الا عن طريق ثورة عارمة . ونحن نقصد هنا التراث اليوناني . وكان افلاطون قد عبر في محاورة « فيدروس » Phaedrus عن الشغف اليوناني بالتعامل ما بين الناس ، والانشغال بشؤون الفكر ، في قوله : « كلنا يعلم ان الانسان يحتاج الى التحدث مع غيره ، اما بداعي الصداقة ، او لان في

ذلك لذة لاي سبب آخر » . وكانت هذه احدى ملذات العيش في انطاكيه ، كما اعتبرها ليبانيوس . ويعطينا مديح ليبانيوس صورة حية عن الحياة في انطاكيه اثناء شهور الشتاء ؛ يقول :

يبدو لي ان اكثر الاشياء متعة في المدينة ، واكثرها فائدة ، هي الاجتماعات بالآخرين من الناس ومخالطتهم . واينما كثر هذا ، كانت هناك مدينة حقيقية . وفي الحقيقة ، اذا كان التكلم جيدا ، فالاستماع افضل ، والتحدث افضل من ذلك كله ، حيث يضيف الانسان القدر المناسب الى حظوظ اصدقائه ، مبتهجا معهم في بعض الامور ، ومشاركا حزنهم في غيرها ، وحيث تصيبه المكافاة نفسها منهم . وبالاضافة الى ذلك ، فهناك عشرة آلاف شيء قريبة من بعضها البعض في الوجود . واما الناس في المدن الاخرى الذين ليس عندهم اروقة امام بيوتهم ، فيجبرون على التفرق في الشتاء ؛ ومع انه من الممكن القول انهم يعيشون في مدينة واحدة ، الا انهم بالفعل بعيدون عن بعضهم البعض ُبعد من يعيشون في مدن مختلفة ، وفي الحقيقة ، فهم يتلقون الاخبار عن جيرانهم بمثل ما يتلقونها عمن يعيشون في بلدان اجنبية . وهم يجبرون على البقاء داخل بيوتهم بفعل المطر والبرد والثلج والرياح ، كما لو كانوا سجناء . ولا يخرج للتسوق منهم الا العبيد الذين تعودوا احتمال المصاعب منذ القدم . ولذلك ، فعندما يتحسن الطقس ،

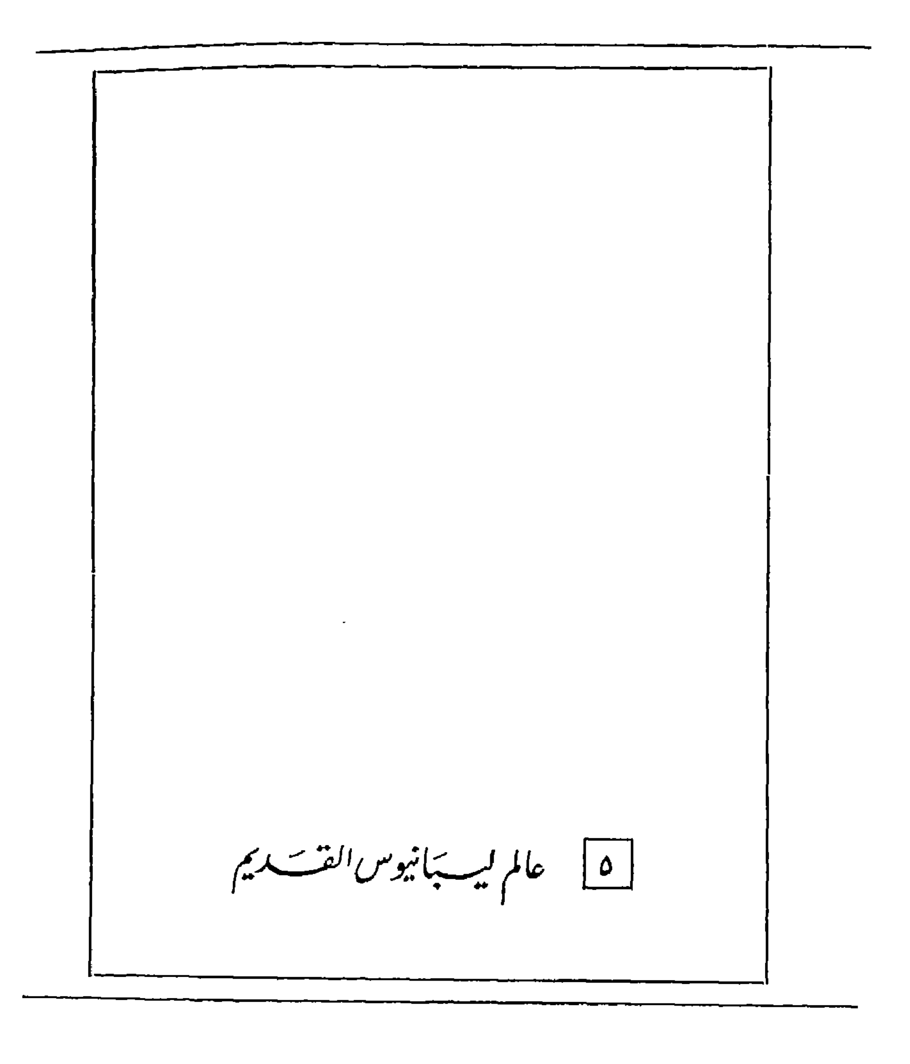
تراهم يحيون بعضهم بعضا ويتعانقون مثل اناس وصلوا سالمين من رحلة طويلة ، ذلك لانهم كانوا قد اجبروا على اهمال امور كثيرة بحق بعضهم البعض يقررها عرف الصداقة ؛ وبدلا من ان يلوموا انفسهم ، تراهم يلومون الاشياء التي منعتهم من متابعة مظاهر صداقتهم . ولكن زفس لا يعاملنا بمثل تلك القسوة ، فانه لا يرسل لنا البَرَد اللاذع ، او الثلج السميك ، او المطر الشديد ، الذي بسببه يتوقف سيل الاجتماعات المنتظم . فبينما تستمد السنة تغيراتها من الفصول ، لا تتأثر الاجتماعات بأي فصل ، وبينما ينقر المطر على السقوف ، تجدنا نسير في اروقتنا على مهل ، ونجلس معا حيثما شئنا . اما الذين يعيشون في الاطراف البعيدة من الشوارع الجانبية ، فتحميهم افاريز تبرز من الجدران على جانبي الشارع وتوصلهم سالمين من المطر الى الاروقة . وبذلك ، فان عادة الاجتماعات تنكمش عند غيرنا من الناس بنسبة المسافة التي تفصل بينهم ، اما عندنا ، فتزداد الصداقة بسبب طبيعة اجتماعاتنا التي لا تنقطع ، وهي تزداد هنا بنسبة تقلصها نفسها في غير هذه المدينة ... فمثلما كانت الرغبة في المعرفة والتشرف بها والحصول عليها اهم ما تصبو اليه أثينه ، فكذلك ليس عندنا ما هو خارج عن نطاق تساؤلنا ، وكل ما في الوجود هو أدنى من حب المعرفة .

وقد تغيرت انطاكيه كثيرا ، مثلها مثل أي مدينة في العالم ، منذ أيام مؤسسها سلوقس ، ولكن تمثال حظ انطاكيه السعيد، الذي اقامه سلوقس بعد انشاء المدينة بمدة قصيرة ، بقي رمزا يحيا في مشاعر كل من عاش في انطاكيه او قام بزيارتها. ولم يزل التمثال الذي شيده النحات يوتيخيدس قائما . تحميه ظلة حجرية مزركشة مرفوعة على اربعة اعمدة ؛ وزيادة على ذلك ، فقد طبع هذا الشكل على قطع العملة المعدنية . وعلى القوارير الزجاجية ، والمصابيح التي كانت تصنع لتباع للزوار . وبقي تمثال حظ انطاكيه رمزا للمدينة اثناء جميع التقلبات التي مرت بها . ومهما كانت تلك التقلبات ، فقد ظلت انطاكيه ، في ذلك الوقت ، احدى مدن العالم العظيمة ، ولم يكن « حظ انطاكيه السعيد » مجرد عبارة تقليدية ، بل ظلت المدينة تجتذب الزائرين . وكما كتب ليبانيوس :

في الحقيقة ، اذا رغب الانسان في السفر الى جميع ارجاء الارض ، لا ليشاهد منظر مدنها ، ولكن ليتعلم طرائق معيشتها ، فان مدينتنا تفي بالغرض وتوفر عليه عناء السفر . فاذا جلس في سوقنا ، يكون قد أخذ فكرة عن المدن جميعها ، اذ انه سيرى اناسا من كل مكان يستطيع ان يتحدث اليهم . اما بالنسبة للذين اختاروا هذه المدينة وفضلوها على مدنهم ، فلا يجدر بأن يؤخذ عليهم انهم يعيشون بعيدا عن بيتهم الاصلي ، ولكن الذين بقوا في اماكنهم يحسدونهم ويلومون انفسهم لانهم لم

يهاجروا . فهذه المدينة توفر الاستمتاع المشترك بجميع الاشياء الطيبة . والاجانب يعتزون بالمدينة التي اختاروها بدلا من مواطنهم الاصلية اعتزازهم بمسقط رأسهم ، بينما لا يظن اخوتهم من المواطنين ان مـــن اللائق أن يمتازوا عنهم ، فالمدينة تحب فضائل الذين يقصدونها حبها لفضائل ابنائها ، وهي بذلك ايضا تحذو حذو اهل أثينه .

لقد كانت انطاكيه لا تزال من عدة وجوه مدينة يونانية ، وفي هذا كان يكمن جانب من جوانب مساهمتها في المستقبل.



٥ عالم ليبانيوس القديم

« الادب وعبادة الآلهة اختان توأمان » .

ليبانيوس

بعد ان يتعرف الزائر على المدينة ، كان نظره يوجه — من بين الشخصيات الرئيسية — الى ليبانيوس ، ذلك الخطيب والمعلم والاديب المشهور . فقد كان ليبانيوس ، عند بداية عهد ثيودوسيوس ، في الخامسة والستين من عمره وفي ذروة طاقاته العظيمة ، وكان يعتبر ، دون شك ، مواطن انطاكيه الاول . وقد نال هذه الحظوة بسبب صفاته الشخصية ، ومزاياه الرفيعة ، وانجازاته الكبيرة . ولكن ليبانيوس كان اكثر من مجرد مواطن انطاكيه الاول ؛ ومع انه لم يكن اي من ليبانيوس نفسه أو الزائر يستطيع ان يقدر ، في ذلك الوقت ، المعنى الكامل لمنزلة ليبانيوس ، فانه كان يلعب دورا خاصا جدا ، كممثل ونصير للثقافة الوثنية القديمة ، فيه تمثلت مشكلات القرن الرابع ، وعليه ظهر الطابع الخاص الذي ألبسه ذلك القرن لمفكريه وادبائه . وبهذا المعنى ، كانت زيارة انطاكيه تمكن المراقب من ان يشاهد عن كثب العوامل الوثنية

والمسيحية التي كانت تتفاعل في هذه الحقبة الانتقالية ، متمثلة في شخصي ليبانيوس الوثني وتلميذه المسيحي يوحنا فم الذهب وفي حياتهما ، تلك القوى المتنافسة في الامبراطورية الرومانية .

ويمكن تصوير القرن الرابع على انه احد القرون القديمة التي كان فيها بعض المفكرين المعاصرين مهتمين اشد الاهتمام بدوافع مجتمعهم وأسسه ، ومهتمين ايضا بالمستقبل ، بل ومتخوفين منه . اما أسباب هذا الاهتمام فكانت ، بالطبع ، اولا ، ظهور المسيحية كعامل جديد في الحياة العامة ، وعامل نام في الحياة الخاصة ، وثانيا ، تطور التغييرات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي كانت تجتاح الدولة ككل ، نتيجة للاصلاحات التي قام بها ديوكليتيان وقسطنطين الكبير. وقد كان ذلك عهدا أحس فيه المراقبون المعاصرون بالخطر والتغيير في آن واحد ، وأحسوا ايضا بالتجديد الذي كانوا ينظرون اليه ببعض التخوف والتحسب .

ومن حسن حظنا اننا نستطيع ان نرى ذلك القرن ومشكلاته من خلال أعين مراقبين معاصرين شاهدوا الامور من وجهات نظر متباينة . واذا كنا نعرف الكثير عن هذا العصر المثير للاهتمام بشكل فريد ، فاننا مدينون بهذه المعرفة لهؤلاء المراقبين . وقد كانت مشكلات ذلك القرن ، من دينية واجتماعية وسياسية ، من النوع الذي يثير ردود فعل متباينة

في نفوس الناس . فليبانيوس ، وثميسطيوس ، والامبراطور يوليان ، ويوحنـا فـم الذهب ، وسينيسيوس البرقي ، ويوسيبيوس القيساري ، وباسيل القيساري ـ جميع هؤلاء الرجال المفكرين ، بتنوع عقولهم ومشاعرهم ، يبينون لنا عصرا كان فيه القديم والجديد امرين يثيران اهتماما مباشرا ، بل خطيرا في بعض الاحيان .

وربما لم يشعر الجميع في انطاكيه ، في أيام الامبراطور ثيودوسيوس ، بأن الظروف كانت حرجة . ولربما شعـر ليبانيوس ، في بعض الاوقات ، انه وحيد في تحسباته بشأن طريقة الحياة الوثنية ، او انه شعر ، على الاقل ، انه كان يفهم ، اكثر من غيره ، الاخطار التي كانت تهدد طريقة الحياة هذه ، كما تهدد حياة الدولة كلها .

وكانت وفرة كتابات ليبانيوس وحدها تظهره بمظهر الكاتب عظيم الشأن . وكان ينظر الى اسلوبه الادبي ، في الفترة التي عاش فيها ، كمثال يحتذى ، ولو انه يبدو لبعض القراء في عصرنا الحديث معقدا . ولكن ، خلف هذا الاسلوب كان يقبع رجل حقيقي اصيل ، وانسان ذو قيمة وكرامة . صحيح انه كان ، في بعض الاحيان ، حاد المزاج ، مغرورا ، يميل الى تصور نفسه عرضة لامراض ليست فيه ، ولكن هذه ليست مجموعة غير عادية من الصفات المميزة . فلم يكن ليبانيوس قط بخيلا ، او انانيا ، او مهتما بصغائر الامور ، وكان بكل

تأكيد انسانا لطيفا ، سخيا ، ونحن نجد ، من وراء بلاغته ، شعورا انسانيا حارا نحو الشبان المناط به تفتيح عقولهم وتدريبها . وفوق كل شيء ، فقد كان وطنيا غيورا ، بالمفهوم اليوناني القديم ، الذي كان يعني تمسك الانسان الوطني بمدينته . وقد ترك هذا الحب المتأجج لمدينته انطاكيه طابعه الخاص على مجمل حياته العملية .

الغرور ، اذن ، وتصور امراض ليست فيه ، تصحبه بعض الامراض الحقيقية ، والوطنية ، وحب الفصاحة الكلاسيكية والآلهة الوثنيين — كل هذه ربما حدت بالمراقب ان ينظر الى ليبانيوس — حسب ميوله — من زوايا مختلفة ، قد تطبع بعضها بتصورات نابعة من ميول المراقب نفسه . ولكن ليبانيوس عاش في اوقات بدت له عصيبة ، ومع انه كان ، في عهد الامبراطور ثيودوسيوس ، مواطن مدينته الاول بلا منازع ، الا ان احدا لم يكن ليستطيع ان يقنعه ان حياته لم تكن صعبة .

يمثل ليبانيوس جيلا نما وترعرع بعد انتصار المسيحية ، وأجبر على مراقبة معنى هذا الانتصار بالنسبة للوثنية . ثم شاهد محاولة يوليان لاعادة احياء الوثنية ، واخفاق تلك المحاولة . وكان ليبانيوس احد ثلاثة ناطقين عظام باسم الوثنية في الجزء الاخير من القرن الرابع ، وبما انه ولد سنة ٣١٤ ، فقد كان اكبر هؤلاء الناطقين سنا . فقد ولد صديقه

ثميسطيوس ، خطيب القسطنطينية العظيم ؛ حوالي سنة ٣١٧ ، بينما كان يوليان ، الذي اصبح فيما بعد امبراطورا ــ سمه المرتد او الفيلسوف حسب ميولك ــ اصغرهم سنا ؛ اذ ولد سنة ٣٣٢ . وعندما كان ليبانيوس شابا يافعا ، كان يعرف اناسا عاشوا حياتهم بأكملها في العالم الوثني ؛ كأبيه ، مثلا . وكانت عنده ادلة كثيرة ، بالنسبة لمهنته في الحياة ، تدل على المعنى الكامن وراء ظهور المسيحية . وكان قد اتصل بيوليان واعتبر قراره في اتخاذ انطاكيه مقرا لقيادته بشرى سارة ؛ ولكنه ، وصديقه يوليان ، اصيبا بخيبة امل من جراء الفتور في استجابة وثنيي انطاكيه .

عندما توفي قسطنطين الكبير سنة ٣٣٧ ، كان ليبانيوس وثميسطيوس لا يزالان يواصلان دراستهما . ولم يكن هذان العالمان ينتميان الى الجيل السابق الذي شهد اعتناق قسطنطين للمسيحية ، وتحرر هذا الدين ، بل ورثا انتصار المسيحية كحركة غيرت العالم الذي كانا يعيشان فيه . وكان هذا يعني انهما اجبرا على اعتبار هذه الظاهرة ، لا كتهديد في مرحلة النمو ، ولكن كأمر كان مفعولا ظهرت نتائجه فعلا الى حيز الوجود . وقد هيأوا انفسهم ، بصحبة معاصرهم الاصغر يوليان ، للعيش في هذا العالم الجديد ، وهم يشعرون احيانا انهم لم يخلقوا له .

ومن بين هؤلاء الوثنيين العظام الثلاثة ، كان يوليان ارفعهم

مرتبة ، واكثرهم تحمسا ، وكان يمكن له ، بفضل ولادته الملكية ومنصبه الامبراطوري (٣٦١ ـ ٣٦٣) ، ان يحاول استئصال المسيحية ، لا بصفتها بدعة دينية مكروهة وحسب، ولكن ايضا لكونها تشكل تهديدا لأمن الدولة والمجتمع . امـا ثميسطيوس ، الذي كان اكبر سنا من يوليان ، والذي كان في وضع يحتاج معه الى قياس مدى ما يمكن ان يفعله قياسا حذرا ، فانه لم يحاول ان يقوم بأية معارضة فعلية . وبدلا من ذلك ، فقد بدأ يلفت النظر بحذر الى القيم الكامنة في الوثنية ، والى صفة الاستمرار في هذه القيم ، والى اهمية الوثنية بالنسبة للتربية والمجتمع المعاصرين . وحاول ان يثبت ان في الوثنية قيما يمكن ان تقارن بقيم المسيحية ، ان لم تكن بالفعل اسمى منها . ويبدو ان ثميسطيوس كان يأمل أن يتم انقاذ جزء من التراث الوثني ، على الاقل ، اذا ما نال هذا التراث تقديرا وحوفظ عليه . وزيادة على ذلك ، فقد دعا ثميسطيوس بجد ، وفي بعض الحالات بنجـاح ، الـى التسامح الديني ، وقد نصح المسيحيين انفسهم بأن يكونوا اكثر تسامحا مـع بعضهـم بعضا . وقـد فطـن معاصرو ثميسطيوس جميعهم الى أنه أصاب نجاحا يلفت الانظار في حملته الحذرة هذه ، واستطاع ان يحافظ على مركزه الهام في البلاط ، في خدمة سلسلة من الاباطرة المسيحيين ، ابتداء من قسطنطينوس (٣٣٧ ـ ٣٦١) ، ابن قسطنطين . واذا كان ثميسطيوس « متملق البلاط » ، كمـا لقبه ناقـد حديث ، فقد كان لتملقه غرض جدي . وبالرغم من وثنيته فقد اوكل

اليه شرف تدريس ابن الامبراطور ثيودوسيوس ، الذي كان اكثر الاباطرة مسيحية .

اما ليبانيوس ، فقد انحدر من اصل يختلف عن اصل يوليان وثميسطيوس ، وكانت ظروف ولادته وتعليمه جميعها تشير الى عمله في الحياة الذي كان مقدرا له ان يقوم به بكل نجاح . فقد ولد في بيت وثني معروف في انطاكيه ، كان في وقت ما بيتا غنيا ، وكان من عائلة محترمة تفوق افرادها لعدة اجيال في الثقافة وروح الخدمة العامة . وكان اثنان من اعمام ليبانيوس صاحبي ثراء ومنزلة اجتماعية ، وقد حملا نصيبا من المسؤولية في شؤون المدينة العامة . ولكن كان من مميزات انطاكيه في ذلك الوقت ان مثل هذه العائلة لم تكن من اصل يوناني خالص ، فاسم ليبانيوس نفسه لم يكن يونانيا ، بل كان يحتوي على الجذر السامي الشائع « لبن » ومعناه « ابيض » ، (ويظهر هذا الجذر في اسم جبال لبنان) . وفي هذه الجزئية الصغيرة ، نستطيع ان نرى حيوية الثقافة اليونانية ، التي وجدت في رجل لم يكن دمه يونانيا خالصا نصيرا من اكبر انصارها .

عندما انهى ليبانيوس دراسته الكلاسيكية في انطاكيه ، وهو في سن الثانية والعشرين ، غادر المدينة سعيا وراء التحصيل العالي في اثينه التي كانت لا تزال ، في ذلك الوقت، اعظم مركز في العالم للدراسات العليا في الفلسفة والادب ،

توازي المراكز الجامعية الكبرى في العصور التالية . هنا نمت مواهب ليبانيوس الطبيعية ، ونمت معها صداقات كثيرة ، كصداقته مع شابين مسيحيين هما باسيل القيساري وغريغوري النازيانزي ، اللذين اصبحا فيما بعد اسقفين ، وصارا يعتبران من اشهر اللاهوتيين المسيحيين في ذلك الزمن .

وبعد قضاء اربع سنوات في اثينه (٣٣٦ ــ ٣٤٠) ، توجه ليبانيوس الى القسطنطينية حيث ابتدأ يعلم البلاغة كأستاذ خاص نجح في اجتذاب عدد كبير من التلاميذ ، بعد مدة قصيرة . ولكن الحياة العلمية في العاصمة الامبراطورية كانت تسممها دسائس الاساتذة المتنافسين ، وبعد مدة من الزمن وجد ليبانيوس نفسه مضطرا لمغادرة المدينة ، فانتقل الى نيقيه ، وبعد ان علم فيها حقبة من الزمن ، استقر في نيقوميديه (٣٤٦) ، حيث قضى خمسة اعوام سعيدة من عمره . ثم نال التشجيع على العودة الى القسطنطينية ، فأقام فيها عددا من السنين قبل ان يتم له ما كان يصبو اليه منذ سنين ، وهو العودة والاستقرار النهائي في مسقط رأسه ، وقد حدث ذلك سنة ٣٥٤ .

كان ليبانيوس قد بلغ الآن الاربعين ، وقد اصبحت له مكانة كبيرة في دنيا العلم . وكان قد حصل على خبرة متنوعة في العاصمة الامبراطورية وفي مدينتين اخريين عظيمتين .

وكان هذا كله قد جرى اثناء عهد قسطنطينوس ابن قسطنطين ، وكان اول امبراطور يولد مسيحيا . وقد لاحظ ليبانيوس اثناء تدريسه للمنهج العلمي الكلاسيكي ، ان ظهور المسيحية كان يهدد الاساس الذي بنيت عليه الثقافة الكلاسيكية . وكان بعض المسيحيين يعزفون عن ارسال اولادهم الى معلم وثني ، ولم يسمحوا لهم ان يقرأوا بعض مؤلفات الكتاب الكلاسيكيين الكبار ، الذين لم تكن كتاباتهم تعتبر مناسبة لان يقرأها المسيحيون ، كالتراجم الخاصة بالآلهة والالاهات ، ومسرحيات أرسطوفان وغيرها . ولا بد ان تلك كانت تجربة مريرة لليبانيوس وأقرانه . وبالرغم من وجود عدد كاف من الآباء الوثنيين في ذلك العهد ، يمكن لمعلم مثل ليبانيوس معه من مواصلة عمله في تدريس المنهج الكلاسيكي ، وبالرغم ايضا من تجنب الادارة الامبراطورية اتخاذ اية خطوات رسمية ضد المعلمين الوثنيين من حيث كونهم كذلك ، فان الوثنيين ، بعد ان شاهدوا تحمس الامبراطور قسطنطينوس للمسيحية ورأوا نمو قوة الكنيسة، وجدوا انفسهم مضطرين للتفكير في ما يخبئه لهم المستقبل . ولا بد ان هذا التفكير كان مصدر تخوف مستمر بين الاساتذة الوثنيين . ولا بد ايضا انهم تتبعوا باهتمام خطابات ثميسطيوس الى الامبراطور ، التي شرح فيها ، بكل ذكاء وحذر ، بعض التعاليم الوثنية الاخلاقية ، وبين قيمتها في الثقافة والتعليم .

وقد خص ليبانيوس عودته الى مسقط رأسه بكتابه «الانطاكية» Antiochikos ، او مديح انطاكيه، وهو يعتبر من اهم اعماله واكثرها شهرة. وقد كتب ليبانيوس «الانطاكية» لتلقى في الاحتفال بالالعاب الاولمبية في انطاكيه سنة ٣٥٦ ، اي في اول احتفال يجري بهذه الالعاب بعد عودته الى المدينة. وجدير بنا ان نلاحظ ان المناسبة التي اختارها ليبانيوس لتقديم مديحه هذا كانت الالعاب الاولمبية ، التي كان يحضرها الزوار من جميع انحاء العالم ، علاوة على اهل انطاكيه جميعهم، على التأكيد .

اذا قرأنا «الانطاكية» في ضوء سيرة ليبانيوس في انطاكيه بعد ذلك ، لن يكون من الصعب علينا اكتشاف مفتاح ما كان يجول في فكره عندما استأنف عمله في مدينته المحبوبة ، وعندما هيأ نفسه لمتابعة مهنته ، في عالم كانت تبدو فيه للدين الجديد المعادي للمدنية اليونانية غلبة متزايدة . وكانت «الانطاكية» في الحقيقة ، تاريخا ومديحا لانطاكيه ، بصفتها مدينة يونانية كلاسيكية . ويبدو واضحا من الطريقة التي كتب فيها ليبانيوس انه كان قد قرر ان يوقف عمله في مدينته على ابقاء تقاليد المدينة اليونانية حية في جميع اوجهها القديمة ، كمفهوم يمكن ان تواجه به تعدي المسيحية وتهديدها . وبالطبع ، لم تبق انطاكيه ، تحت الحكم الروماني ، مدينة يونانية حقة ، لا من الناحية الاجتماعية ولا من الناحية السياسية ، ولكنها كانت لدى تأسيسها مدينة يونانية ،

وكانت لها تقاليد عظيمة ، وهذا ما نذر ليبانيوس نفسه لان يبقيه حيا .

تظهر خطة «الانطاكية» الادبية ما كان يجول في خاطر ليبانيوس . فالنصف الاول يهتم بتأسيس انطاكيه وتاريخها ، واما القسم الباقي فمكرس لتخطيط المدينة المفصل وحياتها اليومية في الفترة التي كان يعيش فيها ليبانيوس. وهناك مغزى في توزيع عدد الصفحات في الجزء الاول من «الانطاكية» . فبعد مقدمة قصيرة ، يأتي وصف للأرض المحيطة بانطاكيه في عدة صفحات . ويلي ذلك باب أطول منه في وصف تاريخ تلك البقعة الاسطوري في الايام التي سبقت تأسيس المدينة . وكان الاشخاص الاسطوريون من اكثر شخصيات الاساطير اليونانية شهرة — الارجوسيون بقيادة تربتوليموس وهم يبحثون عن ايو ، وكاسوس الكريتي ، واولاد هرقل مع الايليين — وبهذا يعطي ليبانيوس المدينة سلسلة من الانساب الممتازة .

ثم ينتقل ليبانيوس الى وصف زيارة الاسكندر الكبير للبقعة التي كانت ستصبح في المستقبل مقرا للمدينة ، فتأسيس المدينة على يد سلوقس نيكاتور سنة ٣٠٠ ق. م. فتاريخ انطاكيه في العصر الهيلينستي . والتأكيد هنا هو على اصل المدينة اليوناني والمقدوني . فقد تأسست المدينة بارادة من الآلهة اليونانيين ، وخصوصا زفس وابولو ، وقد

اسبغت هذه الرعاية الالهية املا كبيرا في ازدهار المدينة الجديدة . وقد اصبحت المدينة وريثة لاثينه عن طريق الاثينيين الذين كونوا جزءا من المستوطنين الاوائل ، وقد حافظت على اعمال الاثينيين ، كما يقول ليبانيوس . وقد نشر سلوقس نيكاتور الحضارة الهيلينية في العالم البربري عن طريق تأسيسه للمدن ، وبذلك قضى على البربرية . وبعد ذلك يقدم لنا ليبانيوس تاريخ الملوك السلوقيين بالتفصيل . ومما يظهر لنا قصد ليبانيوس بكل وضوح انه ، بعد ان يفرغ من تاريخ الملوك السلوقيين ، يعالج العهد الروماني في فقرتين اثنتين فقط . ويقول ليبانيوس انه عندما انتهى الحكم المقدوني ، بارادة الهية ، تقبلت المدينة ذلك التغيير ، لانه كان حكما اصدرته الآلهة ، وسلمت نفسها الى الرومان لانه كان مقدرا لها ان تعيش حقبة تحت سلطانهم . وبالمقابل ، احسن الرومان معاملة المدينة . وبذلك واصلت النعم المجيء الى المدينة ، وحافظت انطاكيه على مركز الشرف الذي كانت تحتله « كعاصمة لآسيه » (بتعبير ليبانيوس نفسه) .

وهكذا تملص ليبانيوس من تاريخ انطاكيه الروماني بأدب ، وباقل قسط ممكن من الاهتمام . ونحن نتوقع ، بالطبع ، أن يتركز اهتمام ليبانيوس على تاريخ المدينة اليوناني ، ولكن ما تبقى من «الانطاكية» يظهر ان اهتمامه لم يكن مركزا على هذا التاريخ فحسب ، بل ايضا على المؤسسات اليونانية في المدينة ، كما يصفها . فقد بدأ بمجلس الشيوخ ، فقال انه

الاساس الذي ارتكز عليه بنيان المدينة بكامله . وكان مجلس الشيوخ قويا بفضل حكمته وبلاغته ، ونتيجة لذلك ، فقد تمكنت انطاكيه من الاشراف على الموظفين الذين كانوا يرسلون لحكمها. وفي هذه الناحية ، تفوقت انطاكيه، فعلا ، على غيرها من المدن . (ولا يسعنا الا ان نتساءل عما فكر به الموظفون الرومانيون الذين خدموا في انطاكيه ازاء هذه الوخزة) .

وقد اعتبر ليبانيوس بشكل خاص « بلاغة انطاكيه » ، اي بلاغة اهلها ، فضيلة من اهم فضائل المدينة . وقد قال ان البلاغة هذه كانت تدعى ، بحق ، عقل اية مدينة . ففي اثينه ، كان اهم الامور الرغبة في المعرفة ، والتشرف بها ، والحصول عليها . وبالطريقة نفسها ، كان كل شيء في انطاكيه يصغر ازاء حب المعرفة. ولذلك ، فقد قال ليبانيوس: « تماما كما كانت ثروات اليونان ، في الازمنة السابقة ، مقسمة بين مدينتين ، هما اثينه واسبارطه ، فان ممتلكات اليونانيين الجميلة منقسمة اليوم بين مدينتين هما انطاكيه واثينه » . هنا يظهر ليبانيوس قصده عندما يقول انه ينبغي اعتبار انطاكيه مدينة يونانية ، بمستوى اثينه نفسه ، لانه ينبغي اعتبار الناس يونانيين بسبب بلاغتهم ، وليس بسبب مكان ولادتهم . هنا كان ليبانيوس يردد فقرة مشهورة من «مدحة» Panegyric ايسوقراط، خطيب اثينه الكلاسيكية الكبير ، الذي كان ، مثل خلفه ليبانيوس ، عالم البلاغة في انطاكيه الرومانية ، يعتبر الثقافة اليونانية معيارا للحضارة .

ختم ليبانيوس هذا الجزء من حديثه ببيان مفصل عن الطريقة التي انبثقت فيها بلاغة انطاكيه عن نظام تعليمهـــا الممتاز . وهنا ينتقل ليبانيوس ، بالطبع ، الى مهنته فـــي الحياة ، ويعلن ان التعليم ، الذي كان من بين جميع الاشياء انفعها ، كان في متناول يد جميع رجال انطاكيه وان قوة المدينة اجتذبت اليها غرباء كانوا يرغبون في التزود من ثقافتهـا المتفوقة . واما الحكام الذين اتوا الى انطاكيه من الخارج ، فقد احبوا المدينة بسبب حكمتها ورفعتها الادبية ، بينما كان اهل انطاكيه نفسها يتمتعون بحياة اجتماعية وبنوع مـــن المشاركة الفكرية التي لم يحظ بها أهل المدن الاخرى . وقد نتج هذا ، بالطبع ، وبصورة جزئية ، عـن جمال المدينـــة الطبيعي وملاءمة موقعها . فقد اجتمع في المنطقة مناخ معتدل وازدهار اكسبا انطاكيه مكانة اقتنع معهـا زوار المدينـــة الرومانيون بان المدينة كانت تفـوق اي مكان فـي ايطاليه نفسها .

في هذا كله ، كان ليبانيوس يتكلم بالطبع عن المدينة مـن حيث كونها وحدة منفردة ضمن تراثها التاريخي ، لا من حيث كونها جزءا من الامبراطورية ، او من زاوية علاقتها السياسية بالامبراطورية ، فيما عدا ان المدينة ، بفضل فاعليتها الخاصة ، تمكنت من السيطرة علـى الموظفين الذين وفـدوا اليهـــا ليحكموها . و «الانطاكية» هي ، في الحقيقة ، دراسة في ما يمكن للمدينة اليونانية ان تكون عليه حتى بعد ان تفقد اهميتها السياسية .

ماذا كانت هذه الامور تعني بالنسبة لواقع الحال في انطاكيه ايام ليبانيوس ؟ اذا كان باستطاعة ليبانيوس ان يصف انطاكيه من ناحية ماضيها كمدينة عظيمة ، فان انطاكيه حتما لم تعد مدينة يونانية حقيقية في زمنه هو . فحالما استولى الرومان على سوريه ، سارعوا في تنفيذ برنامج معماري واسع، اضفى على انطاكيه الكثير من مميزات المدن الرومانية ؛ وبالفعل ، فان ميدان فالنز ، الذي كان يشبه ميدان تراجان في رومه ، قدر له ان يقام اثناء حياة ليبانيوس نفسه . ولما كانت المدينة مركز ادارة كونت الشرق وحاكم سوريه ، فقد وجد في المدينة عدد من الموظفين والكتبة الناطقين باللغة اللاتينية ، وكان هناك ايضا اساتذة يدرسون اللغة اللاتينية في انطاكيه ــ وهذا شيء منكر بالنسبة لليبانيوس ، لأن فيه تهديدا حقيقيا للثقافة اليونانية .

وكانت هناك عناصر اخرى في انطاكيه تتنافى مع مفهوم المدينة اليونانية ، خصوصا ، وبشكل ظاهر جدا ، العنصر السامي الاصلي الذي كان بارزا في انطاكيه منذ انشائها . ولا يتوقع احد ان يسمع اللغة السريانية تستعمل اينما ذهب في شوارع مدينة يونانية . وحقيقة الأمر ان كثيرين من الناطقين بالسامية في انطاكيه وخولها ، لم يعرفوا اليونانية اصلا . وبما ان ليبانيوس كان يعلم جيدا ان اسمه هو لم يكن يونانيا ، فقد قرر ان اللغة اليونانية والثقافة اليونانية هما ، في الحقيقة ، معيارا الانتماء الى تلك المدينة ، وقد قال في

«الانطاكية» : « نحن ايضا قدمنا الشرف للاجانب في اعظم الاشياء ، وقد استفدنا من الاجانب ، بحيث ان عائلاتهم الآن تحتل ارقى المناصب » .

هذه اذن كانت الاضافات الى مدينة انطاكيه بصفتها مدينة يونانية ــ اضافات نتجت عن موقعها الجغرافي والتطورات التاريخية التي مرت بها . وقد كان هناك ايضا وصول المسيحية الذي كان احدث تهديدا للحضارة التقليدية .

هنا نأتي الى مظهر هو للوهلة الاولى محير ، ولكنه يمثل بكل دقة التفاعل بين الوثنية والمسيحية في القرن الرابع . فيبدو ان الوثنيين ، حتى المثقفين تثقيفا عاليا منهم ، من امثال ثميسطيوس وليبانيوس ، لم يستطيعوا ابدا ان يفهموا العقيدة المسيحية ، او ان يقدروا اسلوب الحياة المسيحية . وحتى يوليان ، ذلك الانسان المثقف الحساس ، الذي كان في وقت ما مسيحيا ، ولو بالاسم ، تبدلت فكرته تبدلا كبيرا بحيث لم يسعه ألا ان يصب احتقاره عليها .

ويمكننا العثور على السبب في الوثنية لا في المسيحية . وانه لدليل على قوة التقاليد الكلاسيكية وثقتها بنفسها ، أن رجالا من امثال ليبانيوس كانوا غير قادرين مطلقا على تفهم معنى المسيحية او أهميتها . فقد كان في الثقافة الكلاسيكية من القوة ما مكنها من السيطرة المنفردة على عقول من تعرضوا

كليا لتأثير عبقريتها، متعاطفين معها. وقد استطاعت المسيحية، في كثير من الاحوال ، بالطبع ، ان تصل الى عقول تدربت تدربا كلاسيكيا محضا ، الا انه ليس من العجيب ان التقاليد القديمة كانت قد رسخت مثل هذا الرسوخ الاكيد في عقل شخص كليبانيوس . ففي هذه الحالة ، اغلقت الوثنية عقلها بكل بساطة تجاه كل ما يتعلق بالمسيحية . لقد كانت الوثنية هي النظام القائم المقرر ، وكانت هي النظام الوحيد لعدة قرون خلت . وكان مجمل اعتقاد الوثنية يؤمن منذ القدم بمقام الانسان وقيمته الذاتية ، وكان هذا الايمان يبدو ، لاتباع الطريقة الوثنية ، السبب الوحيد المعقول لوجود العالم والانسان . واذا نظرت المسيحية الى الانسان والى الفضيلة الانسانية نظرة تغاير هذه النظرة ، فلا يمكن ان تكون المسيحية على صواب . ألم تكن اجيال من الرجال الصالحين قد أثبتت ان هذا الايمان التقليدي صحيح ؟ فاذا ظهرت طريقة جديدة للمعيشة وسعت الى تثبيت نفسها ، كان على الوثنية ان تقاومها وان تهاجمها ، دفاعا عن النفس. ولم يكن هناك ضرورة تدفعها الى محاولة تفهم هذه الحركة الجديدة ، لان كل ما هو خارج عن دائرة الوثنية التقليدية يجب ان يكون بطبيعته خطأ لا يستحق الفهم . وكان الوثنيون الذين لم يعرفوا الكثير عن المسيحية مقتنعين بان اسلوب حياتهم صحيح ، وانه المنظور الحقيقي للكون . فمن اجل اي شيء ، اذن ، يزعجون انفسهم في معالجة شيء غريب عنهم تماما ، يحاول قلب العالم رأسا على عقب ؟ الطريق الوحيد هو مقاومة هذا الامر ، واذا امكن ،

اخماده ؛ ولا حاجة لدراسة تعاليمه ، فهي مخطئة لا محالة ، لانها لا تتفق مع كل ما دخل في تكوين النظام القائم المقرر . فقد وجد هذا النظام اولا بين اليونانيين ، ثم الرومانيين ، وكان يميز من آمنوا به عن البرابرة الذين كانوا يعيشون خارج حدود العالم المتمدن . وبهذا ، كان هذا النظام تراثا قوميا ، اضافة الى كونه ولاء شخصيا . فاذا اضطرب ، فقدت الأمة أساس استقرارها .

وهكذا ، لا يمكن ان نتوقع من ليبانيوس ، وهو يحمل عن المسيحية فكرة جزئية وخاطئة على الارجح ، ان يقدر شهرة انطاكيه كمركز قديم للمسيحية ، وان يقدر كذلك ان الدين الجديد ، من ناحية تاريخية ، اتخذ جذورا خاصة في انطاكيه. فقد كان وعي ليبانيوس محصورا في النفوذ الذي كان لانطاكيه ، ولم يزل ، كمركز للثقافة الوثنية . ولا نستطيع الآن ان نحكم ما كان يتوقعه ليبانيوس من المستقبل ، سواء أتنبه او لم يتنبه الى ان انتصار المسيحية كان امرا مؤكدا بل حتميا . ولكنه شاهد بالفعل محاولة يوليان لاحياء الوثنية، وشاهد اخفاق هذه المحاولة . اما بعد موت يوليان ، فلربما شعر ليبانيوس ان المستقبل لم يكن يبشر بتحطيم المسيحية ورجوع الوثنية ، فكان موت يوليان بالنسبة لليبانيوس وثميسطيوس نهاية حقبة ، ولكن احدا منهما لم يفقد الامل بعد موته . واستمر كلاهما في عملهما المختار ، وكانت امامهما ثلاثون سنة من المجهود الناشط . وكان ثميسطيوس

وليبانيوس صديقين، وكانا متقاربين في السن كما ذكرنا ؛ فاذا ظن ليبانيوس ، عند موت يوليان ، ان مستقبل الوثنية أصبح محدودا ، فانه من ناحية اخرى كان يعلم ان ثميسطيوس كان قد اصاب نجاحا كبيرا في دعايته الوثنية في العاصمة الامبراطورية . ولقد كان علم كل من ثميسطيوس وليبانيوس انه لم يكن وحيدا في مسعاه يعني الشيء الكثير لكليهما معا ، وكان باستطاعة كل منهما ان يستمد القوة من النجاح الذي كان يصادفه الآخر . ولم يكن غريبا ان طور كل منهما اهتمامه في ناحية تختلف عن الآخر ، مع ان عمل كل منهما كان مكملا لعمل الآخر . فقد استطاع ثميسطيوس ان ينظر الى عمله من خلال عيني امته ، نظرا لوجوده في البلاط الامبراطوري ، واتصاله الدائم بالاباطرة المتعاقبين ، بينما عاش ليبانيوس المعلم داخل اطار المدينة ، وداخله عمل .

وقد سعى ليبانيوس الى القيام بدوره بطريقتين ، احداهما كمعلم ، والاخرى كمواطن — اي كمعلم للتقاليد اليونانية ، وكمواطن بارز وناطق باسم المجتمع الذي حافظ على فضائل المدينة اليونانية القديمة . وبقيت المدينة اليونانية بثقافتها اليونانية ، في عرف ليبانيوس ، الشرط الاساسي للحياة المتحضرة . وكانت المسؤولية التقليدية المناطة بالمدينة اليونانية تجاه التعليم امرا يمكن لليبانيوس ، وهو من اصبح في مدة وجيزة احد معلمي المدينة البارزين ، ان يكون السباق في رفع لوائه . وكانت له في هذا فرصة وشرف تلقين تلاميذه ،

وغيرهم من الناس ، ان فضيلة المدينة وقوتها ، وكذلك الفضيلة التي تسبغها المدينة على مواطنيها ، متصلة بجذور من الماضي الذي واصل سيره الى الوقت الحاضر دون ان يصيبه تغير جوهري ، بالرغم من وجود الرومان ، وتقدم المسيحية الذي لا يبشر بالخير . وكان على الروح الكلاسيكية، التي كانت اساس التعلم والفضيلة ، ان تواصل الاعلان عن نفسها في جميع ارجاء المدينة . وكان الامبراطور يوليان قد بنى تفكيره حول المفهوم التقليدي للمدينة اليونانية ودورها . فبالنسبة له ، كان مثال المواطنة ان يكون الانسان افضل رجل في المدينة ؛ وقد كتب يوليان ان على الوثنيين ، في وجه التهديد المسيحي ، ان يكرموا الرجال والمدن التي تجل الآلهة . واذا صح القول ان ليبانيوس كان يعيش في الماضي ، فان هذا يعني انه كرس نفسه لمحاولة تبيان الماضي كجزء اساسي من الحاضر ، يقدم للحاضر الفضائل التي كان قد انعم بها على ما سبقه من الدهور . وكان ليبانيوس قادرا على ان يعلم هذا المفهوم لتلاميذه ، وكان يحاول ، من خلال خطبه العامة ، حماية استقلال انطاكيه من آثار الحكم الامبراطوري كما كان يصير اليه ابان حياته .

وكان ليبانيوس دائم اليقظة لصيانة العدالة في المجتمع والحكومة ، وقد كتب سلسلة كاملة من الخطابات ، وجهها اما الى الامبراطور او الى الحكام الامبراطوريين ، او وزعها كمنشورات او خطابات مفتوحة ، تظهر فيها انسانيته الحارة

واهتمامه بالمحافظة على اللياقة والنظام في حياة المخلوقات البشرية التي كانت ، بمجموعها ، تكون المدينة اليونانية ، انطاكيه .

وكانت هناك حاجات كثيرة تلفت نظره ، من اكثرها استعجالا اصلاح قانون العقوبات ، وفي دراسة مشهورة بعنوان « ما يتعلق بالمساجين » Concerning the Prisoners، طالب بتحسين معاملة المساجين الذين ينتظرون المحاكمة ، وبمحاكمة المتهمين دون تأخير ، وباقامة العدل الصحيح عندما يمثل المتهمون امام القضاء . وبحسب القوانين القائمة آنذاك ، لم يكن هناك مجال لهذه الشرور ؛ ولكن سوء استعمال السلطة كان ناجما عن كسل القضاة وموظفي المحاكم والمساجين وعدم كفايتهم وميلهم الى الجشع والرشوة . وقد تفاقمت الامور في انطاكيه الى درجة أحس ليبانيوس معها بضرورة توجيه هذه الدراسة الى الامبراطور نفسه . ويدل التشريع الذي سنه ثيودوسيوس على انه كان لعرض ليبانيوس هذا بعض الاثر .

ولم تقتصر المشكلة على المساجين ، بل تعدتهم الى الفقراء والطبقات العاملة ، الذين كانوا يحتاجون الى الدعم والحماية ايضا . وقد تدخل ليبانيوس مرارا ليطلب المعاملة العادلة لجميع من كانوا في خطر من ان تستغلهم مصالح اقوى منهم بما فيهم المزارعون والخبازون وصغار التجار . واذا قصر

حاكم امبراطوري عن القيام بواجبه كما يجب ، كان يجـد تفاصيل تقصيره منشورة في « كتاب مفتوح » يقرأه الجميع في انطاكيه ؛ واذا قام بشأن هـذا الكتـاب خلاف ، كان ليبانيوس يستأثر بالغلبة ، نظرا لمقامـه الرفيع ومواهبـه الادبية .

وكان ليبانيوس يلاحظ بكل سرعة اية خطة او اي تجديد يبدو فيه تهديد لاسلوب الحياة المثالي في انطاكيه ، ثم يقوم بنشر كتاب مفتوح ، او القاء خطاب عام ، بصدد تلك النقطة . فاذا لاحظ مثلا ان الولائم التي كانت تختتم بها الالعاب الاولمبية كانت تهدد بفقدان طابعها التقليدي ، لان المسؤولين بدأوا يسمحون للضيوف باصطحاب اولادهم الى تلك الولائم ، في الوقت الذي كان الاولاد لا يزالون اصغر من ان يشتركوا في هذه المناسبة اشتراكا لائقا ، كان ليبانيوس يشعر ان ذلك امر يدعو لقلق عام ، لان الاحتفال بهذه الالعاب على الوجه اللائق كان مظهرا مهما من مظاهر حياة المدينة الاصيلة . وكان هناك تهديد آخر لسلامة هذه الالعاب ، وهو محاولة توسيع البلثريون ، وهي البناية التي كـان يستعملهـا الرياضيون الراغبون في الاشتراك بالالعاب لاجراء التصفية والاختيار النهائي بينهم . وقد كانت البناية في الاصل صغيرة بحيث كانت تسمح للمختصين وبعض المواطنـين المسؤولين فقط بمشاهدة هذه التصفيات ، واما توسيعها فكان سيتيح المجال لدخول جمهرة من المتسكعين وذوي الاخلاق المشبوهة الذين

لا يجوز ادخالهم ؛ هنا ايضا احس ليبانيوس بضرورة اعتراض رسمي ضد هذا التجديد الذي كان سيؤدي الى التقليل من منزلة الالعاب .

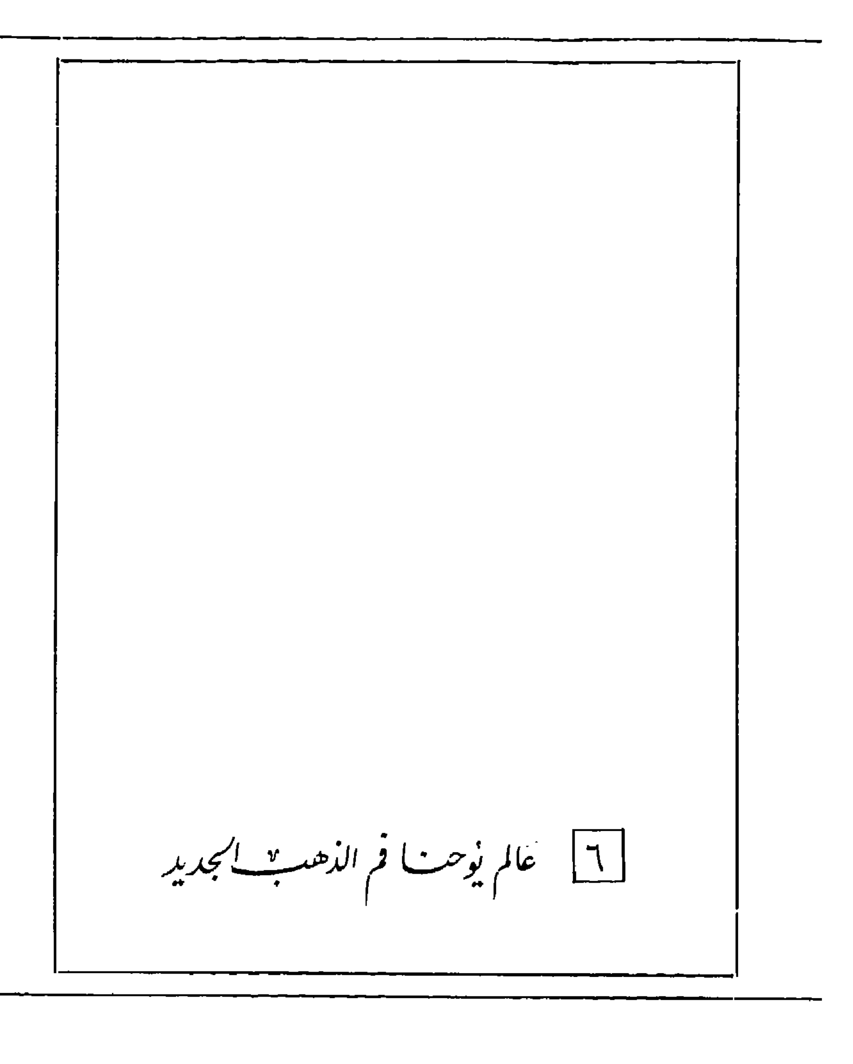
وقد عمل ليبانيوس دون توقف من اجل المحافظة على النظام واللياقة في حياة مدينته ، على الرغم من الصداع والامراض المتكررة التي كانت تصيبه . وبهذا ، فانه لم يحافظ على دوره كمواطن اول فحسب ، بل قام بعمله كمعلم ايضا ، اذ انه كان يعطي لتلاميذه مثلا في المواطنة التي تتمثل فيها فضائل المدينة الكلاسيكية من حيث استخدامها للتأثير على المشكلات القائمة .

وكان ليبانيوس واصدقاؤه وتلاميذه الذين تأثروا به تأثرا قويا ، يحسون احساسا عميقا بدور الماضي في تشكيل الحاضر ، ويرون ان سلامة المستقبل تكمن في المحافظة على تقاليد الماضي النبيلة . وكان هذا هو الرأي الذي استرشد به ليبانيوس وهو يراقب الحياة حوله في انطاكيه . ولم يكن التجديد ، من حيث هو تجديد ، امرا سيئا بالضرورة ، ولكنه يمكن ان يكون خطيرا للغاية واذا هو أحل محل شيء ذي قيمة مجربة ودائمة نظاما جديدا ذا فائدة مشكوك في أمرها . وقد رأى ليبانيوس ان العالم مليء بهذه الدوافع والميول للتغيير والتجديد و « التحسين » ؛ ولكن ، كيف ستكون النتيجة اذا سمح لهذه القوى ان تتحرك بحرية ، دون ردع او تمحيص ؟

لم يخف ليبانيوس من قوى التغيير خوفه من قوى التداعي.
وكان يمكن تفادي التداعي بالحفاظ على الحياة الاصيلة للمجتمع ، تلك الحياة المرتكزة على المدينة . وكان قلق ليبانيوس على المدينة اليونانية بهذا العمق لانه وجد فيها دوافع الحياة الحقيقية ، في مواجهة ضغط التحدي المسيحي والتطورات السياسية الدارجة ـ كان يجد هذه الدوافع في المدينة اليونانية الوثنية ، بتقاليدها التاريخية الطويلة ، وبآلهتها ، وبشعورها بالمسؤولية التعليمية الملقاة على عاتقها ، وبالفضائل التي كانت تنميها في نفوس مواطنيها . وقد وجد ليبانيوس تهديدا لتقاليد المدينة اليونانية في جميع الاخطار المحيقة بحضارتها ومجتمعها ، وهي الاخطار التي كان يراها حوله في كل مكان . وبالفعل ، فقد كان تزايد هذا التهديد هو الامر الذي اكد بوضوح متزايد قيمة ما تمثله المدينة اليونانية ، في مفهوم ليبانيوس . وبالرغم من شجاعته ، فقد رأى عالمه يتداعى . وكان ليبانيوس يستطيع ان يستعير عبارة من جيبون ينسب فيها هذا التداعي الى انتصار البربرية والديانة المسيحية . وقد عجز ليبانيوس عن ان يدرك ان القوى المحركة كانت في الحقيقة تختلف عن تلك التي تخيلها ، وانها كانت اقوى مما تصور . وقد اخفق في تفهم جوهر ما كانت هذه القوى تساعد على تطويره لاخفاقه في ادراك مصدر هذه القوى . فمن بين الاعتراضات الوثنية على المسيحية ان ذلك الدين الجديد بدا وكأنه ينزع من الماضي الثقة التي كان الوثنيون يولونه اياها ، ويسقط عنه صفة

تمثيله للتقاليد الاساسية المكونة التي بنيت عليها الحضارة القائمة . اما مـا يدركـه ليبانيوس واصدقاؤه فهـو ان المسيحية قد عوضت عنه بمفهوم جديد لسبب الحياة ، وان نظرة المسيحية الى الطبيعة والانسان والله كانت تمثل قوة ستصير الى تغيير وجه المجتمع .

لقد كان الانسان حتى ذلك الوقت ، العنصر الرئيسي في نظرة المسيحية والوثنية الى المجتمع والعالم . وكانت حضارة اليونان الكلاسيكية حضارة الفرد ، وكانت المسيحية ديـن تغيير حياة الفرد . اما ليبانيوس ، فكان ، اثناء جلوسه في مدرسته او تجواله في الشوارع التي تحفها الاعمدة ، يفكر في نوع واحد من الافراد ، وكان يعتقد ان هذا النوع هـو الذي يجب ان يكتب له البقاء ، اذا اراد الناس ان يحافظوا على حضارتهم . ولكنه لم يدرك انه كان بامكان مثل المسيحية الاعلى امتصاص هذا الفرد بحيث يمكن للتقاليد الكلاسيكية ان تجد حياة جديدة دائمة ضمن الثقافة المسيحية . وفي هذا الوقت بالضبط ، كان علماء اللاهوت والفلاسفة المسيحيون يسعون الى تحقيق هذه الغاية . والحق يقال ان ما تميزت به الانسانية الكلاسيكية من قوة خاصة هو ما منع ليبانيوس من ادراك هذه الحقيقة .



٦ عالم يوحنا فم الذهب الجديد

« محبة المسيح تحثنا » .

الرسالة الثانية الى اهل كورنثوس

اذا تسلق الزائر جبل سيلبيوس وتفحص المدينة الممتدة امامه ، وجد عدد المعابد الوثنية يفوق عدد الكنائس المسيحية. ولكنه يعلم ان تلك المعابد كانت ، في زمانه ، مجرد آثار تاريخية ومتاحف ، لانه ، اذا كانت انطاكيه مقرا قديما للآلهة، فقد كانت ايضا اول مكان سمي فيه الرسل مسيحيين . ولم يستطع احد ، سواء أكان وثنيا ام مسيحيا ، ان ينسى هذه الحقيقة ، لان اكثر الملامح لفتا للنظر في منظر المدينة العام ، كما يبدو للزائر ، القبة الذهبية التي تتوج الكنيسة العظيمة الثمانية الشكل التي بناها قسطنطين الكبير قبل ذلك الوقت باربعين سنة ، والتي كانت تجثم وسط فنائها الواسع الذي تحف به الاعمدة ، تحيط به بنايات مختلفة الاشكال صممت لخدمة الكنيسة . وكان هذا اعظم حرم مسيحي في المدينة . لكن كانت هناك كنيسة اخرى جديدة في طور البناء ، بوشر بها في السنوات القليلة السابقة ، ولم ينته بناؤها بعد .

وكانت هذه هي كنيسة القديس بابيلاس المصلبة الواقعة على ناحية نهر العاصي البعيدة من المدينة ، لانه لم يكن قد بقي في المدينة متسع لبناء كبير كهذا . وكان من المناسب ايضا ان تبنى هذه الكنيسة في ساحة مارس التي نفذ فيها حكم الاعدام بعدد كبير من الشهداء المسيحيين ، فقد كان بابيلاس نفسه ، اسقف انطاكيه ، شهيدا مشهورا ، بل كان من اوائل شهداء المدينة واعظمهم .

وكان منظر المعابد والكنائس ، بالنسبة للزائر المسيحي ، يروي قصة شهرة انطاكيه كمركز قديم وفعال للمسيحية . وكانت التقاليد المسيحية الطويلة التي انتصرت الآن ، بعد ثلاثة قرون من حياتها، عاشت فيها خارجة على القانون، تتمثل في كنيسة قسطنطين وهي كاتدرائية بطريركية انطاكيه ، وكان الزائر المسيحي يسرع الى انطاكيه للتعبد فيها .

هنا ، كان الزائر يستمع الى يوحنا فم الذهب ، الخطيب العظيم الذي كانت شهرته تتخطى حدود مدينته . ولئن عرف الزائر في ليبانيوس الممثل الاخير لثقافة أثينه القديمة ، فقد كان يوحنا فم الذهب يكتسب شهرة باعتباره احد المبشرين العظام بحياة اورشليم الجديدة .

وكان مظهر يوحنا فم الذهب الخارجي ، وهو يعظ من فوق المنبر الرخامي ، وسط الكنيسة الثمانية الشكل ، لا

يوحي بأية عظمة . فقد كان قصير القامة ، نحيف البنية ، حتى وهو في لباسه الكهنوتي الرسمي ، هزيل الملامح ، ذا جبهة عريضة صلعاء . وكان سكان انطاكيه جميعهم يعلمون ان صيامه الاختياري ايام شبابه ، عندما كان ينسحب الى الصحراء ليقوم بتأملاته الدينية ، قد اثر على جهازه الهضمي. وكان يأكل من الطعام ما يكفي لابقائه على قيد الحياة ، ويقال انه كان يعاني من سوء هضم دائم . وكان حقا ، حسب الاصطلاح الشائع ، « رياضيا من اجل المسيح » لان كل شيء في هيئته ومنظره كان يدل على الرياضة الروحية الصارمة التي فرضها على نفسه . وقد كان الناس ينظرون الى هذه المظاهر في ايامه باحترام كبير ، تماما كما كان يحدث في السابق ، حين كانت العلامات الجسمية التي يحملها المجاهرون بالنصرانية رغم الاضطهاد ـ من عين مفقودة ، او رجل عرجاء ، او يد كسيحة ، وهي دلائل على التعذيب الذي عانوه من اجل الانجيل ـ تضفي على حامليها مكانة محترمة بين اصحابهم من المسيحيين .

ولو مررت بيوحنا فم الذهب في الشارع لما استلفت انتباهك . وقصارى ما قد تلاحظه هو كاهن هزيل البنية ، رث الثياب . ولكن عندما كان يحين وقت الوعظ ، بعد ان ينتهي جزء من الاحتفال بالقربان المقدس ، ويتوجه هذا الواعظ الى المنبر ، ويبدأ في الكلام ، كان كل رجل وامرأة من المصلين يشعر بأنه يمر في تجربة نادرة الحدوث . ولم يكن عجيبا ،

اذن ، ان هذا الرجل ، واسمه يوحنا الانطاكي ، اصبح يلقب بـ «يوحنا كريسوستوم » ، اي «يوحنا فم الذهب» ، لانه كان يملك موهبة الفصاحة الرائعة ، وهي موهبة نادرا ما وجدت عند الواعظين المسيحيين ، سواء من سبقه منهم ام من تلاه .

عقل متدين تدينا عميقا ، ومعرفة حادة وحساسة بالروح الانسانية ، وعلم واسع وثاقب بالكتابات المقدسة ، وفوق كل شيء ، حب حار لتعاليم المسيح ــ كل هذه كان يوحنا يصبها في تيار من البلاغة أهله لكي يكون واحدا من اعظم خطباء عصره ، في اي من الاطارين : الوثني او المسيحي . كانت تلك موهبة اللغة بأعظم ابعادها وانبلها . وحالما كان الخبر يذاع بان يوحنا فم الذهب سيلقي العظة ، كانت الكاتدرائية تغص بالمصلين . وحتى المزارعون الذين كانوا يفدون الى انطاكيه من الريف المحيط بها ، والعمال البسطاء في المدينة ، الذين لم يكونوا يعرفون الا اللغة السريانية ، كانوا يتجمعون في جهة معينة من الكنيسة حول شماس يتكلم اللغتين اليونانية والسريانية ، ليترجم العظة لهم جملة جملة بينما كان فم الذهب يلقيها . وكان هناك فريق من كتبة الاختزال يدونون كلمات الواعظ ، لانه كان ، في كثير من الأحيان ، يرتجل موعظته ارتجالا ، حسب ما يتيسر له من الالهام . وبالرغم من ان العظة كانت تدوم ساعتين في بعض الاحيان ، فلم يكن المصلون يملونها ابدا ، مع انهم كانوا يستمعون اليها وقوفا طيلة الوقت . وقد دونت التقارير المأخوذة عن تقييدات

المختزلين كيف كان كلام يوحنا فم الذهب يقاطع بالتصفيق ، اذ ان العادة كانت تسمح بذلك في تلك الايام .

وكان يوحنا فم الذهب يشعر بحق ان رسالته في الحياة هي رعاية النفوس البشرية ، وكان الناس يتجمهرون للاستماع اليه بهذه الصفة . وكانت الأداة الرئيسية التي استعملها لنقل رسالته – من تعليم ، وتنبيه ، وتعزية ، وتحذير – عظات مبنية على الكتاب المقدس ، يشرح من خلالها كتب العهد القديم والعهد الجديد شرحا منسقا . وكان يقدم هذه العظات في سلسلة متواصلة ، يشرح فيها كتابا مختارا – مثلا : سفر التكوين ، او سفر المزامير ، او سفر اشعيا ، او انجيل متى ، او انجيل يوحنا ، او اعمال الرسل ، او رسالة القديس بولس الى اهل روميه ، ورسالتاه الى اهل كورنثوس ، وغيرها، بشكل مفصل ومنظم . وكان يقرأ كل عدد بنصه ، ويشرحه ، ثم يكشف القصد من تدوينه . ولم يكن يهمل اية ناحية من نواحي تفكير الكاتب ، شارحا آراءه ببساطة وعدم التواء يلفتان النظر .

وكان كل جانب من جوانب فكر يوحنا وكلامه موجها نحو دراسة الحوار بين الله والانسان . واما يوحنا الواعظ ، فكان يخاطب قلوب المصلين مباشرة ، وكان يبدو انه عالم بكل طرف من اطراف حياتهم وبكل نوع من انواع المحن ، والاعباء ، والتجارب ، والاحزان ، وحتى الافراح ، التي كانت تمر بهم .

وكانت مكانته العظيمة مبنية على معرفته الدقيقة الحنـون بالانسانية ، التي كان ينظر اليها دائما ضمن اطـار الحب الالهي . وكان الجميع يعلمون ان كل فكر هذا الواعظ كان موجها الى التنشئة الروحية لرعيته ، والى سد حاجاتهم ، واظهار حقيقة طبيعتهم لهم ، وحقيقة رسالتهم كابناء لله . ولم يكن يبدو ان هناك اي جانب من جوانب حياة الانسان الروحية الا وألم به ، ولم تكن هناك اية حاجة روحية تشعر بها رعيته الا وعرف اسلوب معالجتها . وقد نظر اليه جميع سكان انطاكيه نظرة حب ، وفي بعض الاحيان نظرة رهبة ، بل ان الوثنيين ايضا كانوا يحترمون طلاقته وبراعته فـي اللغة اليونانية .

وكان يمكن للزائر ان يفكر ، وهو يستمع الى يوحنا فم الذهب ، في ماهية المقومات التي كونت هذا الرسول الفريد المبشر بالكلمة . لقد كان واضحا ان يد الله كانت عاملة فيه ، ولكن ما هي طبيعة الاعداد الدنيوي لمثل هذه الرسالة فـي الحياة ؟

لم تكن ولادة هذا الواعظ ونسبه يختلفان كثيرا عن ولادة العديدين من معاصريه ونسبهم في انطاكيه . لقد كان والداه مسيحيين ، وكانا يحتلان منزلة هامة ومسؤولة بعض الشيء في المدينة . وكان ابوه ملاكا من اصل نبيل ، وقد بدأ حياته العملية في الخدمة المدنية الامبراطورية ، ثم رقي ، بسبب

كفاءته ، الى وظيفة مسؤولة في مكتب كونت الشرق ، وهو لا يزال في مقتبل العمر نسبيا . ولكنه توفي فجأة بسبب اوجه العلاج الطبية المحدودة ، تاركا وراءه ارملته انثوزا وابنها الطفل يوحنا .

لم يكن ذلك الوضع ظرفا غير طبيعي ؛ وقد كرست الارملة الشابة ـ وكانت في العشرين من عمرها ـ نفسها لتعليم ابنها الصغير . ولم تجد انثوزا نفسها مضطرة للزواج ثانية ، كبعض الارامل ذوات الامكانات المادية المحدودة ، اذ انها ورثت من الاملاك ما اغناها عن اتخاذ مثل هذه الخطوة . وقد مكنتها مواردها بالفعل من ارسال ابنها الى اقدر المعلمين في انطاكيه ، ومن بينهم اندراجاثيوس ، الذي درسه الفلسفة ، وليبانيوس، الذي لقنه البلاغة .

وقد كشف تعليم الصبي عن موهبة ملحوظة في الادب والبلاغة ، فصمم يوحنا ـ هنا ايضا كالعديد من معاصريه ـ على ان يستخدم مواهبه في الخدمة المدنية التي كان ابوه قد نجح فيها ، ومن اجل ذلك ، كان من الضروري له ان يدرس القانون بعد فراغه من دراسة البلاغة .

وكان يوحنا فم الذهب يقوم بواجباته المسيحية تحت اشراف أمه ، اثناء تلقيه العلم على ايدي معلميه الوثنيين . وفي سن الثامنة عشرة ، مر بتحول هو ، حرفيا ، تحول الى

الله ، وهو شيء لم يكن قد شعر به من قبل . ولم يدون يوحنا ظروف هذا التحول ، ولكن هذا الشاب ــ وكان من يصل سن الثامنة عشرة يعتبر في سوريه قد حصل على قدر من النضج العقلي ــ عرف الآن تماما ماهية رسالته في الحياة كمسيحي . وكان ميليتيوس ، اسقف انطاكيه ، قد لاحظ تلك المواهب الشخصية التي يتحلى بها ، وادرك مدى ما يمكن ان يصير اليه ، فألحقه بحلقة الطلاب الذين كان يجمعهم حوله. وبما انه لم تكن هناك حلقات تدريسية في علم اللاهوت في ذلك الوقت ، فقد كان الاساقفة يجمعون حولهم الشبان الذين يرجى منهم الخير ، لتشجيعهم على ارتسام الكهنوت ، وكانوا يلقنونهم العلم كلما سمحت لهم الفرصة .

كانت هذه فرصة رائعة بالنسبة ليوحنا الشاب . وقد نمت عقيدته ورسخت بفضل تدريس الاسقف له، وتأثيره الشخصي عليه . وتقدم الشاب في علومه حتى وصل الى الحد الذي يؤهله لان يعمد في الكنيسة ، وبعد ذلك بثلاث سنوات توصل الى درجة قارىء ، وهي رتبة بسيطة في الكنيسة تسمح له بقراءة الاجوبة وترتيل الصلوات .

بدأ يوحنا الآن دراسته ، الى جانب دروس الاسقف ، مع اللاهوتي الشهير ديودوروس الطرسوسي ، الذي كان راهبا عالما استقر في دير انطاكيه واجتذب اليه ، بعلمه وورعه ، عددا من التلاميذ . وقد ظل يوحنا طيلة هذه الفترة يعيش في

بيته حياة تقشف قاسية ، فكان يأكل قليلا ، وينام اقل ما يمكن ، ويكرس وقته كله للدراسة والتعبد .

وسرعان ما بدأ يوحنا يفكر في اتخاذ الخطوة التي كانت في العادة تتلو هذه الطريقة في العيش ، وهي الانسحاب من العالم الى الصحراء ، او الى كهف في الجبل المطل على انطاكيه ، حيث يمكن له ان يصرف وقته كله في الصلاة والتأمل ، بعيدا عما يشتت الفكر في العالم . فلكي يصل الانسان الى ذروة الروحانية ، كان من الضروري له ان يحرر نفسه من مغريات العالم . ولكن أمه رجته الا يرملها ثانية ، ويترك لها وحدها مسؤولية ادارة البيت وممتلكات العائلة .

الا ان الشاب شعر ان رسالته تدعوه بشدة لا سبيل لمقاومتها ، فقرر ان يبتعد عن العالم . ولا شك ان أمه ادركت حتمية هذه الخطوة . وفي الجبال القريبة من انطاكيه ، وجد يوحنا ناسكا عجوزا يعيش في احد الكهوف ويدعى سيروس ، فقضى بصحبته اربع سنوات ، تعلم منه الحكمة فيها ، ودرب نفسه خلالها على التحكم في رغباته ومقاومة استمالة العالم الحتمية لاي شاب يتمتع بكامل قوى الشباب . وكان التدريب العادي للشبان الراغبين في دخول الحياة الدينية يتلخص في السيطرة على الجسم ، والخلوة ، وتناول النزر القليل من الطعام ، والصلاة المتواصلة .

ويذكر كاتب سيرة يوحنا ، واسمه بالاديوس ، انه عندما

تغلب في النهاية على اغراءات اللذة « عن طريق العقل اكثر مما عن طريق العمل المضني ، انسحب الى كهف وحده ؛ بسبب رغبته الشديدة في ابعاد نفسه عن العالم ، وقضى فيه اربعة وعشرين شهرا ، حرم نفسه النوم في معظمها ليتفرغ لدراسة مواثيق الله (اي العهد القديم والعهد الجديد) ، من اجل التخلص من الجهل . ونتيجة لتينك السنتين اللتين قضاهما دون اضطجاع ، فقد تبلدت اعضاء معدته ، وأثر البرد على وظائف كليتيه تأثيرا سيئا » . وعاد يوحنا الى انطاكيه ، بعد ان اخفق في معالجة نفسه ، وبعد ان آمن أنه يجب الا يضحي بحياته بهذه الطريقة .

وقد عاد يوحنا الى انطاكيه بعد ان تغير باطنه تغيرا كاملا كما كان يأمل ، وشعر الآن انه مستعد لتكريس ذاته لخدمة الله ، بعد ان ضبط نفسه ونجح في اخضاع قواه وافكاره جميعها لسيطرة نظرته الى المسيح . ولكنه احس قبل كل شيء ، مثل الكثيرين غيره من الشبان في ذلك الوقت ، بالحاجة الى فترة اخرى من الدراسة ، ورجا ان يصرف وقته بالتأمل والحديث مع صديق له في مثل سنه ومحيطه ، هو باسيل . ولكن الاسقف والكهنة كانوا قد راقبوا يوحنا لمدة طويلة ، لادراكهم بانه يتمتع بمواهب خارقة ، وفي النهاية اضطر يوحنا الى الاذعان لهم ، فقام صديقه الاسقف ميليتيوس برسمه شماسا سنة ٣٨١ . وبعد خمس سنوات ، رفعه خليفة ميليتيوس ، وهو الاسقف فلافيان ، الى درجة الكهنوت،

وعينه عضوا في هيئة الكاتدرائية ، حيث كان يقوم بالوعظ ويشترك في الاعمال الرعوية المختلفة التي نشأت حول الكنيسة الرئيسية في المدينة .

وتلفت يوحنا حوله ، فوجد امورا عديدة ومتنوعة تحتاج الى خدمات الكهنة المسيحيين في انطاكيه في ذلك الزمان . وكان قد مر على تحرير القديس قسطنطين الكبير للمسيحية اجل لم يتعد السبعين سنة ، ولكن ، رغم ان العهد الجديد الذي رحب به المسيحيون في عهد قسطنطين كان قد تثبت بالتأكيد ، الا انه لم يكن قد وصل الى درجة الاكتمال . فلم تكن الوثنية قد انقرضت كليا ، بل بالعكس ، فقد اظهر الدين القديم صلابة مدهشة في اجزاء عديدة من الامبراطورية ، وكانت انطاكيه لا تزال احد المراكز الرئيسية للمذاهب القديمة . ومع ان الامبراطور ثيودوسيوس كان قد اصدر سلسلة من البلاغات يمنع بموجبها العبادات الوثنية وتعاطي السحر والعرافة ، الا ان الانصياع لهذه البلاغات كان مؤقتا ، وبعد مدة اصبحت هذه البلاغات مجرد حبر على ورق ، وثبت ان الوثنيين الاقوياء في الامبراطورية كانوا يشكلون اعدادا لا يستهان بها : لقد كانت الوثنية اعمق جذورا من ان تنتهي بمجرد اصدار القوانين . وهكذا ، ومع ان مدينة يوحنا فم الذهب كانت مقرا قديما للعقيدة المسيحية ايضا ، الا ان مهمة تحويل الناس جميعهم فيها الى اتباع للمسيح لم تكن قد اكتملت بعد .

وهكذا ، وجدت الطائفة المسيحية نفسها ، وهي التي كانت تعتز بانحدارها الروحي من الرسل الذين سموا مسيحيين لاول مرة فيها، مضطرة لان تعيش في مدينة عظيمة تحتوي في كل جزء منها على معالم تذكر الناس باسلوب الحياة الوثني . والحقيقة ان المسيحيين والوثنيين كانوا مضطرين للعيش في عالم واحد ، وللمشاركة في ثقافة مادية واحدة وفي اعمال ومهن يومية مشتركة . وكان يوحنا يعلم ، من خبرته الشخصية ، ان الحياة المسيحية كانت تفرض على الطبيعة البشرية ما فيه الكفاية من المتطلبات ، ولم يكن المسيحيون جميعهم قد وهبوا القدر نفسه من القوة . ولذلك عندما وجد المسيحي نفسه مضطرا للعيش في وسط كل ما يلهي ويغري في العالم الوثني القديم ، كان يحس ، كما يعلم الجميع ، بخطر كبير يداهم روحه . وكانت مهمة تحويل الوثني الى الدين الجديد ، وتحصين المسيحي في دينه ، مهمة غاية في الصعوبة تواجه الكهنة في ايام يوحنا فم الذهب . ولم يكن تحويل الوثنيين امرا يتصل بالاصلاح الاخلاقي فقط ، اذ ان ما ميز المسيحيين عن الوثنيين ، وما اقام بينهما تلك الهوة ، كان ان المسيحيين لم يتبعوا حياة افضل وحسب ، بل عاشوا حياة تختلف كليا عن حياة الوثنيين .

كان يوحنا فم الذهب قد نما وترعرع اثناء فترة الخلاف الآريوسي ، وهو الخلاف حول طبيعة المسيح الذي كان قد قسم الجزء الناطق باليونانية من الامبراطورية الى قسمين .

وكان السؤال هو التالي : هل كان جوهر المسيح ، ابن الله ، هو جوهر الله الآب نفسه ، ام ان المسيح كان مخلوقا اقل رتبة ، خلقه الله ووهبه طبيعة اسمى من طبيعة البشر ، ولكنها ادنى ، في الرتبة والالوهية ، من جوهر الآب ؟ كان هذا السؤال الذي طرحه الكاهن المصري آريوس قبل ايام يوحنا بخمس وستين سنة . هل كان المسيح الها ام انه كان مجرد انسان ـ انسان يتمتع بقدسية خارقة ، ولكنه انسان على اي حال ؟ وكان هذا السؤال حيويا لانه كان يؤثر على فكرة خلاص الانسان . فالفداء والخلاص اللذان اتى بهما مسيح ، هو في الحقيقة ابن الله ، ومن جوهر الآب ، ومن درجة الوهيته ، يختلف كليا عن الخلاص الذي قدمه رجل قديس ، هو دون رتبة الله الالهية ، رغم ان الله خلقه خلقا خاصا .

كان هذا اخطر سؤال واجهته الكنيسة حتى ذلك الوقت ، وقد فجر في قلوب من خاضوا غمار الاجابة عليه جميع المشاعر والعواطف . وعندما بدأت المنازعات حوله تشكل تهديدا للامن العام ، دعا الامبراطور قسطنطين مجمع نيقيه سنة ٣٢٥ لمعالجته . وكانت الغلبة في هذا المجمع للمدافعين الحنفاء عن الوهية المسيح الكاملة ؛ ولكنه كان للآريوسيين قوتهم وامكاناتهم ، فظل الخلاف مستعرا لمدة خمس وستين سنة ، تعاقب على الحكم فيها اباطرة ثمانية ، الى ان قام اخيرا لاهوتيو كابادوشيه العظام ، وهم باسيل العظيم واخوه غريغوري النيسي وصديقهما غريغوري النازيانزي ، عن طريق

دراساتهم وكتاباتهم ، بتثبيت وجهة النظر الحنيفة تثبيتا تدريجيا لا مجال لزعزعته . وقد قام الامبراطور ثيودوسيوس، الذي كان مسيحيا حنيفا تقيا ، بالدعوة لعقد مجلس في القسطنطينية ؛ اعلن فيه اساقفة الكنيسة عن عقيدة — اصبحت تعرف فيما بعد ، على التناقض الظاهر هنا ، بالعقيدة النيقية — عقيدة تسلم بوجهة النظر الحنيفة . وقام ثيودوسيوس ، رغبة منه في اظهار تمشيه مع عمل المجمع ، باصدار مرسومين امبراطوريين جعلا من البدع جريمة تعاقبها السلطات البشرية مثلما تعاقبها القوة الالهية .

وهكذا ، فقد بدأ يوحنا عمله في وقت كان هذا الخلاف الضاري قد بت في امره اخيرا ، ولكن ذكرى ذلك الخلاف كانت لا تزال حية في العقول ، وكان لا يزال هناك اناس ، ممن اعتنقوا الآريوسية في وقت ما ، يشعرون بانهم لم يتفقوا كليا مع المذهب الحنيف ، وكان هؤلاء عرضة لان تجتذبهم تعاليم قد يقوم بها قائد فكري جديد . وكان يوحنا فم الذهب ومعاصروه الاكبر منه سنا يذكرون زمنا كانت الآريوسية فيه الشغل الشاغل لأهل انطاكيه ، وكانت هذه المدينة نفسها احدى معاقل الآريوسية الهامة . وقد كتب عالم لاهوتي مسيحي آخر ، بعد ان اشمأزت نفسه من المناقشة الدائمة حول هذا الموضوع من كل جانب ان « كل سوق تطن بكلام هؤلاء الناس ، وكل حفلة عشاء تنوء تحت وطأة كلامهم السخيف ، واجنحة سكن النساء في البيوت تعمها الفوضى من جراء هذا الوضع » .

وبدا ليوحنا فم الذهب ان بعض اقرانه من المسيحيين لم يفهموا بالفعل كل جوانب هذا الخلاف . والآن ، ونظرا لان المسيحية كانت لا تزال في طور صياغة معتقدها وتعريفه ، فقد ظهر خلاف آخر حول طبيعة الروح القدس ، وكان هذا الخلاف ينذر بان يكون بمثل صعوبة المشكلة القديمة المتعلقة بجوهر المسيح . وكان الاساقفة في القسطنطينية قد اعادوا تأكيد العقيدة النيقية التي تقول بالوهية المسيح ، ولكنهم ، بعد ان قرروا طبيعة الشخص الثاني من اشخاص الثالوث المقدس، احسوا بضرورة تبديد اي شك حول طبيعة ثالث اشخاص الثالوث .

وكان السؤال حول طبيعة الروح القدس أمرا وجـــد الكثيرون من المسيحيين الاتقياء صعوبة في تفهمه . هل كان لهم ان يتصوروا الروح القدس وكأنه فعل او اعلان عن قوة الله الآب ، او اظهار المسيح الذي أرسله ، ام كان شخصا اصيلا من اشخاص الثالوث ، مساويا ، في جميع الوجوه ، لشخص الآب والابن ، حتى في الالوهية ؟ وكان عمل الروح القدس في حياة المسيحيين معروفا للكثيرين ، ولذلك كان من المهم جدا لهم ان يفهموا ماهيته بدقة .

هذا هو الخلاف الجديد الذي كان لا بد له ان يبرز بعد ان ثار الخلاف الآريوسي . وهنـــا ايضا بـــدأ اللاهوتيون الكابادوشيون يبذلون جهودهم ، عن طريق كتابة الرسائل

العلمية والمناقشات الجدلية ، في الوقت الذي كان فيه يوحنا فم الذهب يباشر عمله في الكنيسة . ومع ان الواجب كان يملي على أي مسيحي ورع بان يساند فكرة ألوهية الروح القدس الكاملة ، الا ان البحث كان مليئا بالصعوبات ، اذ كانت الجماعات المتناحرة ـ هذه تقول بان الروح القدس مخلوق ، وتلك تصر بانه عضو كامل من اعضاء الثالوث المقدس ـ تجمع النصوص من التوراة والانجيل لاقتباسها وروايتها ، مساندة لوجهات نظرها المتباينة .

هذه كانت حالة الدراسات اللاهوتية ، وتلك كانت خلفية العالم المسيحي الفكرية عندما عاد يوحنا فم الذهب الى انطاكيه من عزلته الطويلة . اما هو ، فقد بدا له ، من تتبعه للخلاف اللاهوتي ، ومشاهدته لحياة الطائفة المسيحية في انطاكيه ، ولمشكلاتها العملية الآنية ، انه ، بالنسبة له نفسه على الاقل ، لم يكن هناك مجال للتردد في اختيار عمله في الحياة . صحيح انه كان قد درس اللاهوت بكل دقة ، وانه كان قد امضى ست سنوات في عزلة من التأمل في اسرار الله ، ولكنه ، في موضوع الاختيار بين العلم اللاهوتي وبين رسالته كراع للرعية ، لم يكن يساوره ادنى شك . وكان قراره ان يهب حياته لمسيحيي انطاكيه . وكان بامكانه ان يترك لباسيل والغريغوريين مهمة الحفاظ على صفاء العقيدة ، ولكن هنا ، في انطاكيه ، مدينته ومسقط رأسه المحبوب ، كان هناك عمل لا يمكنه ان يتغاضى عنه . وكانت مسؤولية الكاهن تتطلب منه ان

يؤهل نفسه ليتمكن من معرفة مشيئة الله في عمله ، وماهية العمل الموكول اليه . ان الله قد اظهر نفسه ، وليس على المرء الا ان يتعلم كيف يذعن للوحي الالهي .

وبالنسبة لكاهن مثل يوحنا فم الذهب ، يملك الفرصة والموهبة ، كان العمل في مدينة كأنطاكيه ينقسم الى حقلين ، احدهما روحي والآخر عملي، احدهما تعليمي والآخر دنيوي — مع ان جميع اوجه الحياة المسيحية كانت في الحقيقة واحدة ؛ وكان واجب الكاهن الحكيم الموهوب ان يجمع بين الحقلين ويضمهما معا .

وقد شعر يوحنا فم الذهب منذ شبابه الاول بالرغبة في ان يكون معلما ، ورأى الآن ، وهو يتلفت حوله في انطاكيه ، مدى الحاجة الى التعاليم المسيحية ، من كل الانواع ، وعلى كافة المستويات . وكانت العظة نقطة الانطلاق في ذلك ، وربما كانت انجع وسيلة لاعلان الكلمة ، ولكنها في الوقت نفسه ، ليست وسيلة سهلة باي وجه من الوجوه . فقد ضمت جماعة المصلين في كاتدرائية انطاكيه مسيحيين من جميع المستويات الثقافية ، ابتداء بكونت الشرق ، وحاكم سوريه ، والشيوخ المحليين ، وانتهاء بالمزارعين ، والصناع ، والعبيد الأميين . وكان بعض نساء هذه الجماعة مثقفات ، بينما كان غيرهن من النساء غير متعلمات . ولربما كان ايضا بين المصلين جماعة متخفية من الوثنيين الذين كانوا يفدون الى الكنيسة ليتعلموا

بعض الاشياء عن العقيدة المسيحية . وكـان جميـع هؤلاء الناس ــ بما فيهم اعظم اهل الارض سلطانا ــ بحاجة الى دروس في تعاليم الكنيسة وطريقة الحياة المسيحية . وكان بعضهم يحتاج ، اول ما يحتاج ، الى دروس في الصلاة وفي قراءة الانجيل . وكان بعضهم لا يملك نسخة من الانجيل ، او يملك بعض اجزائه فقط ، وحتى هؤلاء لم يكن بوسع احد ان يجزم بأنهم يقرأونه كل يوم . وكانت مهمة نشر قراءة الانجيل تروق لذوق يوحنا البلاغي ولاحساسه بالمحبـة المسيحية . وكان عليه ان يخطط عظاته بشكل يجعل فيهـا شيئا من الفائدة لكل فرد من مستمعيه . ومن هذا المنطلق ، تعلم يوحنا فن البساطة التي تتميز بها العظة العظيمة .

لكن المهمة ، كما عرف يوحنا ، لم تكن محصورة في شرح الكتابات المقدسة وتلقين المصلين التعاليم المسيحية ــ على الرغم من ان هؤلاء المصلين كثيرا ما كانوا لا يتلقون غير هذا القسط من الثقافة الدينية . وكانت الحاجة للتعليم الاخلاقي ملحة ايضا . فقد كان المسيحيون يعيشون جنبا الى جنب مع الوثنيين ، شركائهم في المواطنة ، وكانوا في بعض الاحيان من اقرباء أولئك الوثنيين ، الذين علمتهم ثقافتهم منذ العصور القديمة ان غاية وجود الانسان على الارض هي المتعة الجسدية والنجاح المادي ، وان جسم الانسان وسيلة مبهجة مـن وسائل المتعة .

وكان يوحنا مؤهلا للكلام عن هذا الجانب بالذات من الحياة في انطاكيه . فقد كان له من العمر ما يجعله يذكر حكم يوليان المرتد ، ومحاولته احياء الوثنية ثانية . وكان قد تدرج هو نفسه في مراحل المنهاج الكلاسيكي جميعها ، فقرأ اعمال الكتاب الوثنيين ، ودرس اسلوبهم ، وكان العديدون من رفقائه في المدرسة من الوثنيين . وكان الناس يشاهدون ، في مدينة وثنية الاصل كانطاكيه ، مظاهر الحياة القديمة في كل مكان — في الابنية العامة ، وفي الحمامات ، والبيوت الخاصة ، التي كانت اللوحات فيها، والفسيفساء ، والتماثيل، تظهر المشاهد من الاساطير الوثنية ومباهج الحياة آنذاك . وكانت هناك عائلات كثيرة مسيحية بالاسم تحتفظ بالعادات الوثنية ، مثل الموسيقى ، والرقص ، وجميع انواع المرح والطرب في الاعراس ، التي كانت خليقة بان تعتبر مناسبات دينية محضة . وقد ظل بعض المسيحيين يرتدون الطلاسم الوثنية . وقد هاجم يوحنا ، في احدى خطبه التي القاها في عدد من معتنقي المسيحية الذين كانوا يتهيأون للعماد المسيحي ، « أولئك الذين يستعملون الطلاسم والاحجبة ، ويطوقون رؤوسهم وأقدامهم بقطع النقود الذهبية المنقوش عليها رسم الاسكندر المقدوني » . وكان يوحنا يدرك جيدا ان الالعاب الاولمبية المحلية ، برغم تطهيرها من اكثر العناصر اساءة للفكر المسيحي ، كانت لا تزال احتفالات وثنية . وكان يقام في شهر ايار (مايو)، كل ثلاث سنوات، احتفال المايوما بمظاهره التهتكية الليلية التي لا توصف ، والتي ربما كان اكثرها اساءة

في نظر يوحنا فم الذهب ، بسبب تكراره اليومي ، المسرح الذي كانت تصور فيه رقصات الباليه والتمثيل الصامت حياة الآلهة والالاهات الخاصة الخليعة . وكان يوحنا يعلم انه لم يكن من الصعب على هذه الحفلات المسرحية ان تقوض الخلق المسيحي لبعض افراد رعيته ، وكان دائم التحذير باشد العبارات من هذه المباهج الدنيوية . وكان يوحنا خليقا بان يبتهج لان المصارعات المثيرة ، على الاقل ، كانت قد أوقفت في انطاكيه ابان عهد ثيودوسيوس . ولم يكن سهلا على الواعظ المسيحي ان يزاحم ملاهي وملذات مدينة وثنية مثل انطاكيه . ولكن يوحنا فم الذهب ادرك ان هذه كانت واحدة من اعظم المهمات والفرص المطروحة امامه . وقد شحذت المشاهد التي رآها في المجتمع من حوله غريزته كمعلم وراع ديني . وكانت بعض الامور الانيقة والبهيجة بالنسبة للوثنيين تظهر للمسيحيين وكأن بها لمسة من القذارة . وربما لم يكن مما اساء الى المسيحية كليا اضطرارها للعيش ، الى حد ما ، في كنف الوثنية ، لان هذا التلاصق اظهر مدى اختلاف الحياة المسيحية عن الحياة الوثنية . وقد ادرك المسيحيون المتبصرون هذا ، واستطاع راعي النفوس الحاذق ان يجعل من هذه النقطة أساسا لتعاليمه .

لكن ، كانت هناك حاجة ايضا الى انواع اخرى من التعليم ، لها ، من بعض النواحي ، طابع اخص من تلك . فكانت احدى وظائف يوحنا فم الذهب تعليم الكبار الذين تحولوا الى

المسيحية وكانوا في ذلك الوقت يتهيأون للعماد ولنيل القبول في الكنيسة رسميا . وكان هذا النوع من التعليم يتطلب مقدرة خاصة ، اذ ان هؤلاء المتحولين كانوا يأتون من جميع الطبقات ويمثلون مختلف انواع التعاليم والخلفيات الدينية . فمن فلاسفة لا ينتمون الى اي مذهب معين ، الى اتباع لمختلف المذاهب المعروفة آنذاك في العالم الوثني، الى متحولين من اليهودية احيانا . وكان بعض المتحولين الى الدين الجديد مخلصين في ما عزموا عليه ، واما في بعض الحالات الاخرى ، فكان من المشروع الشك فيما اذا كانت رغبة هؤلاء الراغبين في اعتناق المسيحية مدفوعة بغير البواعث الدينية المحض .

وكان على الراعي ان يعلم جميع هؤلاء المتحولين أسس العقيدة وان يجيب على اسئلتهم . وكان عليه ان يكون مستعدا لمعالجة استفساراتهم واعتراضاتهم المحتملة المبنية على مدارس الفلسفة المختلفة . وكان يمكن للراعي ، في الحالات التي تكون فيها اعداد المتعلمين كبيرة ، ان يقسمهم الى شعب، حسب المحيط الذي جاؤوا منه ، أو حسب مرحلة تطورهم في فهم العقيدة ، ولكن كان عليه في كثير من الاحيان ان يدرسهم دفعة واحدة ، وكان على المدرس ان يصمم محاضرته تصميما غاية في الدقة . وكانت العمودية تتم يوم عيد الغطاس وعشية عيد الفصح ، وكان المعمدون يتلقون دروسا قبل الاحتفال وبعده .

وكانت المعمودية ، في اغلب الاحيان ، مقصورة على الكبار ؛

ولكن تعليم الاطفال كان يعتبر من اهم وظائف التعليم المسيحي واكثرها ضرورة . وقد كون يوحنا فم الذهب مهارة وبصيرة في هذا المضمار جعلتا هذا الجانب من حياته الكهنوتية من اكثر مراحل حياته فعالية .

وتظهر الرسالة التي كتبها يوحنا حول هذا الموضوع موهبته الخارقة في تعليم الاطفال وتفهم حاجاتهم . وقد كتب فم الذهب هذه الرسالة لفائدة الآباء ، لانه كان يقصد ان يشير بشكل خاص الى ان اهم مرحلة من مراحل تعليم الطفل كانت تتم في البيت . ومع ان الاطفال كانوا يؤخذون الى الكنيسة في سن مبكرة ، ومع ان الآباء ذوي اليسار كانوا يرسلون ابناءهم الى المدرسة ، فقد كان يبدو ليوحنا ان عمل الآباء في البيت كان أهم من غيره . فكان التعلم يبدأ ، حسب رأيه ، في السنين المبكرة المشكلة لعقل الطفل ، التي فيها يصوغ الآباء ، بواسطة ميولهم ورغباتهم ، كآباء ، عقول اطفالهم . وقال ان البعض ربما اعتقدوا ان هذه امور لا اهمية لها ، ولكنها بالفعل ذات اهمية عظمى . وقد كتب يوحنا : « اذا طبعت الاشياء الحسنة في النفس وهي لا تزال يافعة ، فلن يقدر اي انسان على محوها بعد ان تثبت ، تماما كما يثبت الختم الشمعي . ففي هذه المرحلة ، يرتجف الطفل خوفا في مظهره وكلامه وفي كل شيء آخر . افد من بداية حياته كما يجب . واذا كان عندك ابن صالح ، ستكون انت اول المنتفعين ، ومن بعدك الله . فأنت انما تعمل لنفسك » . فالآباء ، شأنهم شأن

النحاتين والرسامين ، يجب ان يخصصوا كل اوقات فراغهم لتكوين هذه التماثيل الجميلة التي صنعها الله ، اولادهم . فالحواس كلها ــ العين واللسان والسمع والشم واللمس ــ هي البوابات التي تحمي المدينة التي هي روح الطفل ، ويجب على هذه الحواس ان تتدرب وتخضع للنظام والتهذيب .

ان كل ما يقال للطفل يترك أثرا فيه . « فلنبعد الاطفال ، اذن ، عن سماع اي شيء مؤذ من الخدم او المعلمين او المربيات » . ولذلك ، فلا ينبغي أن تروى لهم القصص التافهة التي تفتقر الى الجدية . وكان يوحنا يعرف جيدا انواع القصص الغرامية المتداولة آنذاك ــ « هذا الشاب قبل تلك الفتاة . ابن الملك والابنة الصغرى فعلا كذا » . ويجدر بالآباء ان يرووا لاطفالهم ، بدلا من هذه القصص ، بعض القصص المعروفة من العهد القديم ، وان يبذلوا جهدهم لجعل هذه القصص مقبولة سائغة ، وان يقصوا الرواية بأسلوب يشجع الطفل على ايجاد المعنى بنفسه . ويجب على الأم ان تكون حاضرة اثناء قيام الاب برواية القصة لتمدح القصة وتسأل الاسئلة المناسبة . وبعد ذلك يمكن للآباء ان يأخذوا الطفل الى الكنيسة ، حيث يستمع الى القصص نفسها وهي تقرأ كجزء من القداس . وسيقفز الطفل من الفرح حين يسمعها لانه يعرف ما لا يعرفه الاطفال الآخرون . وسيتعرف الطفل على جميع تفاصيل القصة عندما يقرأها الكاهن او الشماس ، وبذلك تعلق في ذاكرته الى الابد .

ويجب الا يحمل الاطفال اسماء أجدادهم ، بـل أسماء الشهداء والاساقفة والرسل . وبهذه الوسيلة سيكون عندهم الحافز الدائم على تقليد القديسين اصحاب الاسماء التـي يحملونها .

وهكذا يتعلم الطفل كيف يعيش في بيته ، وكيف يقلد آباءه في سلوك الواحد منهم تجاه الآخر وتجاه عبيده . وقد صرح يوحنا ان هذا كله ليس مجرد نظريات . « انا لا اتكلم عن أمور تافهة . نحن نبحث هنا مسألة ادارة العالم » . وقد أوصى يوحنا بالزواج المبكر ، قبل ان يبدأ الشاب حياته العملية في الجيش او في الخدمة السياسية . فاذا تزوج الشاب وعروسه وهما لا يزالان عفيفين « افلا يكون سحر حبهما نقيا تماما ؟ وفوق كل شيء ، ألن يكون الله ، والحالة هذه ، اكثر رحمة بهما فيسبغ على ذلك الزواج النعم بلا حساب ، عندما يجتمعان حسب شرائعه ؟ انه يجعل الشاب يتذكر حبه دائما ، واذا ربطه هذا الحب ، فسوف يزدري حب اية امـرأة اخرى » . هكذا كان المثل الاعلى الذي وضعه يوحنا فـم الذهب أمام الآباء المسيحيين في انطاكيه .

لكن الوعظ والتعليم لم يستحوذا على حياة يوحنا كليا . فبصفته عضوا في جهاز الكنيسة العظيمة ، كانت تقع عليه مسؤولية المشاركة الايجابية في عمل الاحسان الذي كانت الكنائس جميعها مراكز له في تلك الايام ، وبتحديد اكثر ،

الكنيسة الرئيسية في كل مدينة . اما في ايام الامبراطورية الرومانية الوثنية ، فكان الشعور العام ــ وهو احدى حقائق الحياة المسلم بها اذ ذاك ــ انه لم يكن للدولة ولسلطاتها المدنية، سواء أكانت محلية ام امبراطورية ، اية مسؤولية تجـاه تخفيف الفقر والبطالة بشكل منظم ، او تجاه العناية الصحية بالمرضى من الفقراء . اما في حالة وقوع نكبات عامة خطيرة كالهزات الارضية او المجاعات ، فكانت السلطات الامبراطورية تقدم مساعدات سخية، ولكن النظام الاقتصادي، الذي تسبب في خلق طبقة كبيرة من الناس تتصف بطبيعة الحال بالفقر والبطالة ، لم يقدم أية مؤونة لاعالتهم .

وفضلا عن ذلك ، فقد تسببت امكانات الطب المحدودة والاجراءات البدائية في حقل النظافة العامة في ارتفاع نسبة الوفيات . وكان الشبان المتزوجون ، ومنهم مثلا والد يوحنا فم الذهب ، يموتون من اصابات معدية حادة ، لو انها وقعت بعد ذلك التاريخ ببضع قرون ، لادرك الاطباء حالا انها التهاب الزائدة الدودية ، وعالجوها بنجاح . وكان الالتهاب الرئوي مرضا شائعا ومميتا في معظم الاحيان ، بل ربما في الاحيان جميعها . ولم يكن بالامكان السيطرة على انتشار الاوبئة ؛ فمثلا ، حدث قبل الحقبة التي عاش فيها يوحنا بمئتي سنة ان انتشر مرض الجدري واهلك عددا كبيرا من الناس ، ولم يعرف له في ذلك الوقت سبب او علاج ، ولم يكن بالحدث النادر ان يموت الزوج والزوجة في وقت واحد . وكانت

النتيجة الحتمية في المدن الكبيرة مثل انطاكيه ان كثرت الارامل ، من شابات ومتقدمات في السن ، وكثر الايتام ، وكانت رعاية الارامل واليتامى احدى مسؤوليات الكنيسة الرئيسية . فقد كان من المستحيل تقريبا ، في تلك الايام ، ان يجدوا عملا ، او ان يفلتوا من الاستغلال والغواية .

كانت المشكلات العملية كثيرة وصعبة ، وقد تعلم يوحنا فم الذهب كيف يعالجها . فأولا ، كان من الضروري الحصول على المال لتأمين الطعام واللباس لعدد كبير من الناس كانت الكنيسة ، بالنسبة لهم ، العائل الوحيد . وقد أقيمت في الساحة المحيطة بالكنيسة الكبيرة مطابخ لتهيئة الطعام للمحتاجين ، وكان الشمامسة والموظفون المسؤولون عن المطبخ يقومون بالمراقبة المتواصلة للمصطفين ، ليخرجوا من بينهم من هم غير مؤهلين لاستلام المؤونة ، او من كانوا قد استلموا مؤنهم في ذلك اليوم . وكان هذا كله يكلف مالا ، وقد واجه رجال الدين صعوبة جمة في اقناع المصلين بان يقدموا العطايا ، حتى البسيطة منها ، لكونها ضرورية لتمكينهم من مواصلة هذه الخدمة الأساسية .

كم كان محزنا ان يضطر رجال الدين الى التسول من اجل مثل هذه الغاية في مدينة من أغنى مدن العالم .

وشعرت الكنيسة ، الى جانب رعاية الارامل والايتام ،

والفقراء والمرضى ، بواجب رعاية الغرباء والمسافرين . فقد كان النزول في الخانات يكلف كثيرا ، فضلا عن خطر الاقامة فيها بالنسبة للكثيرين . وكان النزلاء عرضة للسلب ، وكثيرا ما كانت الخادمات من العاهرات . ولما كانت الكنيسة تشعر بوجوب عدم تعريض المسافرين المسيحيين لمثل هذه الخانات، فقد اقامت مرافق لنوم الغرباء والمسافرين في جميع انحاء الامبراطورية ، والحقتها بالكنائس في جميع المدن والقرى التي سمحت الامكانات باقامتها فيها . وفي منطقة انطاكيه ، كان يفد بالضرورة الى المدينة الكبيرة اناس من منازل متواضعة في الحياة ، اما لتصريف بعض اعمالهم الخاصة ، او لتقديم العرائض الى السلطات المعنية ، في حالة قدومهم لاغراض قضائية . ومن ناحية اخرى ، كان هذا الترتيب يناسب اغراض رجال الشرطة ، اذ كان يمكنهم من معرفة هويات الزوار ومراقبة نشاطاتهم . ولهذا كله ، كانت رعاية المسافرين خدمة عامة اخرى تقدمها الكنيسة الكبيرة في انطاكيه .

ومن أجل التصريف الروتيني لهذه الخدمات ، كان من الضروري لرجال الدين التابعين للكنيسة الكبيرة ان يكتسبوا المقدرة على معالجة مشكلات التمويل والتموين . ولكن مشكلة ايجاد المواهب الخاصة لتأمين الحاجات المادية لمثل هذه المجموعة الخاصة والمتغيرة من المصلين كانت لا تقاس بالمشكلات الهائلة المتعلقة بتوفير الرعاية الروحية لهم . وقد ألم يوحنا بهذه المشكلات ، الماما وثيقا . وقد كتب في رسالته « في

الكهنوت » On the Priesthood ، التي تفصّل واجبات رجال الدين ، عن هذه المشكلات بما يشير الى انه كان اخصائيا في هذا الموضوع ، اذ قال : « ومن ناحية ايواء الغرباء ورعاية المرضى ، تأمل ضخامة النفقات اللازمة لها ، ومستوى الدقة والحصافة الواجب توفرهما في من يتولون مسؤولية هذه الامور . فانه من الضروري في كثير من الاحيان ان تنفق مبالغ طائلة ، وعلى الكاهن المسؤول ان يجمع بين الدراية والحكمة من جهة وبين المهارة في فن التموين من جهة اخرى ، ليتمكن من استمالة الموسرين الى تقديم العطاء من غير شح ، وتجنب مضايقتهم في الوقت نفسه . ولكن الحاجة تدعو الى المزيد من الغيرة والمهارة ، لان المرضى مخلوقات ليس من السهل ارضاؤهم ، وهم يميلون الى التقاعس ، وان أي اهمال في العناية الواجبة لهم قد يلحق بهم ضررا » .

اما الفتيات غير المتزوجات من بين اليتامى فقد كن في خطر كبير ، بسبب كونهن بدون حماية . فقد كانت تندس بين هؤلاء الفتيات نسوة مشبوهات في اخلاقهن ، ولربما أدى ذلك الى جر اليتيمات الى مزالق خطرة . واما النساء المتقدمات في السن من الارامل ، فكانت لهن مشكلاتهن الخاصة . فسواء أزارهن المواسون في بيوتهن ، ام التقوا بهن في الكنيسة ، فقد كانوا يسمعون الكثير عن همومهن . ويقدم لنا فم الذهب صورة حية لهن في قوله : « لقد نمت بين الارامل عادة خسيسة تتمثل في اضاعة الوقت وتجريح الواحدة للاخرى ،

فهن اما يتملقن الناس او يقللن أدبهن » . وكانت الارامل ، بعكس غيرهن من النسوة المحترمات اللواتي كن يقضين وقتهن في البيت ، منهمكات في واجباتهن اللائقة بهن ، « يظهرن علنا في كل مكان ويقضين وقتهن وهن يتمشين في الميادين العامة » . وهذه كانت بعضا من هموم الراعي الديني . ولكن مقابل هذا ، كان من الصحيح ايضا ان النساء في عصر يوحنا كن يكتسبن نفوذا متزايدا في شؤون الكنيسة ، ويساهمن بطرق شتى في الخدمة المسيحية .

تلك كانت واجبات الكاهن اليومية — وفرصه — في انطاكيه . وفي مدينة بمثل حجم انطاكيه ، كان الكاهن يواجه متطلبات خاصة واخطارا معينة . وكان احد مصادر الازعاج للطائفة المسيحية ايام يوحنا فم الذهب هي استمالة اليهودية لبعض المسيحيين ، وخاصة النساء منهم . وبالفعل ، فقد اضطر يوحنا في السنة الاولى بعد ارتسامه ان يحذر جماعة المصلين في كنيسته من هذا الخطر . وقد انجذب بعض المسيحيين ، الذين اقلقتهم او حيرتهم الخلافات اللاهوتية ، الى اليهودية . وقد جذبت غيرهم الشائعات عن العلاجات الخارقة التي تفعلها بقايا المكابيين ، الذين ماتوا في عهد انطيوخوس الرابع . وكان يظن ان تلك البقايا ، التي كانت تحفظ في كنيس في انطاكيه ، حول فيما بعد الى كنيسة مسيحية ، كانت تملك قوة شفائية . وبالطبع ، فقد نمت حول هذه البقايا بدعة باتت تشكل اغراء وخطرا كبيرا لهؤلاء

المسيحيين الذين لم يكن ايمانهم قد رسخ وتثبت . وقد انجذب مسيحيون آخرون الى الطقس اليهودي ، خصوصا فيما يتعلق بطبيعة صومهم الديني . وقد سعى يوحنا فم الذهب في عظاته الى التأكيد بانه لن يصيب المسيحبين من مظاهر الديانة اليهودية هذه الا التشتت والضلال ، خصوصا اذا كان المامهم في شؤون التعاليم المسيحية مغلوطا .

وحل بانطاكيه كلها ، في السنة الثانية بعد ارتسام يوحنا ، طارىء اخطر وأدهى ، وجد فيه يوحنا ورفقاؤه من الكهنة فرصة عظيمة لمساعدة اهل المدينة والتخفيف عنهم . ففي سنة ٣٨٧ ، بدأت انحاء الامبراطورية جميعها تحس بضيق كبير ، نتيجة لاحداث سبقت تلك السنة . فقد اضطر المسؤولون الى رفع الضرائب ليتمكنوا من اعادة بناء الجيش الذي كان قد دمر في معركة ادرنه ، قبل ذلك بتسع سنين ، عندما هزم القوط الامبراطور فالنز وقتلوه . واتلفت الحروب الاراضي التي كانت من قبل تنتج غلة وتدر دخلا للخزينة ، كما اضطر الامبراطور ثيودوسيوس الى انفاق المبالغ المتزايدة للدفاع عن الامبراطورية في وجه البرابرة .

وهكذا ، فعندما وصل مرسوم امبراطوري الى انطاكيه في اوائل شهر شباط من سنة ٣٨٧ يعلن رفع الضرائب ، حدث رد فعل قوي . وكان اهل انطاكيه معتادين دائما على التصريح لحكامهم بحرية عما يجول في خاطرهم ، وكانوا يعتبرون ان

لهم حق الانفجار حين يشعرون بأن الضغط عليهم زاد عن حده . وعندما وصل المرسوم ، استدعي شيوخ المدينة كالعادة الى دار المحكمة dikasterion ، حيث قرأ عليهم المرسوم مخبر امبراطوري ، معلنا الرسالة الامبراطورية بشكل رسمي – وكانت طريقة الاعلان هذه احدى بقايا العصور الغابرة حين كان اكثر الناس أميين . اما هذه المرة ، فقد حدثت مقاومة من قبل الشيوخ حال تلقيهم الخبر ، اذ شعروا ان دفع المبالغ المطلوبة كان امرا لا يطاق . ومن ثم توجهوا الى منزل كلسوس ، حاكم سوريه ، ليطالبوه بتخفيض قيمة الضريبة . ولكن الحاكم ، الذي كان ولا شك يتوقع مثل هذه الخطوة ، رفض الاستجابة لطلبهم . فتوجه الشيوخ الى منزل الاسقف فلافيان – وكانت خطوتهم هذه دليلا على المنزلة الرفيعة التي كان يتمتع بها الاساقفة المسيحيون في ذلك الزمن – ولكنهم لم يجدوا الاسقف في بيته . وكانت هذه مصادفة أليمة اذ انهم ، لو وجدوا الاسقف، لتكلم اليهم ، وربما نجح في الحيلولة دون وقوع الكارثة التي تلت تلك الاحداث .

في تلك اللحظة ، كان قد تجمع جمهور من الناس . وكما يحدث في كثير من هذه الحالات ، اندست بعض العناصر المشبوهة في هذا الجمهور وتولت قيادته ، فتحول الجمهور الى كتلة بشرية عمياء ، واندفع نحو بيت الحاكم . وكان الخدم والحراس قد اقاموا الحواجز حوله (لعلمهم ان جمهورا مماثلا

كان قد قتل حاكما آخر يدعى ثيوفيلوس قبل اربع وثلاثين سنة ، اثناء احدى المجاعات) ، فهاجم الجمهور الباب ولكنه لم ينكسر . عند ذاك ، اجتاح المتظاهرون الرواق القائم امام دار المحكمة ، بعد ان اقتحموا حماما عاما ، حيث رفه بعض الشرسين عن انفسهم بقطع الحبال التي كانت تتدلى منهـا المصابيح المعلقة .

وعند هذه النقطة ، كان الجمهور قد خرج عـن وعيـه ، فانقلب الهياج الى ثورة . وكانت هناك امام دور المحاكم لوحات خشبية تحمل صور افراد العائلة الامبراطورية . وكان لهذه الصور الصفة المقدسة نفسها التي كانت تحيط بالمنصب الامبراطوري . وفي الحقيقة ، فقد كانت صورة الامبراطور في قاعة كل محكمة تعني ان الامبراطور ، باعتباره تجسيدا للقانون نفسه ، موجود في كل محكمة امبراطورية اينما كانت، وباسمه كانت تصدر جميع الاحكام القانونية . ولكن غضب الجمهور كان منصبا على شخص الامبراطور ، فأخذ بعض افراد الجمهور الحجارة ورموا الصور بها ، فلـم تلبث ان تشققت ، ثم تحطمت كليا .

لم يكن امر كهذا قد حدث في انطاكيه من قبل ، فقد كان عمل الجمهور بمثابة قذف للامبراطور نفسه بالحجارة ، لان قوة الامبراطور كانت تكمن في صورته ، وما صنع بحق الصورة كان يعتبر وكأنه صنع بحق الامبراطور نفسه .

ولم يقف الجمهور عند هذا الحد ، بل انتقل ايضا الى مهاجمة تماثيل ثيودوسيوس وزوجته والامير اركاديوس . المصنوعة من البرونز والقائمة في الميدان . وقام الجمهور بربط تلك التماثيل بالحبال وخلعها من اساساتها وجرها في انحاء الميدان . ولما انفصلت رؤوس التماثيل واذرعها ركلها الناس بالارجل على الرصيف الحجري .

في هذه اللحظة ، بعثت السلطات برسلها الى القسطنطينية وهي تحمل الاخبار عن الثورة . فاشعل الناس النار في احد البيوت ، وتضخم الجمهور وانتشر . ولكن مجرى العصيان بدأ يتغير الآن ، اذ وصل الى المكان رماة النبال ، الذين كانوا يخدمون كشرطة للمدينة ، وباشروا في اخماد الحريق . وظهر على المسرح كونت الشرق مع حرسه العسكري ، وبدا باعتقال المتظاهرين . وكان الوقت قد قارب الظهيرة ، وقد بدأ الامن والنظام يعودان الى المدينة .

ومر زمن طويل قبل ان يستطيع اهل انطاكيه ان ينسوا ما حدث في ذلك الوقت . فحالما سيطرت السلطات على الموقف ، تصرفت بأقصى سرعة وبأقصى وحشية — وحسب مفهوم العدالة الشائع في ذلك الوقت . فقد اجريت محاكمات سريعة ، وعوقب كل فرد بحسب درجة جريمته ؛ فقطعت رؤوس البعض ، وحرق البعض وهم احياء ، بينما احتجز آخرون انتظارا لتقديمهم فريسة حية الى الوحوش الضارية

في المدرج الروماني . ولم يستثن الاطفال انفسهم ، فأحرق بعضهم احياء كذلك .

وعندما استعاد الناس رشدهم نوعا ما ، بدأوا يتخيلون انواع العقوبات التي كان يتوقع ان يقرر الامبراطور انزالها بمدينتهم . وكان من المتوقع ، حسب العادة الامبراطورية المتبعة آنذاك ، ان تعاقب المدينة بأكملها . فبدأت الاشاعات تنتشر ، بمثل ما للاشاعات عادة من أساس ؛ منها انه سيسمح للجيش ان ينهب المدينة ويدمرها ، ومنها ان الشيوخ جميعهم سيعدمون ، ومنها ان الحكومة ستصادر الممتلكات الخاصة . وخيم على المدينة السكون ؛ وكان الشعور بالخوف محسوسا .

وقد ايقن الاسقف ورجال الدين، وهم يراقبون الاضطرابات الصاخبة ، ما سيتمخض عنه الامر ، عند انتهاء الشغب ، بالنسبة لرعيتهم من اهل انطاكيه . ولم يكن من الممكن لأي كان ان يوقف الهياج ، ولكن ، عندما تفرق الجمهور ، جاء دور الاسقف وكهنته لمساعدة الناس . ولم يكن الاسقف فلافيان يعرف اكثر من غيره ما يمكن ان يحدث ، ولكنه كان واضحا له ان جميع مواطني انطاكيه ، وثنيين ومسيحيين ، كانوا بحاجة للمواساة والارشاد . هنا ، كانت الفرصـــة مفتوحة لتعليم الناس المذعورين الفرق بين انعدام الامان وبين الأمان الحقيقي .

وقرر الاسقف ان يتجه الى القسطنطينية في الحال ،

ليتوسط لدى الامبراطور . وقبل ان يغادر المدينة ، اختار يوحنا فم الذهب ، بصفته افصح كهنته ، ليلقي في الكنيسة القديمة سلسلة من العظات حول النكبة .

وقد القى يوحنا احدى وعشرين عظة اثناء الصوم الكبير ، تشكل بمجموعها كتاب «في التماثيل» On the Statues . وكانت المدينة في ذلك الوقت قد اخضعت تماما ، وكان المندوبون الامبراطوريون قد وصلوا من القسطنطينية وباشروا التحقيق الذي على اساسه كانوا سيضعون تقريرا وتوصية لرفعهما الى الامبراطور . وقد نقلوا معهم الى المدينة امرا امبراطوريا يقضي بعقاب مبدئي ينزل بالمدينة . وبموجب هذا الامر ، جردت المدينة من لقبها كعاصمة اقليمية ــ مع ان هذا اللقب كان قد اصبح في تلك الفترة مجرد تسمية ، ولكنها ، على اية حال ، تسمية كان يعتز بها اهل المدينة اعتزازا كبيرا ــ واتبعت اداريا بمنافستها القديمة لاوديكيه الشاطىء ، وهي مدينة اصغر من انطاكيه كثيرا واقل منها اهمية . واقفلت الحمامات والمسارح وميادين السباق ــ وكان هذا عقابا اليما لاناس مثل اهل انطاكيه . وأوقف كذلك توزيع الخبز اليومي على فقراء المدينة .

وقد اعتبر شيوخ انطاكيه مسؤولين عن اعمال العنف ، كما جرت العادة في مثل هذه الحالات ، وكانت مهمة المندوبين الامبراطوريين تقرير درجة ذنبهم . وقبل ذلك الوقت ببضع

سنوات ، كان ليبانيوس ، بصفته مواطن انطاكيه الاول ، قد منح رتبة شرف تحمل لقب حاكم قضائي ، وعلى هذا الاساس فقد جلس مع المندوبين اثناء التحقيق . وتجمع جمهور صامت في الشارع حول مقر المندوبين اثناء انعقاد جلسات المرافعة . ووقف يوحنا فم الذهب في اول الامر بين الجمهور الصامت في الشارع ، ثم شق طريقه الى ساحة البناية ، حيث كان بالامكان سماع الوقائع التي تجري في الداخل .

وحضر يوحنا المرافعات كل يوم ، ووعظ كل يوم في الكنيسة القديمة . وكان المندوبون قد اثبتوا انهم عادلون وان كانوا حازمين جدا . ولكن المدينة كانت لا تزال مليئة بالريبة مما قد يحدث ، فقد اعلن ان الشيوخ سيسجنون الى حين وصول قرار الامبراطور من القسطنطينية . وشاهد يوحنا ذلك المنظر الحزين ، منظر الشيوخ وهم يقادون في سلاسلهم عبر السوق الى بناية مجاورة لغرفة مجلس الشورى ، حيث كانوا سيحتجزون .

وكان المواطنون الذين شاهدوا هذه المناظر على استعداد كبير لتقبل ما كان سيقوله لهم واعظهم الشهير . وادرك يوحنا ان في ذلك فرصة سانحة ، فذكر الناس بجشعهم وكبريائهم اللذين كانا سبب الاضطرابات ، ولو انه ، فيما يتعلق بالجزء الاكبر من الفوضى ، انحى باللائمة على الغرباء الذين قدموا الى المدينة من امكنة اخرى ــ ولعله كان مصيبا في هذا

الاتهام . ودعا يوحنا الناس الى ان يتذكروا ان سلامتهم من هذا الذعر كانت بيد الله ، ابيهم العطوف . فعليهم ان يتحلوا بالصبر والجلد ، وان يحجموا عن قطع العهود السخيفة على انفسهم ، وهم يتلمسون وسائل النجاة . وذكرهم بقول العهد الجديد بان الخوف من الحكام امر مفيد . فالحزن والتوبة يمحوان الخطيئة . وان الله ، الخالق ، قد اظهر حبه لهم بخلقه اياهم ، وانه من الممكن للناس ان يعيدوا اقامة علاقتهم الحقيقية بالله .

عندما وصل يوحنا الى منتصف سلسلة عظاته ، وصلت الاخبار من القسطنطينية بان الامبراطور ، بناء على وساطة الاسقف ، وعلى اساس من تقرير المندوبين ، الذي حملته الرسل السريعة الى العاصمة ، تفضل وصفح عن المدينة ورفع عنها جميع العقوبات التي كانت قد انزلت بها . وكان الفرح عظيما ؛ ولكن يوحنا فم الذهب لم ينه عظاته . لقد اصبح يستطيع الآن ان ينوه ، في ما تبقى منها ، بمدى الامتنان الذي ينبغي على الناس ان يحسوا به نحو الله ، لتخليصه لهم من هذه المحنة ، كما اصبح يستطيع ان يذكرهم بفعالية خوفهم وتوبتهم . واغتنم يوحنا ، في عظاته جميعها ، فرصة كون تلك الفترة موعد الصوم الكبير ، ليشير الى اهمية الصوم واختبار النفس .

وقد وصل خبر الصفح الامبراطوري الى انطاكيه حوالي

يوم احد السعف ، وعاد الاسقف نفسه ، في الاسبوع التالي ، قاطعا المسافة الطويلة من القسطنطينية بأقصى سرعة ، بالرغم من سنه المتقدمة . وهكذا اضافت المدينة الى افراح فترة عيد الفصح ابتهاجا من نوع خاص . وكان قداس عيد الفصح الاحتفالي الذي ترأسه الاسقف يفوق في بهجته وابهته كل ما عرفته المدينة في السابق . واضيئت البيوت واقيمت المآدب في الشوارع . وقد تأثر الكثيرون من الوثنيين بتصرف المسيحيين ، وسلوك الاسقف وكهنته ، الى درجة انهم اعتنقوا المسيحية .

وكان ذلك الامر ، في نظر قادة المدينة المسيحيين ، اكثر من مجرد اضطرابات ، مع انها كانت بالطبع انفجارا فريدا من الشغب . فقد شعر هؤلاء المفكرون انه بالامكان تحويل هذا الهياج من مظاهر الحياة الى مسالك نافعة . وادرك يوحنا ، وهو يفكر في الحادث ، ويحاول معرفة معناه الحقيقي ، انه قد فهم أن أساس المشكلة كان موضوع المواطنة المسيحية . وقد رأى ان احدى اهم وظائف الراعي الديني ان يقود رعيته الى تفهم حقيقة رسالتهم المسيحية . وايقن انه يمكن للناس ان يتعلموا ، من ذلك الصباح المرعب في فوضويته ، شيئا عن دور الانسان الثنائي . فقد خلق الانسان على صورة الله ومثاله ، وهو على الدوام يمثل تلك الصورة مهما شوهتها الخطيئة او حجبتها . وكانت مواطنة الانسان الحقيقية في السماء ، في اورشليم السماوية ، مدينة الاله الحي . اما

هنا ، على الارض ، فلم يكن للمسيحيين بيت دائم ، بل كان المسيحيون مجرد اناس يسعون وراء المدينة التي لم تكن قد أتت بعد .

وكان صحيحا انه بالنسبة لقوم الله كانت رسالة الله كل شيء . ولكن اعمال العنف هذه اكدت حقيقة هامة ، وهي انه طالما وجد الانسان على الارض ، وطالما كان عضوا في المجتمع الدنيوي ، لم يكن هناك مفر للمسيحي من ان يكون مواطنا في الامبراطورية ، وخصوصا ــ بالنسبة لرعية يوحنا ــ في مدينة انطاكيه . لقد كانت هذه مواطنة دنيوية لا يمكــــن للمسيحي ان يفر منها طالما هو يعيش بين غيره من الرجال . وكان واضحا كل الوضوح ان انطاكيه كانت مدينة وثنية ، ولكنها كانت ايضا مدينة مسيحية من المرتبة الاولى في تاريخ العقيدة المسيحية .

لقد كان مسيحيو انطاكيه بحاجة الى التذكير بهذا الدرس . فقد كانت المسيحية ، خلافا لاي من العبادات الوثنية ، دينا تاريخيا ، تكشفت فيه الحقيقة الالهية عن طريق احداث تاريخية . وقد كان الله يكشف عن نفسه باستمرار منذ الزمن الماضي وحتى الوقت الحاضر . وكان هذا احد الفروق الرئيسية بين المسيحية والوثنية . وبهذا المعنى ، فقد كانت مدينة انطاكيه شاهدا خاصا على الدين ، وكان يجدر بالاجيال المسيحية المتعاقبة التي عاشت فيها ان تكون اهلا لان تلعب

دورها كشاهد على تاريخ المدينة . قال الواعظ يوحنا في عظته الثالثة : « ان مدينتنا احب الى المسيح من جميع المدن الاخرى بسبب فضائل اجدادنا وبسبب فضائلكم انتم » . وهكذا فكان يجب على مسيحيي انطاكيه ان يعيشوا كجزء من التراث العظيم ، حتى تصبح المدينة محببة لنفس المسيح .

كان يوحنا فم الذهب ، بصفته تلميذا لليبانيوس ، يدرك تماما الاعتقاد الكلاسيكي بان المدينة ، التي شيدتها فضائل مواطنيها ونواياهم الحسنة ، هي مركز الحضارة . وقد حاول ليبانيوس ان يعلم تلاميذه فضائل مواطن المدينة اليونانية . وكان يوحنا يعرف انطاكيه بصورتها التي عاشت في مخيلة استاذه الوثني ، وكان ، وهو يدرس على يد ليبانيوس ، قد سمع بالضرورة عن الفضائل الكلاسيكية التي شكلت ساكن المدن اليونانية المثالي . ولكن كانت هناك فضائل مسيحية ايضا ، وكان ينبغي للمسيحي الحق ، وهو يعيش في مجتمع دنيوي بين غيره من الرجال ، ان يكون نفسه على اساس من هذه الفضائل . وكانت الطائفة المسيحية ، في شهادتها وعبادتها الجماعية ، مكونة من افراد ، وكان من المهم جدا ان تقوم رابطة بين ايمان الفرد وشهادة الجماعة . واذا كان ليبانيوس قد علم ان المدينة كانت تعتمد على فضائل اهلها ، فان فكرة المسيحي وعلاقته بمدينته كانت قد تغيرت كليا ، لان المسيحية ادخلت مفهوما جديدا تماما عن الانسان وطبيعته .

لقد عاش هذا الانسان الجديد ، هذا « المخلوق الجديد » في مدينة يونانية قديمة ، ولكن فرض عليه ان يعيش فيها على نمط جديد . ونتيجة لهذا المفهوم ، كان لا بد للمدينة نفسها ان تكون خلقا جديدا . وقد تكلم يوحنا فم الذهب بفصاحة عن هذه المدينة الجديدة ، انطاكيه ، في عظته السابعة عشرة : قال :

هل تحزنون لان عزة المدينة قد ولت ؟ تعلموا معنى عزة المدينة ، ومن ثم توقنون بوضوح بانه ما لم يخن المدينة اهلها انفسهم ، فلن تستطيع اية فئة اخرى ان تسلبها عزتها . فان عزة المدينة لا تكمن في كونها عاصمة ، ولا في ابنيتها الكبيرة الجميلة ، ولا في اعمدتها الكثيرة واروقتها الواسعة وممراتها ، ولا في انها تذكر في الاعلانات الرسمية قبل غيرها من المدن ، ولكنها تكمن في فضيلة اهلها وورعهم . هذه هي عزة المدينة وحليتها وحصانتها ، لانه اذا لم تكن هذه الامور موجودة فيها ، من اتفه المدن في العالم ، حتى ولو كانت تتمتع بحظوة الاباطرة المطلقة .

لم تكن هذه فكرة فذة جاء بها يوحنا نفسه ، فقد تحدث معاصره الاصغر سنا نيميسيوس العالم ، اسقف حمص القريبة من انطاكيه ، في رسالته الضليعة «في طبيعة الانسان» On the Nature of Man عن اهمية المدينة للجنس

البشري وللمجتمع ، موفقا بين نظرية افلاطون وبين الفكر المسيحي ؛ قال :

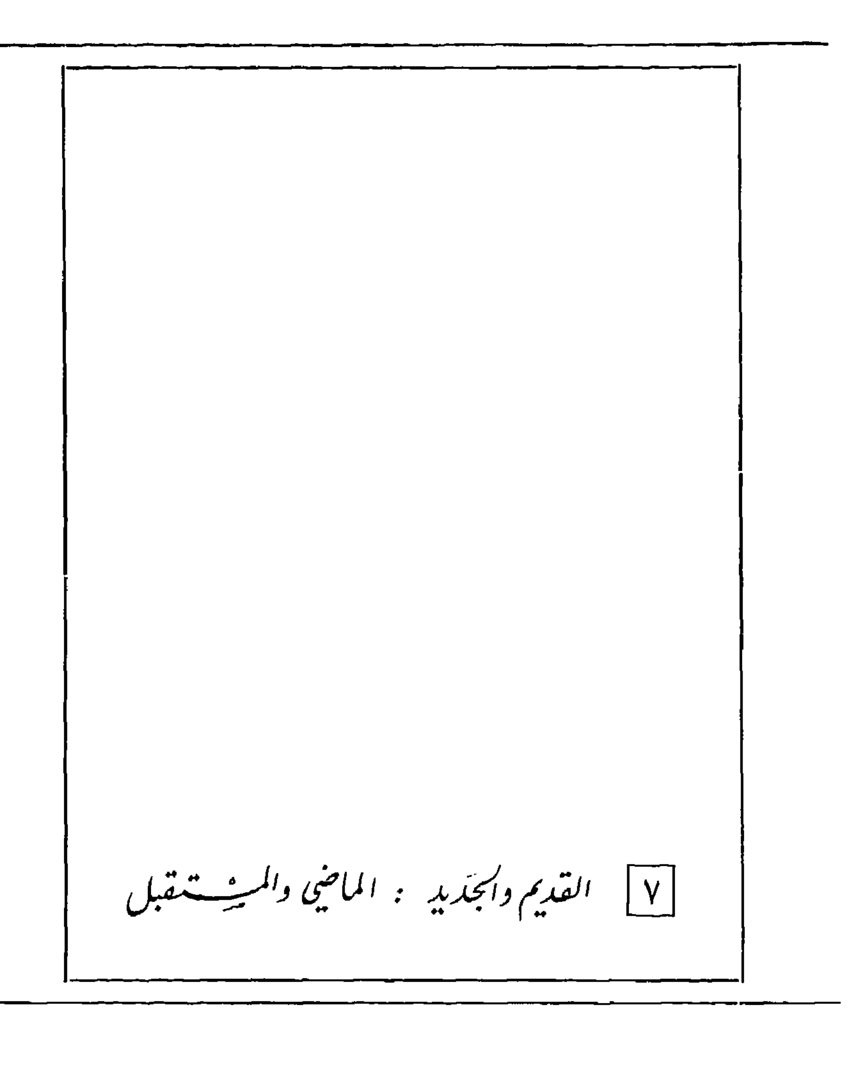
بسبب الآداب والفنون والعلوم ، وبسبب ما تؤدي اليه من نفع ، نحن بحاجة متبادلة احدنا الى الآخر . ولأننا بحاجة الى بعضنا البعض ، فاننا نتجمع في مكان واحد ، وباعداد كبيرة ، ونشترك فيما بيننا في الامور الضرورية للحياة ، في تعامل مشترك . وقد أسمينا هذا التجمع ، هذه المشاركة البشرية ، مدينة . فيهـا نستفيد من قربنا من بعضنا البعض ومن عدم حاجتنا للسفر . فالانسان في طبيعته حيوان اجتماعي خلق للمواطنة ، وليس ثمة شخص واحد يكفي نفسه بنفسه. ولهذا فانه من الواضح ان المدن تقام لاجل المعاشرة ، ولاجل ان يتعلم الواحد منا من الاخر .

لقد اقيم المجتمع المسيحي على المحبة ، وهي فكرة غريبة بالنسبة للمفكرين الوثنيين الذين كانوا قد توصلوا الى فكرة الاستقامة كأساس للنشاط البشري ، اجتماعيا وسياسيا ، ولكنهم لم يكونوا قد تصوروا ان للمحبة علاقة بهذا النشاط . وكان المفكرون المسيحيون من الزهاد ، وخصوصا باسيل القيساري ، معاصر يوحنا الاكبر منه سنا ، يتأملون طبيعة حياة المجتمع الرهباني الذي كان ينسحب اليه المسيحي الذي يود تحرير نفسه من شهوات الجسد ومكبلات الدنيا ، ليسعى

الى اكتشاف حقيقة طبيعة الله ويجعل نفسه على اتصال مع الحقيقة النهائية بشكل افضل مما يتسنى له لو بقي في العالم . وكانت هذه المجتمعات الجديدة ، في اطار طبيعة العلاقات البشرية ، تشبه الوضع في المدينة ، لان نجاحها العملي ، كفئات اجتماعية ، كان يعتمد على الانسجام والفضيلة . وبذلك يكون العنصر الأساسي في تكوين المجتمع الرهباني هو المحبة .

ولربما بدا لبعض المسيحيين ان المجتمع الرهباني ، من حيث كونه الشكل المثالي للحياة البشرية ، هو الوريث المسيحي للمدينة الوثنية . ولكن يوحنا فم الذهب ونيميسيوس ، اسقف حمص ، خالفا هذا الرأي ، فقد اظهرت اعمال العنف في انطاكيه وجه الخطر في المدينة . فمسيحيو انطاكيه كانوا يقومون بشعائر دينهم كمواطنين رومانيين ، يعيشون في عاصمة الاقليم السوري واسقفية الشرق ، فلئن كانت انطاكيه لا تزال مدينة منقسمة الى جماعة وثنية وجماعة مسيحية ، فقد كان من المحتم ان تصبح يوما ما ، حسب الخطة الالهية ، مدينة مسيحية تماما ، ولربما كانت الاضطرابات اشارة الى ما يمكن ان تصبح عليه المدينة . لقد كان ليبانيوس يرى ان المدينة القديمة باتت مهددة ، وربط تداعي عالمه بسقوط تلك المدينة . وقد كان ذلك من وجهة نظره صحيحا ، ولكن ليبانيوس لم يدرك ان المسيحيين كانوا قادرين على ان يتصوروا نوعا جديدا من المدن له اسلوب

مواطنة جديد مبني على المحبة . وهكذا ، فقد كان لفكرة المدينة القديمة المفيدة ان تحقق نفسها في اطار جديد . وكانت احدى مهمات اسقف انطاكيه وكهنته ، بما فيهم يوحنا فم الذهب ، ان يوجهوا تحقيق المدينة هذا لذاتها .



٧ القديم والجديد : الماضي والمستقبل

« تمسكوا بالتقاليد » .
الرسالة الثانية الى اهل تسالونيكي

هل كان لأهل انطاكيه ، لو رغبوا في استطلاع المستقبل ، ان يروا في مدينتهم ، ابان عهد ثيودوسيوس الكبير ، امورا ستكون مثار دهشة للاجيال المقبلة ؟ لو فرضنا ان مواطنا من العالم الحديث استطاع ، وهو يعالج هذه الفكرة ، ان ينتقل بطريقة سحرية الى انطاكيه في زمن ثيودوسيوس الكبير ، فستكون لديه بعض الاسئلة التي يرغب في ان يطرحها على ليبانيوس وعلى يوحنا فم الذهب . ولا بد لذلك الزائر الخارق للطبيعة ، لعلمه بمجرى التاريخ القديم ، ان يستفسر عما كان ليبانيوس ويوحنا فم الذهب ، اثناء حياتهما ، يتوقعانه من المستقبل . فرجال العصر الحديث يبدون اهتماما كبيرا بالمستقبل ويملكون قدرا من حب الاستطلاع بشأنه . وهكذا ، فان هذا الزائر قد يندهش عندما يكتشف ان ليبانيوس ويوحنا فم الذهب لا يشاركانه الاهتمام بسؤاله عن المستقبل.

لم يكن ذلك يعود ، في الحقيقة ، الى ان رجال العصور القديمة لم يهتموا بالمستقبل ، ولكن الى ان هذين الرجلين بالذات لم يعيرا المستقبل جانبا كبيرا من تفكيرهما . وسيدرك الزائر ان موقفهما هذا كان ذا اهمية خاصة لزمنهما ومكانهما ، ولهما هما ، ولمن كانا يمثلان من الاصدقاء .

لقد نشأ ليبانيوس ضمن اطار الماضي ، ومعنى ذلك الماضي للحاضر . ولكن معنى صفة الاستمرار في الماضي والحاضر في عالم ليبانيوس كان يهدده ، ان لم يكن قد اثر فيه فعلا ، اقتحام « الجنون الجليلي » ، المسيحية ، اياه . ولا شك ان ليبانيوس سيحاول جاهدا اخفاء شعوره تجاه ذلك الزائر الغريب ، كما حاول ، في اغلب الظن ، اخفاءه عن معاصريه انفسهم — او حتى عن نفسه . ولكن لا بد انه كان واضحا للجميع في ذلك الوقت انه لا يمكن لليبانيوس ، من وجهة نظره الخاصة ، ان يتوقع الكثير من المستقبل ، اذ كان ليبانيوس قد رأى اخفاق محاولة صديقه يوليان احياء الدين القديم . وفي عهد ثيودوسيوس الذي تلا تلك المحاولة بعشرين سنة او تزيد ، كان بامكان الجميع ان يجزموا بأن غاية امل ليبانيوس كانت انقاذ بعض الصفات الهيلينية على الاقل والمحافظة عليها ، فلم يعد بالامكان لأي كان ان يأمل في استعادة الهيلينية او احيائها . ولعل غاية ما كان يمكن للانسان ان يرجوه هو بقاء جزء من تلك التقاليد . وقد واجه ليبانيوس ، ذلك المستقبل بشجاعة حقيقية ، على الاقل .

اما بالنسبة لرجل مثل يوحنا فم الذهب ، فقد كان المستقبل امرا مختلفا تماما ، اذ كان مؤمنا ، في نظره ، لانه كان يعني تحقيق مملكة الله على الارض في الوقت المناسب . وكان لا بد من ان يتم ذلك ، وما كان المستقبل الا فترة اعداد لذلك التحقيق . وعلى الرغم من ان تحقيق مملكة الله على الارض لا يمكن ان يتم في الحال ، على اي وجه من الوجوه . فان على خدام الله ان يشاركوا في التحضير له . وان على خدام الله ، مثل يوحنا فم الذهب ، ان يهيئوا انفسهم لمواجهة الصعوبات التي ستواجههم اثناء القيام بواجبهم ، ولكن النتيجة لم تكن موضع شك ابدا . ولم يجد يوحنا نفسه مجبرا ، مثل ليبانيوس ، على اخفاء شعوره ، فمستقبل حياته هو كان امرا يمكن التطلع اليه بجذل وثقة ، ولا يمكن ان يكون مستقبل انطاكيه ـ والعالم ـ بعد موته الا تقدما مأمونا نحو اتحاد الامور كلها بالمسيح .

هذه كانت توقعات الرجلين اللذين مثلا التراثين الدينيين العاملين في تكوين انطاكيه في زمن ثيودوسيوس . ولو قدر للزائر ، بعد فراغه من الحديث مع ليبانيوس ويوحنا فم الذهب ، ان ينتقل بسؤاله الى من هم دون هذين الرجلين منزلة ـ وربما يجدر بنا ان نقول من هم اقل اهتماما بالتقاليد الدينية ، واقل استبطانا للمستقبل ـ لتمكن من ابصار حقيقة اخرى عن آمال رجال ذلك العالم .

فلو قدر له ، مثلا ، ان يطرح سؤاله على أحد اعضاء الادارة

الامبراطورية ، مثل كونت الشرق او حاكم سوريه ، لاكتشف وجهة نظر اخرى تختلف عن سابقتيها . فبالنسبة لمثل هؤلاء المسؤولين لم يكن هناك ادنى شك ، بالطبع ، في ان المستقبل كان موثوقا ومأمونا . الم يكن خلود الامبراطورية الرومانية من اقدم البديهيات السياسية ؟ من الممكن ان تكون تلك الايام مضطربة ، ومن الممكن ان تكون قوة الفرس والبرابرة قد اصبحت عاملا دائما في تفكير جميع الاباطرة ومستشاريهم ، ومن الممكن ، طبعا ، ان تكون هناك صعوبات اقتصادية واجتماعية في الامبراطورية نفسها ، ولكن الامبراطورية كانت قد استمرت لعدة قرون وابقت على كيانها رغم كل المشكلات والازمات . وكان الشكل الجديد الذي اتخذته الدولة تدريجا في السنوات المائة السابقة اكثر ملاءمة من اي شكل سابق للسير قدما بتاريخ الشعب الروماني .

في ذلك الوقت ، كان من الممكن لمثل هؤلاء المسؤولين ان يدركوا ان الدولة كانت تتخذ ، اكثر فاكثر ، الشكل الذي كان أي امبراطور روماني مسيحي يريده لها . فقد استطاع ثيودوسيوس ، ذلك الرجل الجدي الورع ، ان يقوم بخطوة لم يكن تنفيذها في متناول يد قسطنطين العظيم . فقد أصدر التشريعات القادرة على الزام الناس باتباع العقيدة الحنيفة بقوة القانون ، وعلى أخضاع الخطأ الديني ، لا للغضب الالهي فحسب ، بل للاجراءات المدنية ايضا . وعززت التشريعات المقاومة للتعاليم الوثنية . وعلى هذا ، فلا شك ان وضع

الكنيسة كان ممتازا ، حتى ولو لم تكن الوثنية قد اندثرت كليا ، وحتى بعد قيام الخلاف حول طبيعة الروح القدس في اعقاب اخماد الاثم الآريوسي . وكان هؤلاء المسؤولون سيؤكدون للزائر من عالم المستقبل ان الدلائل السياسية مشجعة . أو لم تكن الدولة والكنيسة تعملان معا في وئام لاجل خلاص شعب الامبراطورية ؟ وكانت التطورات تبدو ملائمة لرغبات الجميع . وقد استطاع ثيودوسيوس ان يحقق في مجال السياسة الدينية ما كان قسطنطين يأمل - لا شك ، في تحقيقه ، لو كان في وضع يمكنه من ذلك . والآن ، وقد تحقق الوئام الديني ، على يد سلطات الدولة البوليسية ، فانه سيؤمن للشعب الروماني الرخاء المادي والسعادة الروحية على حد سواء ، لان الله سينظر بعين العطف الى شؤون عبيده جميعها طالما هم يعيشون في سلام بعضهم مع بعض . وهكذا كان بامكان سكان الامبراطورية جميعهم ، مهما كانت رتبتهم او طبيعة عملهم ، ان يمارسوا اعمالهم اليومية وهم يعلمون انهم يعيشون في كنف الرعاية الالهية المأمونة .

واذا كان هناك شك بشأن ما يخبئه المستقبل لدى اي موظف من موظفي ثيودوسيوس ، الكنسيين منهم او المدنيين ، فلا بد انه احتفظ به لنفسه . وهنا يجدر بالزائر ، وهو عالم بالمستقبل ، ان يتساءل عما اذا كان بامكان المراقبين في ايام ثيودوسيوس ان يتوقعوا عهد جستنيان بعد مائة وخمسين

سنة ـ العهد الذي طور فيه ذلك الحاكم القدير النشيط الملك المسيحي بحيث اصبح الامبراطور نفسه يعمل ، دون الرجوع الى اية هيئة كنسية ، على اصدار احكام تتعلق بالعقيدة او تتمتع بقوة القانون ، بحكم صدورها عن شخص الامبراطور المقدس . ومع حلول الوقت الذي كان مقدرا لهذا ان يحدث فيه ، يكون عصر انطاكيه العظيم قد انتهى . وان احدا في انطاكيه ايام ثيودوسيوس لم يكن يعلم ان المدينة ، بعد مائة وخمسين سنة ، ستدمرها النيران ، والزلازل ، والغزوات الفارسية المخربة ، باكثر مما يعلم ، في زمن ليبانيوس ويوحنا فم الذهب ، ان انطاكيه، بعد موت جستنيان بأقل من قرن ، ستصبح مدينة لا اهمية لها .

كان المستقبل آتيا لا محالة ، وما كان بامكان احد التنبؤ بما سيأتي به . وكان الامر المهم ، بالنسبة لليبانيوس وليوحنا فم الذهب وامثالهما ، ان يحافظ على التقاليد ـ اي ان تنقل الى المستقبل انجازات الماضي النبيلة ، ليتمكن المستقبل من الاستمتاع بالتحصيل الذي كان من نصيب الدنيا . وكانت قوة الانسانية وخلاصها (بالنسبة للمسيحيين والوثنيين على حد سواء) متأصلة في الماضي ، الذي كان يعبر عن نفسه وعن فعاليته من خلال الحاضر . ولو قدر لليبانيوس ويوحنا فم الذهب ان يعلما مسبقا ان انطاكيه التي عرفاها ستزول ، وان حمل مشعل التقاليد سينتقل الى القسطنطينية ، لشعرا ، كغيرهما من محبي انطاكيه ، بأن تلك ، بالطبع ، ضربة

قاسية . ولكن المهم بالنسبة لهما ، مع ذلك ، كان استمرار حياة التقاليد .

لقد كان الناس في انطاكيه ، بغض النظر عن ولائهم الديني او خلفيتهم الفكرية ، يشعرون بامتنان للماضي ــ الماضي الخاص الذي ينظر اليه كل واحد منهم ، حسب ميوله ــ وهو الماضي الذي كان له فضل تكوينهم . وقد آمن كل مثقف في ذلك الوقت له خبرة ، ولو محدودة ، في الشؤون العملية بأهمية جذوره الممتدة في الماضي وبما تحمله تلك الجذور من معان بالنسبة لحياته الحاضرة . وفي الحقيقة ، فان كل من لم يدرك هذا الدَّيْن لا يبدو ناكرا للجميل فحسب، بل ويبدو جاهلا ايضا ، لان مثل هذا الرجل كان بعيدا عن فهم الحاضر وادراك معناه .

لم يكن المستقبل ليفهم ، ضمن ذلك الاطار ، كتسلسل زمني يلحق بالحاضر في الزمن ، ولكن كتطور للحاضر الذي يمثل بدوره حبلا غير منقطع يشد المستقبل بالماضي . وعليه ، ففي هذه العملية التاريخية المستمرة ، سيتخذ اي حدث طارىء غير مرتقب يأتي به المستقبل شكلا ، متأثرا في تكوينه ومشروطا في حدوثه ، الى حد ما على الاقل ، بما سبقه من احداث . ولم يكن مسيحيو الحاضر ، حسب اعتقاد الكنيسة، مرتبطين بمسيحيي الماضي فحسب ، بل وبمن سيصبحون مسيحيين في المستقبل كذلك . وكان هذا الاعتقاد متمشيا

مع الايمان التقليدي بخلود الامبراطورية الرومانية . وشكل هذان المعتقدان اساسا للثقة بأنه يمكن اعتبار المستقبل وكأنه ، في الاساس ، خاضع لسيطرة الحاضر . وبهذا تتكون الحياة الدينية والاجتماعية والفكرية ـ وكلها وحدة لا تتجزأ ـ من عناصر تمثل تراثا راسخا مستمرا في طريق التقدم . وكانت مسؤولية حماية كل ما جرب وثبتت صلاحيته والابقاء عليه تشكل جزءا هاما من ذلك التراث الذي كانت حياة المدن اليونانية مظهرا ماديا له .

وبهذا المفهوم ، فان تطورا تاريخيا كسقوط انطاكيه وانتقال مادة الثقافة الى القسطنطينية ، كان مجرد حدث في تاريخ المدينة وليس بالضرورة عائقا لتطورها . وكان من الطبيعي للقسطنطينية ، في عملية الانتقال ، ان تقدم اضافاتها الخاصة ؛ ولكن العنصر المهم في الثقافة كان مادة تلك الثقافة وليس موقعها ؛ ورغم ان تلك الثقافة نمت في مدينة معينة ، فانها لم تنحصر فيها بالضرورة. فقد تداعت أثينه ماديا ، مثلا ، ولكن حضارتها انتشرت الى جميع انحاء العالم وبقي بعضها في أثينه نفسها . وكان الانسان تابعا بالحتم لمدينته ، وكان للمدينة دور لا غنى عنه في تكوين الحضارة ونقلها ، ولكن الحضارة نفسها تكمن ، في حقيقة الأمر ، في البشر وليس في المباني ، ولو ان البشر اقاموا تلك المباني للتعبير عن حضارتهم . فتعلق ليبانيوس كان بالناس في بيئتهم ، وكانت البيئة بالنسبة له عاملا أساسيا . وقد اعترفت المسيحية

بالبيئة وقدرتها ، ولكنها كانت تهتم اولا بالبشر ، خصوصا من حيث كونهم افرادا . ولم تعد صفة الناس الرئيسية ، ايام المسيحية ، انهم مواطنون في مدينة ، كما كانت قبل المسيحية بالنسبة لدارسي الانسان ككائن اجتماعي ، امثال افلاطون وأرسطوطاليس ، بل انهم اعضاء في جسم المسيح . وقد طغى هذا المفهوم الجديد على الآراء والمثل الاجتماعية الاخرى جميعها .

ولكن كان على المسيحيين ان يعيشوا ، في اكثر الاحيان ، في مدن كانت قد خرجت الى حيز الوجود في الاصل كمدن كلاسيكية قديمة . وكانت القسطنطينية المدينة العظيمة الوحيدة في الامبراطورية التي خططت اصلا كمدينة مسيحية . وحتى في هذه الحالة ، فقد كان للقسطنطينية من المظاهر الخارجية ما للمدينة الكلاسيكية ، وذلك ، ببساطة ، لان مؤسسي المدينة ومخططيها لم يستطيعوا ان يتصوروا مدينة من أي نوع آخر . وكان تأسيس القسطنطينية كعاصمة امبراطورية مسيحية جديدة اقرارا بان المدينة الكلاسيكية تستطيع ان تتخذ لنفسها روحا جديدة، هي الروح المسيحية، وان الروح القدس يستطيع ان يعمل في حياة الناس ضمن محيط المدينة الكلاسيكية كما يستطيع ان يعمل في أي مكان آخر . وكانت الحضارة الكلاسيكية قد تعمدت التمركز في المدينة ، بينما ركزت المسيحية نفسها في بيت الله ، الذي هو الجماعة المسيحية . واذ وجدت الثقافة المسيحية انها

قادرة على امتصاص الثقافة الكلاسيكية داخل نفسها ، فان المدينة لم تعد هدفا بل اصبحت وسيلة وحسب .

وبهذا ، لم يكن هناك بديل من ان تتغير مدينة مثل انطاكيه اثناء العملية التي انتقلت خلالها من مدينة كلاسيكية الى مجتمع مسيحي . ومع انها لم تزل هي انطاكيه ، عاصمة سوريه ، ومقر كونت الشرق ، و « تاج الشرق الجميل » ، الا انها اصبحت مدينة غير المدينة الاصلية . وكان هذا التغيير من النوع الذي لا يمكن لليبانيوس ان يفهمه ، لانه لم يكن في تدريبه ومحيطه ما يهيىء عقله لمثل هذا التغيير . واما يوحنا فم الذهب فقد كان ، بصفته راعيا دينيا قبل كل شيء ، منكبا على سد حاجات رعيته المباشرة اكثر مـن انكبابه على تقدير التطور الذي سيصيب محيط تلك الرعية في النهاية . وكان يعلم ان كل جيل جديد من المسيحيين كان يحتاج الى ان يهتدى الى المسيحية من جديد . ولو كان يميل الى النظر الى المستقبل ، لتأمله بعين الرضى ، ولكنه لم يكن ليتطلع الى تطور مدينة انطاكيه المقبل ، بل كان يرنو الى تحقيق مملكة الله في الارض .

لقد مثل ليبانيوس ويوحنا فم الذهب في شخصيهمـا مقومات انطاكيه جميعها في ذلك الوقت . ليس هذا فحسب، فقد كانت العلاقة الخاصة بينهما ذات دلالة كبيرة . لقد كان يوحنا تلميذا لليبانيوس ، وكان ليبانيوس ، حسب الرأي

السائد في انطاكيه آنذاك ، يعتبر يوحنا الم تلاميذه . الى هذا الحد كان الجديد معتمدا على القديم . ولكن ليبانيوس ، حسب الرأي السائد نفسه ، رفض ، وهو على فراش الموت ، ان يسمح لتلميذه المسيحي الشهير ان يخلفه في رئاسة مدرسته . وهكذا وصل القديم والجديد اخيرا الى نقطة عدم الالتقاء .

ومع ذلك فقد اشترك هذان الرجلان في رأي هام . لقد اعتقد كلاهما بالتحام الماضي بالحاضر ـ غير ان مضمونات ذلك عند كل منهما كانت مختلفة ، مثلما كانت دلالة الماضي على المستقبل مختلفة عند كل منهما ؛ فعالم ليبانيوس ، الذي تعود جذوره الى ماض مكون من عناصر عديدة ، لم يكن يتوقع ، او يرجو ، اكثر من ان يبقي على نفسه، اذ ان مستقبل ذلك العالم كان بالضرورة امرا مغلقا ومحدودا . وكان عالم يوحنا فم الذهب متأصلا في الماضي ايضا ، ولكنه كان ماضيا مرتكزا على حدث تاريخي ـ « في زمن بيلاطس البنطي » ، فهو بداية لاحداث اخرى . وعليه ، فكان لا بد ان يكون المستقبل تأكيدا لارتقاء متواصل نحو الافضل ، الى ان تتحد الاشياء جميعها . ولم يكن للماضي المسيحي الا ان ينمو ويطور نفسه .

هل يمكن لنا ان نرى ، في هذا كله ، ماهية الموانع التي ابقت بعض الوثنيين بعيدين عن المسيحية الى الابد ؟ قد تدل

وجهة نظر ليبانيوس على السبب ، او على احد الاسباب التي من اجلها لم يستطع امثال ليبانيوس وثميسطيوس وحتى يوليان ، الذي كان في وقت ما مسيحيا ، ولو بالاسم ، ان يفهموا وجهة النظر المسيحية ، او ان يقدروا قوة المسيحية ، وأسباب نجاحها الحالي ، وتأكدها من التوسع المستمر . لقد أجبر تحرر المسيحية والتطورات الاجتماعية والسياسية في القرن الرابع ، الوثنيين والمسيحيين على السواء على اعادة التفكير في معنى هذا العالم وأهمية الانسان وحياته في العالم . ولم تدرج المسيحية في حسابها ، على يد السلسلة العظيمة من اللاهوتيين الذين انجبهم القرن الرابع ، العقيدة المسيحية فحسب ، ولكن الاحترام الكلاسيكي للعصور القديمة وانجازات عظماء الماضي ، التي كانت من اهم مقومات التراث الكلاسيكي ايضا . وقد طبقت وجهة النظر هذه حتى على علم اللاهوت ؛ فمثلا صرح باسيل الكبير في رسالته « في الروح القدس » On the Holy Spirit ان اللاهوتيين ذوي الخلق القويم « يعتبرون ان عزة العصور القديمة (أي الكنيسة القديمة) اشرف من الجدة المستحدثة الزي » ، وان امثال هؤلاء الرجال « يسعون الى المحافظة على تراث آبائهم نقيا غير مدنس » . فالحقيقة ، بالنسبة للمسيحيين ، قادرة على اثبات نفسها .

وكان بامكان المسيحيين ان يحلوا مشكلاتهم على هذا الاساس ، ولكن ماذا كان موقف الوثنيين من هذه المشكلة ؟

عندما كان الناس يتحدونهم بان يميزوا حقيقة الامور التي كانوا يحيون من اجلها ويؤكدونها ، لم يكن لديهم غير تقاليدهم الادبية التي لم يكن فيها متسع لاي جديد ، لان قدمها وبقاءها كانا دليلين على صحتها . واذا بدت المسيحية وكأنها تميل الى ان تزعزع الثقة في تلك التقاليد ، فلم يكن هناك مفر من اعتبار المسيحية على خطأ . وكان ثميسطيوس ويوليان يعرفان بعض الشيء التعاليم المسيحية ، ولكن مهما كانت درجة معرفتهما ، فلم تكن تلك المعرفة ، بالنسبة لهما ، كافية لتحل محل التراث الفكري للماضي الكلاسيكي . وكانت احدى المقومات الرئيسية لهذا التراث هي المدينة اليونانية من حيث كونها مركزا للحضارة . ولم تزل المدينة اليونانية ، بالنسبة لليبانيوس هي النواة التي يجدر بحياة الانسانية الحقة ان تبني نفسها حولها ؛ ولم يكن من الممكن في رأيه قبول أي اطار غير هذا . فقد يتحدث المسيحيون ، من أمثال تلميذه يوحنا فم الذهب ، عن المدينة كأساس لتطوير معتقداتهم ، ولكن ، بالنسبة لليبانيوس ، لم يكن للمدينة المسيحية أي معنى .

كان كل من المسيحيين والوثنيين يتبنون حقيقة معينة . ولما كانت الحقيقة المسيحية شاملة وعامة ، فقد كان بالامكان ان تنفتح وتتوسع لتضم اليها أي معتقد او فكرة تستطيع ان تثبت انها جزء من الحقيقة الكبرى ؛ وعلى هذا الاساس ، فقد استوعبت الحضارة المسيحية الجديدة بعض مظاهر الفكر

اليوناني . اما بالنسبة للوثنيين ، فقد كان أي ادراك جديد ومستمر للحقيقة امرا مستحيلا ، لا بل كان غير ضروري على الاطلاق . فالنظام الجديد الذي جاء به المسيحيون كسبب للحياة لم يقبله ليبانيوس وامثاله ــ بل لم يفهموه ــ لان ذلك النظام لم يتفق وحقيقة العصور القديمة . وعليه ، فقد بدا لليبانيوس ان العالم يتداعى ، ولا يمكن له الا ان يتداعى ، ولم يتبق من الحضارة الحقة الا ما تبقى من المدينة القديمة ، بينما اعتقد المسيحيون انه يمكن للحياة الجديدة والثقافة الجديدة ان تسلم بالمدينة الكلاسيكية ومن ثم تبني عليها ، ذلك ان المسيحيين كانوا اقل حساسية من الوثنيين تجاه التداعي والانحلال اللذين كان هؤلاء يشعرون بهما .

قد ينظر الباحثون في ايامنا هذه الى الصراع بين المسيحية والوثنية من وجهة نظر حديثة . وبالفعل ، فقد اتخذ مدلول كلمة « الوثنية » اصداء خاصة من خلال استعمال هذه الكلمة من حيث علاقتها بالمسيحية ، وفي ضوء نتيجة ذلك الصراع الذي نشأ بينها وبين المسيحية . أما ليبانيوس وامثاله ، فلم يفكروا من زاوية هذه العلاقة . فما اصبح يعرف في العصور اللاحقة « بالوثنية » ، كان بالنسبة لليبانيوس الطريقة الوحيدة للحياة التقليدية المتحضرة والصحيحة ــ طريقة كانت تتعرض للتهديد من جانب مذهب كريه . وقد اعتقد ليبانيوس ان اللجوء الى تدعيم ولاء المواطنين لمدينتهم كان يكفل مواجهة ذلك التهديد اكثر من غيره من الاجراءات ، اذ ان ذلك الاجراء

كان اقوى الوسائل في استمالة اهـل الثقافة اليونانيـة . وكانت المدينة في عهد ليبانيوس تستطيع ان تفرض مثل هذا الولاء ، لان انطاكيه ، كما حاول ليبانيوس ان يبين ، كانت شيئا مستقلا في الاساس عن المسيحية وعن سيطرة الادارة الامبراطورية . وان في هذا لدرسا لنا عـن تأثـير التراث الكلاسيكي في عصوره القديمة . لقد اتيحت لكل من يوليان وثميسطيوس وليبانيوس فرص مختلفة ، واتبع كل منهم منهجا مختلفا . ونستطيع نحن ان نعجب بما بذلوه من جهد اذا علمنا ما لم يعلموه هم ، من ان القوة التي كانوا يحاربونها كانت اقوى منهم جميعا .

ومع ان تمثال الاهة الحظ السعيد في انطاكيه،وهو التمثال الذي اقامه النحات يوتيخيدس قد اختفى ــ ونحن نتمنى لو عرفنا كيف اختفى ومتى ؛ ومع ان مكان المدينة اصبح خرابا يستعمله الفلاحون فـي القـرون الوسطى كمقلـع تستخرج منه الحجارة لاعمال البناء ، فان المدينة لم تهلك كليا ، بل تشربت الحضارة اليونانية المسيحية الجديدة ثقافتها . وقد قدمت كل من المدن العظيمة في الامبراطورية الرومانية الشرقية ، وهي انطاكيه والاسكندرية والقسطنطينية ، شيئا للثقافة الجديدة ؛ ولعبت اثنتان من المدن الجامعية الصغيرة ، وهما اثينه وغزة ، دورا هاما في بناء هذه الثقافة الجديدة . وفي نهاية المطاف ، جمعت القسطنطينية ، بصفتها مدينة امبراطورية مسيحية اصيلة ، أطراف ما قدمته كل من هذه

المدن ، ونقلته مع الزمن الى الغرب . ولكـن لعل هديـة القسطنطينية للحضارة لم تكن بمثل ما كانت عليه لو لم تقدم المدن الاخرى نصيبها الوافي لها .

وبكلمة ، ما الذي جعل من انطاكيه تلك المدينة التي رأينا ؟ لقد كرس ليبانيوس ويوحنا فم الذهب نفسيهما لدراسة الانسان والمجتمع ، ولكنهما شاهدا نشاط الانسان الاجتماعي من زاويتين مختلفتين ، وعللا ذلك النشاط بأسباب مختلفة . فكان المجتمع البشري يدور ، بالنسبة لليبانيوس ، حـول الثقافة، وكان ، بالنسبة ليوحنا فم الذهب، يدور حول الدين . ولو امكن الجمع بين هذين العاملين ، كما حدث فعلا في انطاكيه ابان عهد ثيودوسيوس الكبير ، لكانت النتيجة مدينة تتحلى ، على حد تعبير جون هنري نيومان ، « بالنعمة المخزونة في اورشليم ، وبالهبات التي تشع من أثينه » .

مراجع مختارة

Dohrn, T. **Die Tyche von Antiochia.** Berlin, 1960.

Downey, G. **Ancient Antioch.** Princeton University Press, 1962.

———. **Constantinople in the Age of Justinian.** University of Oklahoma Press, 1960 (Centers of Civilization Series).

———. **A History of Antioch in Syria from Seleucus to the Arab Conquest.** Princeton University Press, 1961.

Festugière, A. J. **Antioche païenne et chrétienne : Libanius, Chrysostome et les moines de Syrie.** Paris, 1959.

Haddad, G. **Aspects of Social Life in Antioch in the Hellenistic-Roman Period.** Dissertation, University of Chicago ; New York, Stechert, 1949.

Jaeger, Werner. **Early Christianity and Greek Paideia.** Harvard University Press, 1961.

Jones, A. H. M. **The Greek City from Alexander to Justinian.** Oxford University Press, 1940.

King, N. Q. **The Emperor Theodosius and the Establishment of Christianity.** London, S. C. M. Press, 1961.

Laistner, M. L. W. **Christianity and Pagan Culture in the Later Roman Empire.** Cornell University Press, 1951.

Levi, Doro. **Antioch Mosaic Pavements.** 2 vols. Princeton University Press, 1947.

Libanius. **Concerning the Prisoners,** translated by R. A. Pack, in **Studies in Libanius and Antiochene Society under Theodosius.** Dissertation, University of Michigan; 1935.

———. « Libanius' Oration in Praise of Antioch (Oration XI), » translated by G. Downey, in **Proceedings of the American Philosophical Society,** Vol. CIII, No. 5 (October, 1959), 652-86.

Mumford, Louis. **The City in History : Its Origins, Its Transformations, and Its Prospects.** New York, Harcourt, Brace and World, 1961.

Pack, R. A. **Studies in Libanius and Antiochene Society under Theodosius.** Dissertation, University of Michigan; 1935.

Petit, P. **Les étudiants de Libanius : Un professeur de faculté et ses élèves au Bas Empire.** Paris, 1956.

————. **Libanius et la vie municipale à Antioche au IVe siècle après J.-C.** Paris, 1955.

Piganiol, A. **L'Empire chrétien, 325-395.** Paris, 1947.

St. John Chrysostom. **Oeuvres complètes de S. Jean Chrysostome,** translated to French by Abbé J. Bareille, 21 vols., Paris, 1864-1878.

————. **On the Priesthood,** translated by A. J. Moxon, London, S. P. C. K., 1907.

————. **Select Library of the Nicene and Post-Nicene Fathers of the Christian Church.** 6 vols. First Series, Buffalo, 1886-1900.

————. and St. Basil. **The Orthodox Liturgy, Being the Divine Liturgy of St. John Chrysostom and St. Basil the Great.** London, S. P. C. K., 1939.

Theodosius. **The Theodosian Code and Novels,** translated by Clyde Pharr and others. Princeton University Press, 1952.

Walden, J. W. H. **The Universities of Ancient Greece.** New York, Scribner, 1909.

Wolff, H. J. **Roman Law : An Historical Introduction.** University of Oklahoma Press, 1951.

الفهرست

أ

ب

ت

ث

ج

ح

خ

د

ر

ز

س

ش

ص

ط

ع

غ

ف

ق

ك

ل

م

ن

ه

و

ي

فهرست المحتويات

ف. ب. (١٨٢)
١٩٦٨

سلسلة مراكز الحضارة

يتيح جلانفيل داوني للقراء فرصة لربط العالمين المتصارعين في انطاكيه : عالم ليبانيوس القديم وعالم القديس يوحنا فم الذهب الجديد . ولقد كانت هذه المدينة السورية دائماً مثالاً فريداً بين المراكز اليونانية الرومانية ، اذ يظهر فيها تفاعل العناصر المختلفة التي تكونت منها المدينة ، ويبرز معها تطور التقاليد التي كونتها تلك العناصر . وفي عهد ثيودوسيوس الكبير (٣٧٩ - ٣٩٥) ، الذي رأى قمة ازدهار انطاكيه في كنف الامبراطورية الرومانية ، كانت المدينة الكلاسيكية تتحول تدريجاً الى مدينة من نوع جديد متميز بالثقافة المسيحية اليونانية الجديدة .

الكتب التي صدرت من هذه السلسلة :

دمشق في عصر المماليك
تأليف وترجمة :
الدكتور نقولا زياده

شيراز مدينة الاولياء والشعراء
تأليف : آرثر آربري
ترجمة : الدكتور سامي مكارم

أثينا في عهد بركليس
تأليف : تشارلز ألكسندر روبنصن
ترجمة : الدكتور أنيس فريحة

طيبة في عهد أمنحوتب الثالث
تألیف : اليزابث رايفشتال
ترجمة : ابراهيم رزق

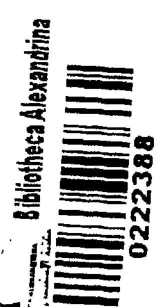
فاس في عصر بني مرين
تأليف : روجيه لو تورنو
ترجمة : الدكتور نقولا زياده

القاهرة مدينة الفن والتجارة
تأليف : جاستون فييت
ترجمة : الدكتور مصطفى العبادي

فلورنسه في عصر دانتي
تأليف : بول ج. رجيرز
ترجمة : الدكتور محمود ابراهيم

القسطنطينية في عهد جستنيان
تأليف : جلانفيل داوني
ترجمة : فاروق جرار

استانبول وحضارة الامبراطورية العثمانية
تأليف : برنارد لويس
ترجمة : الدكتور محمود زايد



الناشر : مكتبة لبنان - بيروت